العبرانيون وبنو إسرائيل فى العصور القديمة
بين الرواية التوراتية والاكتشافات الأثرية

أبراهام مالمات

حييم تدمور

ترجمة وتقديم

دكتور/ رشاد عبد الله الشامي

الطبعة الأولى

القاهرة ٢٠٠١

الكتاب: العبرانيون وبنو إسرائيل في العصور القديمة
بين الرواية التوراتية والاكتشافات الأثرية
أبراهام مالمات
حييم تدمور

ترجمة وتقديم: دكتور/ رشاد الشامي

رقـــم الإيداع: ٢٠٠١/٢٠٨٦

الترقيم الدولي: ISBN
977--5841-51--8
تاريخ النشر: ٢٠٠١

الناشر: المكتب المصرى لتوزيع المطبوعات

الإدارة: ٥ ش مصطفى طموم ـــ المنيل ـــ القاهرة
تليفاكس: ٣٦٥٥٤٨٧

الجزء الأول

بدايات تاريخ بنى إسرائيل

تأليف *

أبراهام مالمات

ترجمة وتعليق

دكتور رشاد عبد الله الشامي

★ فى كتاب «تاريخ شعب إسرائيل» (تولدوت عم يسرائيل) - الجزء الأول «تاريخ إسرائيل فى العصور القديمة» (تولدوت يسرائيل بيمى قيديم) - دار نشر «دفير» تل أبيب - ١٩٦٩.

وثيقة إسرائيلية دامغة بعدم صحة الرواية التوراتية

نقدم فى الصفحات التالية شهادة ووثيقة إسرائيلية دامغة تعترف بعدم صحة الرواية التوراتية حول نشأة وتكون بنى اسرائيل فى العصور القديمة، وكل ما هو متعلق بالإقامة فى مصر والتيه فى الصحراء وغزو أرض كنعان بالقوة المسلحة وقيام مملكة إسرائيلية موحدة فى فلسطين بين الحضارات الكبرى فى المنطقة..

إن هذه الشهادة تثبت كل زيف الادعاءات الصهيونية حول الحق الدينى والتاريخى فى فلسطين وحول مملكة داود والقدس وغيرها!!!

صاحب هذه الوثيقة هو عالم الآثار الاسرائيلى زئيف هرتسوج، وقد نشر قنبلته هذه فى صحيفة هاآرتس العبرية الاسرائيلية بتاريخ ١٩٩٩/١٠/٢٩ :

البروفيسور زئيف هرتسوج، هو مدرس فى قسم أثار وحضارة الشرق القديم فى جامعة تل أبيب، وكان قد شارك فى حفريات حصور ومجيدو مع ريجآل يادين وفى حفريات تل عارا. وتل بئر السبع مع يوحنان أهارونى، كما أجرى حفريات فى تل ميحال وتل جديسا، وأخيرا بدأ بالحفر فى تل يافا، وقد نشر هرتسوج كتباً عديدة حول آثار المدينة فى «أرض إسرائيل» وجاراتها وحول حفريات تل السبع وحفريات تل ميخال، ونشر كتابا إجماليا حول علم آثار المدينة.

صحيفة «هاأرتس» ٢٩ أكتوبر ١٩٩٩

الفترة التوراتية لم تحدث على الإطلاق ولاتوجد أدلة تؤكد صحة الروايات التوراتية

من المعتقد أن سكان العالم كله، وليس مواطنو اسرائيل وأبناء الشعب اليهودى وحدهم، سيذهلون لسماع الحقائق التى باتت معروفة لعلماء الآثار الذين يتولون الحفريات فى أرض اسرائيل منذ فترة من الزمن. ففى العشرين سنة الأخيرة حدث انقلاب حقيقى فى نظرة علماء الآثار الاسرائيليين إلى التوراة باعتبارها مصدرا تاريخيا. إن أغلبية المنشغلين فى النقاشات العلمية فى مجال توراة وآثار وتاريخ شعب إسرائيل الذين كانوا حتى الآن يبحثون فى الأرض عن البراهين والدلائل للحكايات الواردة فى العهد القديم، يتفقون الآن على أن مراحل تكون شعب اسرائيل كانت مغايرة تماما لما جاء وصفه فى التوراة.

إنه من الصعوبة بمكان قبول ذلك، ولكن من الواضح للعلماء والباحثين اليوم، إن شعب اسرائيل لم يقم فى مصر ولم يتيه فى الصحراء ولم يحتل البلاد من خلال حملة عسكرية ولم يستوطنها من خلال أسباطة الإثنا عشر، والأصعب من ذلك أيضا هو هضم الحقيقة التى تتضح رويدا رويدا، بأن مملكة داود وسليمان الموحدة التى وصفتها التوراة، على أنها دولة عظمى اقليمية، كانت فى أحسن الأحوال مملكة قبلية صغيرة، اضافة إلى ذلك من المتوقع عدم ارتياح ذلك الذى سيضطر الى العيش مع المعلومة القائلة أن يهوه إله اسرائيل كان متزوجا، وأن الدين الاسرائيلى القديم تبنى التوحيد فقط فى أواخر عهد المملكة وليس على جبل سيناء.

وكابن للشعب اليهودى وكتلميذ للمدرسة التوراتية أدرك عظم الاحباط الناجم عن الفجوة بين التوقعات للبرهنة على العهد القديم كمصدر تاريخى وبين

الحقائق التى تتكشف على الأرض، إننى أعيش هذا الوعى «على لحمى» وأفحص وإنتقد التحليلات والاستنتاجات السابقة قبل كل شيء، الى جانب انتقادى للتأويلات الحديثة لأعمال زملائى.

وأنا أنوى أن أعرض عليكم باختصار تاريخ علم الآثار القصير فى فلسطين وألقى الضوء على مراحل الأزمة والثورة التى حدثت فى العقد الأخير، وأخيرا سأحاول أن أستوضح سبب عدم وصول الحقائق الآخذة فى الاتضاح الى وعى وإدراك الجمهور العريض.

علم الآثار يتطور:

لقد تطور علم الآثار الاسرائيلى كعلم فى مرحلة متأخرة نسبياً فى أواخر القرن التاسع عشر، ومطلع القرن العشرين، وكانت الحضارات الامبريالية المصرية واليونانية وما بين النهرين والرومانية يبحثون عن دلائل من الماضى، فى أغلب الأحيان، بتكليف من المتاف الكبيرة فى لندن وباريس وبرلين، وقد قفزت هذه المرحلة فى الواقع عن فلسطين الصغيرة التى كانت متنوعة ومقطعة جغرافيا، ولم تكن فى البلاد ظروف لتطور مملكة واسعة كما لم يكن بالإمكان أصلا أن تنهض بها حركات استعراضية ناهضة مثل المقدسات المصرية أو قصور حضارة ما بين النهرين، وكانت الدفعة الأساسية للأبحاث الأثرية فى فلسطين دينية ومصدرها هو العلاقة بين البلاد والكتب المقدسة.

إن المدرسة النقدية لتاريخ التوراة التى ازدهرت فى المانيا بدءا من النصف الثانى للقرن التاسع عشر زعزعت تاريخ روايات التوراة وادعت أن التاريخ الجغرافى التوراتى صيغ «واختلف» بدرجة كبيرة فى عهد شتات بابل، والباحثون فى التوراة، وخصوصا الالمان، إدعوا أن تاريخ شعب اسرائيل كتسلسل أحداث بدءا من عهد ابراهيم وأسحق ويعقوب ومرورا بالنزوح الى مصر والاستعباد هناك ومن ثم الخرو -

من مصر وانتهاء باحتلال أرض كنعان وتوطن اسباط اسرائيل فيها، ليست إلا استرجاعا لاحقا للماضى لأغراض لاهوتية دينية.

وعلم الاثار وحده هو الذى استطاع أن يدحض هذه النظرية، وقد انطلق فى طريقه. وأول المنقبين عن الآثار فى أريحا ونابلس كانوا باحثين توراتيين بحثوا فى مطلع القرن عن بقايا المدن التوراتية، ومرت الأبحاث الأثرية بنهضة كبيرة مع وصول وليام فوكسويل أولبرايت أحد باحثى «أرض اسرائيل» والشرق القديم، وأولبرايت أمريكى، وهو ابن لاسقف صقلى بدأ بالعمل فى فلسطين فى مطلع العشرينيات وقررت منهجيته المعلنة أن علم الآثار هو الوسيلة العلمية الأساسية لتحويل الإدعاءات النقدية ضد تاريخ روايات التوراة وخصوصا مدرسة فلهاوزن.

وقد اعتقد أولبرايت أن التوراة هى وثيقة تاريخية مرت بالفعل بمراحل تحرير وتأليف، إلا أنها فى الأساس تعكس الواقع القديم، وكان على قناعة أنه إذا اكتشفت البقايا القديمة فى «أرض اسرائيل» فستتوفر الأدلة القاطعية لصدق تاريخ الأحداث التى تتعلق بشعب اسرائيل فى البلاد. وقد أدى علم الآثار التوراتى الذى تطور بتأثير أولبرايت وتلاميذه، إلى إجراء حفريات واسعة النطاق فى المواقع التوراتية الهامة: مجيدو، لخيش، جازر، نابلس، اريحا والقدس، هعى، جبعون، بيت شآن، بيت شيمس، حاصور، تعناخ وغيرها.

يادين يتجول فى أقطار التوراة:

فى الخمسينيات والستينيات والسبعينيات ازدهر علم الآثار كمدرسة توراتية بدون تردد وبدون تداول فى المسائل النظرية، وكانت الطريق معبدة وواضحة، وأسهم كل اكتشاف يتم التوصل إليه فى تركيب وبناء الصورة العامة، وربطت الكتب الأساسية فى علم الآثار، دائما بالتوراة أو بـ «الأرض المقدسة».

وقد كتب يجآل يادين «نظرية الحرب في بلاد التوراة» وكتب يوحنان اهاروني «أطلس كارتا لعهد التوراة» وغيرهما. وأدى علم اثار «أرض اسرائيل» الهدف المرجو منه: بناء صورة منسجمة للماضي تقوم على التوافق والانسجام بين المصادر الأدبية والمكتشفات الأثرية على الأرض، وتخصص الباحثون فى جوانب مختارة من المكتشفات مثل الأدوات الفخارية، الأسلحة، الوثائق المدونة، الفن المعمارى، التحف الفنية وغيرهاو وعرضوا تتاليا مذهلا فى مصداقيته وتفصيله وأدعى هؤلاء لفترات متقاربة أنهم يجيدون التمييز بين الأدوات الفخارية من القرن الحادى عشر مقابل تلك التى صنعت فى القرن العاشر قبل الميلاد أكثر بكثير مما يمكننا نحن أن نقارن بين القرن العاشر والقرن الحادى عشر الميلاديين.

وقد أفسح التناظر بين علم الآثار والتاريخ المصرى، مثل ذكر رحلة النزوح الى أرض كنعان فى التوراة والمكتشفات المصرية البارزة، الطريق أمام تدعيم التوثيق الاسرائيلى، وباختصار أخذت لوحة البازلت تستكمل وفقا لهذه التوجهات. وقد كشف علماء الآثار الذين تبنوا بحماس المهجية التوراتية «فترة التوراة» التى تلقت مغزى واسعا من الماضى لمجالاتها التاريخية. وفى كتب التوطئة وضعت الفصول التى تتعلق بالتاريخ الاسرائيلى فى العهود السابقة لعهد التوراة بمئات آلاف السنين.

وهكذا قمنا بدراسة، ووصفنا وعلمنا فترة الآباء والأجداد وتركيبة المدن الكنعانية الهائلة وهدمها على يد بنى اسرائيل إبان حملة احتلال الباد وحدود مستوطنات أسباط اسرائيل والمواقع الاستيطانية التى تميزت ب «البؤر الاستيطانية» و«أبواب سليمان» فى حصور ومجيدو وجازر و«اسطبلات سليمان»، وهناك أيضا من أوغلوا ووجدوا جبل سيناء فى جبل كركوم فى النقب أو مذبح يشوع فى جبل عيبال.

لوحة البازلت تصبح غامضة:

رويدا رويدا بدأت تتبلور الثقوب فى الصورة وبشكل متناقض نشأ وضع بدأت

فيه المكتشفات الكثيرة تزعزع المصداقية التاريخية للوصف التوراتي بدلا من تعزيزها.

وبدأت مرحلة الأزمة وهي مرحلة لاتنجح فيها النظريات في حل عدد كبير ومتزايد من الأمور المجهولة وتأخذ في إيراد تأويلات غير ملائمة تماما، وبذلك يلف الغموض لوحة البازلت التي تبنيها المكتشفات الأثرية ليتضح أنها غير قابلة للاستكمال.

وسأورد لاحقا عدة أمثلة عن انهيار اللوحة المنسجمة التي بنيت سابقا.

عهد الأجداد:

وجد الباحثون صعوبة في الإتفاق بينهم على الفترة الأثرية التي تتوافق مع عهد الأجداد، متى عاش ابراهيم وإسحق ويعقوب؟ متى تم شراء مغارة المكفيلا واستخدمت كقبر للأباء والأمهات؟ بناء على التسلسل التوراتي أقام سليمان الهيكل المقدس بعد ٤٨٠ سنة من الخروج من مصر (الملوك أو ١) ولكن يجب أن تضاف لذلك ٤٣٠ سنة أخرى من المكوث في مصر وكذلك فترة التواصل العمرية الطويلة للأجداد لتصل الى تاريخ القرن الحادى والعشرين قبل الميلاد الذى هو تاريخ هجرة ابراهيم الى أرض كنعان.

ولم تظهر في الحفريات الأثرية أية دلائل قادرة على تأكيد هذا التسلسل، وادعى أولبرايت في مطلع الستينيات أن هناك توازيا بين فترة ترحال ابراهيم وبين العهد البرونزى (القرن ٢.٢ ـ قب الميلاد)، ولكن بنيامين مازار رائد الفرع الاسرائيلي لعلم الآثار التوراتي اقترح تشخيص الخلفية التاريخية لعهد الأجداد بألف سنة بعد ذلك أي في القرن الحادى عشر قبل الميلاد، أي إبان فترة الاستيطان.

وقد نفى الآخرون تاريخ الروايات واعتبروها أسطورة حول الأجداد نسجت في عهد مملكة يهوذا، والمهم من كل هذا، أن الاجماع السابق بدأ يتزعزع.

الخروج من مصر، التيه في الصحراء وجبل سيناء:

لاتتطرق الوثائق المصرية المعروفة لنا، بالمرة إلى مكوث شعب اسرائيل فى مصر أو لخروجهم منها، وقد تطرقوا فى وثائق ومستندات كثيرة إلى عادات وتقاليد الرعاة ـ الرحل (الذين يسمون شاشو) فى الدخول إلى مصر إبان القحط والجوع والاستيطان فى أطراف الدلتا، ولكن لم يكن ذلك بالحدث الوحيد: فمثل هذه الأحداث ظهرت فى أحيان متقاربة خلال آلاف السنين، ولم تكن ظاهرة شاذة (البروفيسور ابراهام ملمات وهو من آخر المؤيدين لتاريخ الوصف التوراتى وسع صيغة التوراة «أرسل شعبى» إلى «أترك شعبى يذهب ويذهب ويذهب»).

وقد حاولت أجيال من الباحثين وصف موقع جبل سيناء ومحطات وقوف اسباط اسرائيل فى الصحراء، رغم الأبحاث التى تم تبنيها، إلا أنه لم يتم اكتشاف أثر واحد يمكنه أن يتلاءم مع الصورة التوراتية. وتحرك قوة التقاليد الي اليوم الباحثين «لاكتشاف» جبل سيناء فى شمالى الحجاز أو ـ كما ذكرت سابقا ـ فى جبل كركوم فى النقب، هذه الأحداث المركزية فى التاريخ الاسرائيلى لاتحظى بالدعم والتأكيد من الوثائق الخارجية للتوراة أو من خلال مكتشفات أثرية، وتجمع أغلبية المؤرخين اليوم على أن المكوث فى مصر والخروج منها كانا فى أقصى الأحوال مجرد تصرف لبعض العائلات وتم توسيع حكاية هذه العائلات وتأميمها «من أجل خدمة الأيديولوجيا اللاهوتية الدينية لتشمل الشعب كله».

احتلال البلاد:

تعتبر حكاية احتلال البلاد من ايدى الكنعانيين إحدى الدعائم الأساسية لشعب اسرائيل فى التاريخ الجغرافى التوراتى، وهنا ظهرت المصاعب الأخطر والأشد تحديدا فى محاولات اكتشاف دلائل أثرية للرواية التوراتية حول احتلال البلاد على يد بنى اسرائيل.

وقد خيبت الحفريات المتكررة التى اجرتها البعثات المختلفة فى أريحا وعَىْ المدينتين اللتين وصف احتلالهما بشكل مفصل جدا فى سفر يشوع، الآمال بشكل شديد، واتضح رغم جهود التنقيب، أنه فى أواخر القرن الثالث عشر وفى آخر العهد البرونزى المتأخر، وفى فترة متفق عليها كفترة الاحتلال، لم تكن فى هذين الموقعين أية مدن ولم تكن بالطبع اسوار يمكن اسقاطها.

وقد اقترح الباحثون التوراتيون منذ عشرين سنة اعتبار حكاية الاحتلال هذه أسطورة، حيث اتضح أن المواقع الاستيطانية قد دمرت أو هجرت فى فترات زمنية مختلفة وتعزز الاستنتاج بأنه لايوجد أساس يقوم على الحقائق لحكاية التوراة حول احتلال «أرض اسرائيل» على يد اسباط اسرائيل فى إطار حملة عسكرية بقيادة يشوع.

المدن الكنعانية:

ضخمت التوراة من قوة وحصانة المدن الكنعانية التى تم احتلالها ولكن الآثار كشفت النقاب عن مواقع غير محصنة حيث وجدت فى أحيان كثيرة مبانى قصر الحاكم فقط وليس مدنا حقيقية، وقد إنهارت الحضارة المدنية فى أرض كنعان فى العهد البرونزى المتأخر فى عملية استمرت مئات السنين، ولم يكن ذلك بفعل الاحتلال العسكرى.

وإضافة الى ذلك فإن الروايات التوراتية لاتعترف بالواقع الجيوسياسى فى أرض كنعان التى كانت خاضعة لحكم مصر حتى أواسط القرن ١٢ قبل الميلاد، وأشرف المصريون على حكمهم هذا للبلاد من خلال مراكز ادراية اقيمت فى غزة ويافا وبيسان، وظهرت المكتشفات المصرية أيضا فى مواقع كثيرة على جانبى النهر، ولم يذكر هذا التواجد المصرى البارز فى روايات التوراة، ومن الواضح أنها لم تكن معروفة لمؤلف الروايات التوراتية ومحرريها.

إذا من نكون نحن؟

إن المكتشف الأثرى يناقض بوضوح الصورة التوراتية: مدن كنعان لم تكن ضخمة ولم تكن محصنة ولم تكن رؤوسها فى السماء (كما ورد فى التوراة): بطولة المحتلين والاقلية فى مواجهة الأكثرية (اليهود ويشوع ضد الكنعانيين) وتخليص الإله الذى قاتل الى جانب شعبه، ما هى الا بدعة لاهوتية وليس لها أساس من الحقيقة.

أصل الاسرائيليين:

أثار دمج الاستنتاجات النابعة من التأويلات السابقة التى تتعلق بمراحل تبلور شعب اسرائيل، النقاش حول المسألة الأساسية وهى هوية شعب إسرائيل، إن لم يكن هناك دلائل حول الخروج من مصر وحول الرحلة فى الصحراء، وإن كانت حكاية احتلال المدن الكنعانية عسكريا مدحوضة من قبل علماء الآثار، فمن يكون بنو اسرائيل هؤلاء؟

إن الاكتشافات الأثرية أكدت حقيقة هامة وهى أنه فى مطلع العصر الحديد فى المرحلة التى اعتبرت بأنها «فترة الاستيطان» توطدت فى منطقة الجبل المركزى لأرض كنعان مئآت التجمعات الاستيطانية الصغيرة التى عاش فيها المزارعون والرعاة، فان لم يأت هؤلاء من مصر فمن أين جاءوا؟ يبدو لى أنه لا يوجد اليوم مؤيدين للنموذج التوراتى «للاحتلال العسكرى» (آخرهم كان يجآل يادين). ومازال بعض الباحثين يعتقد أن الاسرائيليين كانوا بدوا رحل جاءوا من عبر نهر الأردن وتوطنوا فى مستوطنات هادئة، فى مناطق جبل «أرض اسرائيل» (هذا النموذج الذى طوره الباحثون الألمان البرخت الت ومارتين نوت وتبناه بنيامين مازار ويوحنان اهارونى).

وقد طور الباحثون الأمريكيون: جورج مندسهول ونورمان جوتفيلد «تالنشرية الاجتماعية» القائلة، أن المستوطنين الجدد هم كنعانيون من سكان القرى فى منطقة الساحل الذين ملوا من حكم الطواغيت من ملوكهم، وتمرد الفلاحون وتركوا الممالیك فى المدن فى الأغوار واستوطنوا منطقة الجبل التى لم تكن مستوطنة قبل ذلك. واقترح اسرائيل فنكلشتاين النظر للمستوطنين على انهم الرعاة الطبيعيون الذين تجولوا فى منطقة الجبل فى كل العهد البرونزى المتأخر (تم اكتشاف مقابر لهم بدون تجمعات سكنية)، وبناء على هذا الوصف كان لهؤلاء الرعاة خلال العهد البرونزى المتأخر اقتصاد تبادلى للحم مقابل الأسماك مع سكان الأغوار، ومع انهيار النظام الحضرى والزراعى فى الأغوار اضطر الرحل للاصطياد بأنفسهم ومن هنا أصبح لديهم دافع للتوطن والاستقرار.

المملكة الموحدة ومكانة القدس:

تسببت الآثار فى حدوث إنعطافه أيضا فى النظر للواقع فى الفترة المسماة «عهد المملكة الموحدة» لدواد وسليمان، ووصفت هذه الفترة فى التوراة باعتبارها قمة الاستقلال السياسى والعسكرى والاقتصادى لبنى اسرائيل فى العهود السابقة. وبعد احتلال داود امتدت امبراطورية داود وسليمان لمساحات كبيرة، من نهر الفرات حتى غزة، ولكن الاكتشافات الأثرية فى مواقع كثيرة أظهرت أن حركات البناء التى تحدثت عنها التوراة فى هذه الفترة كانت شحيحة وقليلة، والمدن الثلاث حتصور ومجيدو وجازر المذكورة فى سياق الحركات العمرانية لسليمان حفرت بشكل واسع فى الطبقات الملائمة، وكانت حصور محصنة فقط فى النصف العلوى من المدينة، وكانت فى جازر على ما يبدو قلعة محاطة بجدار حديد.

القدس الصغيرة:

وتتعقد الصورة أكثر على ضوء الاكتشافات الأثرية فى القدس عاصمة

المملكة الموحدة، حيث حفرت أجزاء واسعة من المدينة خلال ١٥٠ سنة الأخيرة، وخلال ذلك اكتشف بقايا مثيرة من العهد البرونزى الأوسط والعهد الحديدى «ب» (أيام مملكة يهودا). ولم تكتشف من عهد المملكة الموحدة (حتى حسب التوثيق الذى يحظى بالاجماع) آثار لمبانى بناء ولم تكتشف فقط إلا مجموعة من الأوانى الفخارية.

وعلى ضوء هذه الاثار المحفوظة من العهود السابقة واللاحقة أصبح واضحا أن القدس فى عهد داود وسليمان كانت مدينة صغيرة، وربما كانت بها قلعة ملكية صغيرة، إلا أنها لم تكن بأى شكل عاصمة الامبراطورية الموصوفة فى أسفار التوراة، حيث عرف مؤلفو الوصف التوراتى القدس فى القرن الثامن قبل الميلاد بأسوارها وآثارها الغنية التى حفرت فى أجزاء المدينة المختلفة وعكست الصورة المتأخرة لعهد المملكة الموحدة. وقد حظيت القدس بمكانتها المركزية بعد دمار السامرة خصمها الشمالى فى عام ٧٢٢ قبل الميلاد.

وإذا إندمجت المكتشفات الأثرية بشكل جيد فى استنتاجات الباحثين التوراتيين الانتقاديين، فإن داود وسليمان كانا حكام ممالك قبلية تضم مناطق صغيرة: الأول فى الخليل والثانى فى القدس وفى المقابل بدأت تنتظم مملكة منفصلة فى جبل السامرة تجد تعبيرها فى الروايات حول مملكة شاؤول.

وكانتا مملكتى اسرائيل ويهودا من البداية مملكتين منفصلتين مستقلتين، وفى أحيان كثيرة كانتا متخاصميتن. ومن هنا كانت المملكة الوحدة الكبرى إختراعاً تاريخيا جغرافيا مبتدعا دمر فى أواخر عهد مملكة يهودا، وربما كان البرهان الحاسم على ذلك، هو حقيقة أننا لانعرف اسم هذه المملكة. وإلى جانبن الاختبارات التاريخية السياسية تثار أيضا شكوك حول مصداقية المعطيات حول العقيدة والعبادة، وما ذكرته سابقا حول يهوه الاله المتزوج (يهوه وزوجته أشيرة).

تهديد لحقنا:

استكمل علم آثار «أرض اسرائيل» فى آخر القرن العشرين عملية الانتقال للاستقلالية العلمية، وهو مستعد للاصطدام مع اكتشافات البحث التوراتى والتاريخ القديم كأساس متساوى القيمة، ولكن فى المقابل تحدث ظاهرة مثيرة هى تجاهل الأمر من قبل المجتمع الاسرائيلى، حيث أن الكثير من الأمور التى ذكرتها معروفة منذ عشرات السنين وتكثر الأدبيات من مناقشتها ويتبنى أغلبية الباحثين جوهرها، إن لم يكن كلها.

ورغم ذلك لم تتغلغل هذه الأمور الثورية الانقلابية فى الوعى الاسرائيلى، لأن التاريخ الجغرافى التوراتى هو أحد احجار الزاوية الأساسية فى بناء الهوية القومية للمجتمع الاسرائيلى اليهودى، وتبنى العلمانيون فى اسرائيل الذين رفضوا الأسس التوراتية لليهودية القائمة على التلمود، مضمنون العهد القديم.

والخلاصة هى، أن المجتمع الاسرائيلى ناضج جزئيا للاعتراف بالظلم الذى لحق بسكان البلاد العرب ومستعد لقبول المساواة فى حقوق النساء، إلا أنه ليس منيعا بشكل كاف لتبنى الحقائق الأثرية التى تدحض الأسطورة التوراتية.

مقدمة المترجم

أولاً: تحديد مفاهيم المصطلحات:

نظراً لأن الباحثين العرب فى حقل الدراسات اليهودية والاسرائيلية، وحتى من بين الاسرائيليين أنفسهم، يحدث لديهم خلط بين عدد من المصطلحات التى تستخدم فى مجال مثال هذه الدراسات مثل: عبرى ويهودى واسرائيلى، فقد إرتأيت أن هذا الأمر يستوجب الايضاح، وذلك تحديدا للأطر التى استخدمت بها هذه المصطلحات عبر الدراسة:

(أ) عبرى Hebrew

هى التسمية الأكثر شمولية للدلالة على أسباط بنى إسرائيل، وربما للدلالة على بعض الشعوب التي تقترب منهم من جهة النشأة واللغة. وتعتبر هذه التسمية هى أقدم التسميات التى عرف بها بنو إسرائيل فى التاريخ. وقد اختلف العلماء حول أصل هذه التسمية، فهناك؛ من يربط بين الاسم «عبرى» وبين واحد من الأجداد القدامى للساميين، وهو عابر بن شالح بن أرفكشاد بن سام وهناك من ينسبه إلى عبور نهر الفرات الذى عبره ابراهيم ومن معه، بعد أن هاجروا، من مدينة أور الكدانية، أو نهر الأردن الذى عبره هؤلاء إلى الضفة الشرقية منه.ويرى آخرون أن الكلمة مشتقة من الفعل الثلاثى «عبر» بمعنى قطع مرحلة من الطريق وتدل على التنقل الذى هو من أخص ما يوصف به سكان الصحراء وأهل البادية، فكلمة عبرى مثل كلمة بدوى. أى ساكن الصحراء والبادية.

وهناك رأى آخر ،يرى أن أصل الكلمة هو كلمة «خابيرو» Habiri وهى قبائل ظهرت فى فترة معاصرة لظهور العبريين وكانت تغزو فلسطين وتتوغل فيها من ناحية الصحراء فى بلاد خاضعة للنفوذ المصرى، وورد ذكرهم فى رسائل أمراء فلسطين الكنعانيين إلى عزيز مصر. ولم يرد ذكر هؤلاء الخابيرو بعد ذلك، بينما

ظهر الاسم «عبرى». ولكن أكثر العلماء يتحفظ فى تقرير أن «العبرى» والخابيرو من أصل واحد. إذ يشيرون إلى أن «عبرى» صفة تدل على النسب والانتماء بوجود ياء النسب فى آخرها بينما «الخابيرو» لاتعنى غير المزاملة والمرافقة وتدل على مجموعة من الناس تقوم بعمل واحد، أو تقيم فى اقليم واحد، دون أن تنتسب بالضرورة إلى أصل واحد.

ومن الآراء التى قيلت حول هذه القضية وتستحق التأييد لمنطقيتها، ذلك الرأى القائل بأن هذا الاصطلاح هو اصطلاح ذو مغزى طبقى، ويستند هذا الرأى إلى ما ورد فى سفر الخروج (٢١ : ٢) بشأن الاصطلاح الاجتماعى «عبد عبرى»، وبعض الاشارات الأخرى مثل «أبرام العبرى» (التكوين ٢٤ : ١٣) الذى كان غريبا فى أرض كنعان ولايتمتع بحقوق المواطنة الكاملة، وكذلك المكانة الاجتماعية المتدنية التى كانت لبنى اسرائيل فى مصر. ولهذا فإن بنى اسرائيل قد التصقت بهم صفة «العبرى» كجماعة من بين الجماعات التى كانت فى نظر الشعوب الحضارية بمثابة شعوب «عبرية»، أى أدنى منهم حضارياً.

ويجدر أن نشير إلى استخدام مصطلح «عبرى» للإشارة الى نوع معين من العبيد، وهو أحد أبناء الشعب الذى يباع للرق ويتم استئجاره لمدة ٦ سنوات، وذلك لتمييزه عن العبد الغريب أو الكنعانى: «إذاإشتريت عبدا عبرانيا» (خروج ٢١ : ٢). وفى نفس السياق نجد إلتقاء مثيرا للاهتمام بين صفتى الهوية: العبرى واليهودى، داخل فقرة واحدة: «أن يطلق كل واحد عبده وكل واحد أمته العبرانى والعبرانية حرين حتى لايستعبدهما أى أخويه اليهوديين أحد» (إرميا ٣ : ٩). ويمكن أن نستخلص مما تقدم، أنه فى عهد إرميا فى أخريات فترة الهيكل الأول، كان هناك تحديد تام للصفتين، ولم يعد لفظ عبرى مستخدما إلا كمصطلح يشار به إلى الرق والعبيد.

لقد كان يوسف «رجلا عبرياً» فى نظر زوجة بوطيفار (سفر التكوين ٣٩ : ١٧)، و«شاب عبرى» فى نظر رئيس الخبازين (سفر التكوين ٤١ : ١٢) ونطالع فى الاصحاح الأول من سفر الخروج أمر القابلتين العبرانيتين (خروج ١ : ١٥)، وموسى رأى رجلا مصريا يصرع «رجلا عبريا» (خروج ٢ : ١١). وحينما أتى موسى إلى فرعون تحدث معه باسم رب إسرائيل، فلم يعرف فرعون من هو إله إسرائيل وكان موسى فى حاجة لأن يوضح له أنه يقصد «رب العبريين». والنبى يونان يقول للفلاحين الأجانب فى السفينة «أنا عبرى»، ومعنى هذا أن التسمية «عبرى» كانت أقدم وكانت تشمل شعوبا أخرى تجمعها رابطة واحدة مثل: مديان وعمون ومواب وآدوم وغيرهم. ويمكن أن نجد قرينة على هذا فيما هو شائع فى أيامنا حيث يطلق على الشعوب التى تتحدث باللغة العربية وتنحدر من أصول عربية إسم «الشعوب العربية» ولكنهم بينهم وبين أنفسهم «مصريون» و«سوريون» و«عراقيون» .. الخ.

وفى بعض مراحل التاريخ اليهودى كانت كلمة «عبرى» تستعمل مرادفة تماماً لكلمة يهودى. واستخدم بنو اسرائيل فى التحدث والكتابة تلك اللغة التى استخدمتها سائر الشعوب «العبرية» فى أرض كنعان مثل : المؤابيين والعمونيين والأدوميين وغيرهم، وقد كان لهذه اللغة صفة جغرافية ولم تكن لها صفة قومية، وكانت فى نظرهم «لغة كنعان» أو «اللغة اليهودية» أى اللغة التى تحدثوا بها فى أرض كنعان أو فى مملكة يهودا (أشعيا ١٩ : ١٨، وأشعيا ٣٦: ١٣، والملوك الثانى ١٨ : ٢٦، ونحميا ١٣ : ٢٤). ولذلك فإن اسم اللغة العبرية لم يرد فى كتاب «العهد القديم» إشارة إلى اللغة التى تحدث بها بنو اسرائيل، وقد أطلقوا عليها بعد ذلك تسميات مثل «اللغة المقدسة» و«لغة التوراة» و«ولغة الحكماء» لأن اليهود لم يكونوا يتحدثون بلغة واحدة فى الفترة التى تلت سبى بابل فى القرن السادس ق.م. واقتصر استخدامها على الجوانب الدينية البحتة.

أما فى العصر الحديث فإن كلمة «عبرى» ترتبط على ألسنة المفكرين الصهانية بالتراث الثقافى «العبرى» ، فنجدهم يحرصون على عبارة «اللغة العبرية» و«الثقافة العبرية» و«الأدب العبرى» و«الجامعة العبرية» و«الصحافة العبرية» .. الخ. ومن هنا فإن هذا المصطلح أصبح بعد زوال هالة القداسة عن اللغة العبرية فى العصر الحديث مصطلحا قاصرا على المجالات اللغوية والثقافية ، ومعبرا عن الواقع اليهودى الجديد الآخذ فى التكوين على أرض فلسطين منذ عام ١٨٨١ ، فى انفصال تام عن الواقع اليهودى الشرق أوروبى ، أو على حد تعبير أحدهعام ، المفكر الصهيونى «آخر يهودى وأول عبرى» فى إشارة واضحة للخصوصية الثقافية التى تجسدها الصهيونية فى إطار الواقع الاستيطانى الصهيونى فى فلسطين.

(ب) إسرائيلى Israeli

تنسب هذه التسمية إلى سيدنا يعقوب ، حيث ترد فى التوراة قصة مفادها أنه خاض عراكا ضد رجل حتى مطلع الفجر عند جدول صغير فى منطقة الأردن يدعى «يبوق» ، ولما رأى الرجل أنه لايقدر عليه ، طلب منه أن يطلقه ، فقال له لا أطلقك حتى تباركنى ، فباركه وقال له «لن يدعى إسمك يعقوب من بعد ، بل إسرائيل ، لأنك صارعت الله والناس وغلبت» . ولفظة إسرائيل مكونة من كلمتين ساميتين قديمتين هما : «إسرَ بمعنى غلب ، و«إيل» بمعنى الإله أو الله . ونحن نطالع فى سفر الخروج ١ : ٩ : «شعب بنى اسرائيل» ، ««طائفة إسرائيل ، (الخروج ١٢ : ٣) ، ودار الحديث فى سفر اللاويين ١٦ : ١٧ عن «جماعة إسرائيل» ، كما يرد التعبير «شعب اسرائيل» فى صموئيل الثانى (١٨ : ٧) وكذلك فى سفر اللاويين (٢٤ : ١٠) ترد تعبيرات مثل : «إبن السيدة الاسرائيلية» و«رجل إسرائيلى» . وفور إنفصام عرى المملكة وإنقسامها إنكمشت المساحة الدلالية لمصطلح إسرائيل وغدت صفة قاصرة على المملكة الشمالية أو مملكة إفرايم التى إعتبرها التراث

اليهودى المملكة المارقة، للتمييز بينها وبين مملكة يهودا التى تمتعت هى وآل داود بهالة القداسة والشرعية.

وفى أدبيات التلمود، أصبح المصطلح «إسرائيل» يطلق على العامة من الشعب على وجه الخصوص: «إسرائيل واحد يخطىء فيعاقب الجميع» (مخيلتا، فصل يثرون..). وهكذا يتضح أن الاسم «إسرائيل» هو اسم لعموم اليهود، وكان التعبير يستعمل للتفرقة بين اليهودى العادى وبين الكهنة واللاويين. وقد أصبحت هذه التسمية مصدر فخر من الناحية القومية لبنى إسرائيل وأصبحوا ينسبون أنفسهم لها فيقولون: «بيت إسرائيل» أو «آل إسرائيل» أو «بنى إسرائيل». وكثيرا ما يختصرون التعبير فيقولون «إسرائيل» فقط، كما رأينا فى مأثور التلمود. والاسم العبرى لفلسطين هو «إيرتس يسرائيل» أى «أرض إسرائيل».

وبالرغم من أن تيودور هرتسل زعيم الصهيونية السياسية، ورئيس المؤتمر الصهيونى العالمى الأول الذى انعقد فى مدينة بال بسويسرا عام ١٨٩٧. لم يتردد فى تسمية كتابه المتضمن لدعوته هذه «دولة اليهود»، فإن هذه الدعوة الصهيونية آثرت عند الكتابة عن فلسطين أن تسميها «أرض إسرائيل» لا «أرض اليهود»، حرصا على تأكيد انتماء هذه الأرض الى من يزعمون أنهم أسلافهم الأول، وهم أبناء يعقوب، أو بنو إسرائيل.

وعندما أعلنت الصهيونية عن قيام دولتها فى فلسطين فى ١٥ مايو ١٩٤٨، أطلقت عليها اسم «اسرائيل»، وطبع هذا الاسم فى الاعداد الأولى من «الجريدة الرسمية» فى رأس صحيفة تدعى «اسرائيل». ولكن بعد أن قامت موجة من النقد تجاه هذه التسمية غيرت الحكومة الإسرائيلية الاسم بعد ذلك الى «دولة إسرائيل»، وإن كان الشائع هو إستخدام الاسم المختصر فى كافة أجهزة الاعلام الاسرائيلية.

وقد فضل الصهاينة استخدام هذا الإسم «دولة إسرائيلية» لدولتهم بدلا من الإسم الذى كان قد اختاره هرتسل وهو «دولة اليهود» لأسباب نذكرمنها:

١ ـ إيجاد تناسبق بين إسم الدولة والإسم العبرى لفلسطين وهو «أرض اسرائيل».

٢ ـ إيثار الصفة العنصرية الكامنة فى إسم اسرائيل على الصفة الدينية فى لفظة اليهود.

٣ ـ عدم الرغبة فى التذكير بالحدود القديمة لمملكة يهودا البائدة، التى لم تكن تشمل إلا القسم الجنوبى من فلسطين بدون ساحل البحر، مما يمثل قيداً تاريخيا للمطامع التوسعية الاستعمارية للصهاينة الذين يريدون أن يضعوا تحت قبضتهم أوسع رقع ممكنة من الوطن العربى.

وقد خلقت هذه التسمية عدة مشاكل أمام المشرعين الصهاينة، حيث أنتقلت صفة الإسرائيلى من الشعب وهى (وهى صفة مذكرة فى العبرية) إلى الدولة (وهى صفة مؤنثة فى العبرية)، وهو الانتقال الذى أدى إلى انطباق هذه الصفة على كل من يقيم داخل إسرائيل من العرب المسلمين والمسيحيين، وأرغم السلطات الصهيونية على إعتبار هؤلاء العرب، المقيمين فيها فى عداد المواطنين الذين يتمتعون بالجنسبة الاسرائيلية، بالرغم من رغبتها فى التخلص منهم بالطرد والتشريد. وهذا الأمر، يرى يتسحاك أفنيرى أنه «يتناقض مع تقاليد إسرائيل ويزعج الأذن العبرية».

وقد أصبح اليهودى المقيم خارج إسرائيل، وفقاً لقانون العودة، الصادر فى ٥ يولى، ١٩٥٠، هو الآخر «إسرائيلياً».

والخلاصة هى، أن «الاسرائيلى»، وفق هذا المفهوم، هو أولاً وأخيراً، اليهودى المقيم فى اسرائيل، واليهودى المقيم خارج اسرائيل أيضا، بشرط أن يكون صهونيا

متمسكا بالولاء لإسرائيل. ومن هنا اكتسبت لفظة «اسرائيلى» فى المصطلح السياسى المعاصر دلالة مختلفة تماما عن الإسرائيلى قبل الصهونية، والإسرائيلى فى بداوة العبريين الأولى.

وهنا تجدر الإشارة إلى عدم الخلط فى إطار تحديد مفاهيم هذه الاصطلاحات بين اصطلاحات مثل «دولة إسرائيل» و«أرض إسرائيل». إن «دولة إسرائيل» هى إصطلاح سياسى محدد، بينما «أرض إسرائيل» هى إصطلاح جغرافى. فدولة إسرائيل يمكن أن تمتد على كل «أرض إسرائيل» أو على جزء منها، أو حتى على أجزاء ليست تابعة «لأرض إسرائيل» (مثل شرم الشيخ والجولان على سبيل المثال). ودولة إسرائيل هى الإطار الحاسم بالنسبة للمبدأ الصهيونى.

(جـ) يهودى Jew

نسبة إلى يهودا أحد أبناد يعقوب الاثنى عشر، أو إلى المنطقة التى أقام فيها سبط يهودا فى منطقة النقب الصحراوية الفقيرة فى جنوب فلسطين، حيث ظهرت أسماءجغرافية تنسب إليهم مثل: «جبل يهودا» (القضاة: ١ : ٣) و«أرض يهودا» أو «بلاد يهودا» (عاموس ٧:١٢)، «ورقعة يهودا أو إقليم يهودا» (إشعيا ٢٥ : ٢٨)، و«مدن يهودا» (إرميا ٤ : ١٨)، أو نسبة إلى مملكة يهودا فى جنوب فلسطين.

وأول شخص فى العهد القديم (المقرا) حمل اسم «يهودى» كان «يهودى بن نتنياهو عبد الملك يهوياقيم» (إرميا ٣٥ : ١٤)، ومن الواضح أنه اسم علم. وورد اسم «يهودى» مرة أخرى على أنه إسم ذات مطلق، ولكن حدث ذلك فى فترة متأخرة، وتمثل ذلك فى كنية مردخاى (سفر إستير ٢ : ٥) وربما كان صفة نسبية. وكانت زوجة عيسو تسمى «يهوديت» (تكوين ٢٥ : ٣٤). ولكن لفظ «يهود» كصفة تدل على كيان إثنى معين لم تظهر سوى فى سفر إرميا: «وسألتهم عن اليهود البقية الباقية من السبى وعن أورشليم» (إرميا ٣٢ : ١٢).

وقد كثر إستعمال لفظة «اليهود» بمعنى رعايا مملكة يهودا. وبعد عودة اليهود من السبى البابلى تحت حماية قورش امبراطور الفرس فى القرن الخامس ق.م. كانوا يسمون «اليهود»، كما كانت اللغة العبرية تسمى «اليهودية» (الملوك الثانى ١٨ : ٢٦)، وكان ذلك بسبب فقدان الأسباط العشرة التى كان تشكل مملكة اسرائيل الشمالية التى كانت عاصمتها السامرة.

وقد أصبحت كلمة «يهودى» منذ ذلك التاريخ تستخدم للإشارة لكل من يؤمن بدين موسى (اليهودية) بغض النظر عن الانتماء الجغرافى لمعتنق هذه الديانة، مما جعل هذا المصطلح مفرغا من عنصر الزمان والتاريخ.

ثانياً: التفسير الصهيونى للرواية التوراتية:

عندما قامت الحركة الصهيونية فى نهاية القرن التاسع عشر فى أوروبا الشرقية معلنة بذلك، بفعل أحداث ١٨٨١ فى روسيا، فشل حركة التنوير اليهودية (الهسكالاه) التى كانت تدعو لاندماج اليهود فى مجتمعاتهم التى يعيشون فيها، ثم إنعقاد المؤتمر الصهيونى الأول فى مدينة بازل السويسرية عام ١٨٩٧ بزعامة زئيف تيودور هرتسل، وبدء دعوة اليهود فى كل أرجاء العالم الأوروبى مشرقه وغربه للهجرة إلى فلسطين (أرض الميعاد) لإقامة دولة يهودية فيها، لم يكن أحد فى العالم العربى المحيط بفلسطين يستشعر خطورة ماوراء تلك الحركة وذلك السعى وهذا الهدف الصيونى. وحتى ذلك الحين وإلى مابعد إقامة دولة إسرائيل كان الباحثون العرب يعرضون تاريخ فلسطين القديم فى إطار من الإلتزام بماهو وارد فى أسفار العهد القديم وفقا للترتيب التاريخى الذى دون فى هذه الأسفار، على إعتبار أن الالتزام بهذا هو جزء من الإيمان بكامل ماورد فى هذا الكتاب المقدس الذى لايجوز إعمال التمحيص أو التأمل أو المراجعة، لما ورد فيه. ولم تكن أصداء الدراسات النقدية للعهد القديم والتى بدأت فى أوروبا مبكرا فى القرن التاسع عشر

قد وصلت بعد إلى الشرق العربى، ومن إستطاع أن يطلع عليها، أو يدرسها خلال بعثاته العلمية، آثر الصمت وعدم الإشارة إليها خشية أن يتعرض لما لا طاقة له به. من تحمله من هجوم وعقاب، ترتيبا على إتهامه بالكفر والإلحاد والهرطقة والتشكيك فى محتوى الأسفار المقدسة.

ومن هنا، وبالرغم من أن الصراع العربى الإسرائيلى أخذ فى الستينيات أبعادا مختلفة من الصراع العسكرى، فإن تناول تاريخ العبرانيين وبنى اسرائيل ظل كما هو «تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم» مع تركيز مبالغ فيه على «بروتوكولات حكماء صهيون».

واعتباراً من السبعينيات، بدأ يتزايد الاهتمام لدى عدد من الباحثين العرب بالتاريخ القديم للمنطقة العربية (سوريا والعراق وفلسطين) فى محاولة لتأصيل الوجود العربى فى هذه البلاد تاريخيا وثقافيا ولغويا، باعتبار أن هذا التأصيل ينطوى بقدر ما، على تفنيد لمقولات الصهيونية بخصوص الحقوق الدينية والتاريخية لليهود فى أرض فلسطين. ورويد رويدا بدأ باحثون آخرون فى الاهتمام بتناول التاريخ القديم لبنى اسرائيل، بطريقة إختيارية ركزوا خلالها على دراسات لبعض قضايا هذا التاريخ من خلال شخصيات بعينها مثل النبى ابراهيم، أو النبى موسى، وقضية من هو فرعون الخروج، ومن هم الهكسوس، هل هم بنى اسرائيل أم أنهم أقوام آخرون احتلوا مصر ثم تم طردهم منها، مع محاولات للربط بين طرد الهكسوس وخروج بنى اسرائيل من مصر. وبطبيعة الحال، فإن هذا التجزىء لمراحل التاريخ الاسرائيلى كما ورد فى أسفار العهد القديم، وبهذا المنهج الاختيارى الدقيق، ربما كان مرده أن هذه الشخصيات الدينية والأحداث المرتبطة بهم قد وردت فى القرآن الكريم وتحدث عنها فى محكم آياته بإسهاب وتفصيل، مما يجعل أية محاولة لطرح أية

أسئلة حول المصداقية التاريخية لهذه الشخصيات ولهذه الأحداث، على غرار ما فعل علماء مدرسة نقد العهد القديم، قد يفسر على أنه كفر وإلحاد بستأهل الإدانة وإهدار الدم.

وفى هذا الإطار، بالنسبة لتوظيف التوراه ورواياتها فى خدمة الصهيونية، نجد أن إقحام السياسة فى ميدان كتابة تاريخ اسرائيل القديم لم يثر جدلاً واسعاً، لأن معظم دارسى التوراه كانوامتفقين على المبادىء الأساسية لمشروعهم، وكانت ثقتهم بالمصادر التوراتية وإيمانهم بها، وبصحتها التاريخية ثقة كبيرة، وكذلك الأمر بالنسبة لموضوعية الباحث التوراتى الحديث الذى كان بدوره موضع ثقة كبيرة. وعلى الرغم من بعض التحولات المهمة خلال العقد الأخير من القرن العشرين، فيما يتعلق بالمشاكل التى تعترض إعادة بناء تاريخ اسرائيل القديم، فإن الرؤيا التى لاتزال مهيمنة هى أن التراث التوراتى يوفر القاعدة والمصدر الاساسى للمؤرخ فى شؤون إسرائيل القديمة. ومهما تكن البصيرة التى يتمتع بها أولئك الذين يدرسون التركيب المراوغ للسرد التوراتى، فإن قول فون راد Von Rad إن «العهد القديم هو كتاب تاريخ» ظل مسيطراً على الباحثين فى تاريخ اسرائيل، أو الذين يدرسون المواد المختلفة فى كليات اللاهوت وفى أقسام الدراسات الدينية، وقدا اقترن ذلك بنموذج للبحث العلمى زاد من قوة الاعتقاد بأنهم ناقلى تراث يمكن الوثوق بهم وأنهم ورثة للموضوعية العلمية.

وهكذا، فإن الصهيونية لم تتوقف عن الاغتراف من الأحداث التاريخية الواردة فى أسفار العهد القديم بما تعزز به مطالبها وأهدافها فى الاستيطان فى أرض فلسطين وإقامة دولة يهودية فيها، مرددة مقولات مثل: «الحق الدينى والتاريخى لليهود فى فلسطين» و«الاستمرارية التاريخية». وقد كان هذا التوجه الذى خاطبت به الصهيونية العقلية الغربية المسيحية، يسعى إلى أن يثبت فى الوجدان الغربى أن تاريخ المنطقة لايمكن فهمه إلامن خلال «التاريخ التوراتى»، وأن هذه الادعاءات

الدينية تحدد هذا التاريخ وتسيطر عليه، بحيث لايصبح تاريخ هذه البلاد هو تاريخ وجغرافية فلسطين، بل تاريخ وجغرافية «اسرائيل التوراتية»، ويصبح اسم «فلسطين»، على هذا النحو، لايزيد عن كونه تعبيرا مختصرا عن «أرض التوراه»، وتصبح الاعتبارات الدينية والتعريفات التوراتية هي مفتاح فهم تاريخ المنطقة وتصبح أسماء المناطق فيها نابعة من الأسماء التوراتية مثل «يهودا والسامرة» بدلا من الضفة الغربية» وتصبح سائر المناطق هي مناطق زبولون وإفرايم وبنيامن ومنسى.. الخ.

وفي سياق هذا الاختزال الذي يجعل من تاريخ فلسطين تاريخا لبني اسرائيل ولليهود دون سواهم من الشعوب التي قطنتها وعاشت فيها وأسست دولا وممالك، تصبح الأوضاع التي أدت إلى إنشاء دولة إسرائيل في القرن العشرين شبيهه بالأوضاع في العصور القديمة. فإذا كانت الصهيونية قد رفعت شعار «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض»، فإن الدراسات التوراتية، التي عكست المفاهيم الصهيونية الخاصة بفلسطين، قد صورت فلسطين دون سكان، أو على أكثر تقدير، كسكان مؤقتين سريعي الزوال ينتظرون قدوم ذلك الشعب الذي لايملك الأرض. وهنا نجد أن جذور الدولة الحديثة قد سيطرت على الدراسات العلمية في مجال الدراسات التوراتية، بما في ذلك تطويع المكتشفات الأثرية، لدرجة أن هذا الإسقاط على الماضي للدولة اليهودية في العصور القديمة، قد أدى الى استمرارية حتمية ساعدت على تبرير وإضفاء شرعية على كلتا الدولتين القوميتين قديماوحديثا.

وهكذا، فإن الافتراض الصهيوني السائد بوجود صلة مباشرة بين إسرائيل القديمة والدولة الاسرائيلية الحديثة، والذي يتلخص في الاعتقاد بعودة «الشعب اليهودي» إلى «وطنه» في «أرض إسرائيل القديمة»، هو الذي يحدد مسبقا نتيجة البحث التوراتي بحثا عن جذور «إسرائيل القديمة» لإضفاء الشرعية على الدولة الحديثة، إسكاتا للبحث عن تاريخ أعم للمنطقة.

وتتجسد مثل هذه المزاعم فى الاشارات المتكررة إلى «أرض إسرائيل التاريخية» فى أيامنا هذه. كما أن إعلان الاستقلال الاسرائيلى فى عام ١٩٤٨ يشير إلى «إعادة إنشاد الدولة اليهودية «أى أنها إعادة Re-establishment لما كان موجودا فى الماضى.

وهذه الاستمرارية فى الخطاب الصهيونى بين الماضى والحاضر، تعنى بالإضافة إلى هذا، أن هذه الأرض الصعبة يمكن جعلها خصبة بالجهود غير الاعتيادية لإسرائيل فقط، إذ لايمتلك أحد غيرها هذه القدرة، وهكذا أصبح هذا الخطاب الصهيونى فى تبريره للهجرة اليهودية إلى فلسطين جزءا من تصوير الصهيونيين لهذه الأرض على أنها «فارغة» بما يتشابه مع ماهو وارد فى العلوم التوراتية فى تكوينها للماضى الذى تجاهل وجود شعوب محلية فى مراحل عديدة من التاريخ فى هذه البلاد.

ولتأكيد هذه المقولات وظفت الدراسات التوراتية التى عملت فى إطار المنظومة الصهيونية عددا هائلا من التعبيرات للدلالة على فلسطين مثل: «الأرض المقدسة» ، «أرض التوراة» «إيرتس يسرائيل» (أرض إسرائيل) ، «إسرائيل» ، «يهودا» ، «كنعان» ، «شرق الأردن» ، «فلسطين السورية» ، «فلسطين» ، «الشرق» . وبالرغم من أن كل هذه التعبيرات تبدو مترادفة بالنسبة للقارىء، بل وحتى حيادية، إلا أن الفكر الصهيونى جردها جميعا من مدلولاتها واختزلها فى تسمية واحدة هى «ها أرتس» (البلاد) أو «الأرض» فى إشارة إلى المسمى ذو المضمون الدينى «إيرتس يسراذيل» بحيث تتضمن هذه التسمية كل معانى السيطرة على هذه «الأرض» .

وبالرغم من أن الاسم «فلسطين» يستخدم فى البحث العلمى الغربى فى مجال الدراسات التوراتية، إلا أنه جرد من أى معنى حقيقى فى خضم البحث عن تاريخ إسرائيل القديم، حيث يتم تقسيم تاريخ المنطقة وفقا لخانات التسلسل

التاريخى فى العهد القديم، فهناك مرحلة «الآباء»، ثم «الخروج»، ثم «الغزو والاسيتطان» ثم يتبعه ها مرحلة «مملكتى داود وسليمان الموحدتين»، و«مملكتى إسرائيل» ويهودا المنقسمتين، ثم «السبى البابلى» ثم «الاصلاح الدينى» فى عصر عزرا، وبذلك يصبح تاريخ المنطقة هو تاريخ الشخصيات والأحداث الأساسية فى التراث التوراتى، وبذلك أصبح طغيان الزمان التوراتى يسكت بفعالية التاريخ الفلسطينى.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن مؤرخى التوراة سعوا لأن يجعلوا هذا التقسيم الزمنى المستوحى من التوراة العبرية مساويا لذلك الذى جاءت به تلك الابحاث الأثرية، بحيث تبدأ التعميمات الزمنية بالعصر الحجرى القديم والعصر الحجرى شبه القديم والعصر الحجرى الجديد والعصر النحاسى، ثم العصر البرونزى الأول الذى يجعلونه موازيا للفترة الكنعانية الأولى ثم العصر البرونزى الوسيط الذى يوازى العصر الكنعانى الوسيط، ثم العصر البرونزى المتأخر، وهو العصر الكنعانى المتأخر، وهو العصر الكنعانى المتأخر، وهكذا يصبح العصر البرونزى هو عصر الأباء، بينما يتزامن العصر الحديدى مع نشوء وتطور الملكية أما فترة السبى البابلى والهيكل الثانى فتتزامن مع الفترة الفارسية، والهلنستية والرومانية، وهكذا تصبح العصور الأركيولوجية متزامنة مع التقسيم التوراتى للتاريخ.

وحينما يتناول هؤلاء المؤرخون فترة العصر البرونزى المتوسط والمتأخر، فإنهم لايضفون على الكنعانيين سكان فلسطين أى وعى قومى، ويصفون ديانتهم على أنها مجرد عبادة خصوبة هابطة تفتقر إلى الدافع الاخلاقى المهيمن لدين يهوه، وعلى هذا فهى ديانة لاأخلاقية، مما يشير إلى مفارقة متعمدة، لأن الثقافة الكنعانية، باعتراف العديد من علماء الآثار، كانت أرقى بكثير من الديانة اليهودية، ولكن الهدف من هذا الانتقاص لدى مؤرخى التوراة يهدف عمدا الى تصوير إسرائيل (كدولة قومية) على أنها كانت ذروة التطور السياسى على النقيض من تجمعات دول ـ المدينة التى كانت سائدة فى المنطقة آنذاك.

وبالرغم من إعتراف عدد من مؤرخى التوراة، بأن هذ المنطقة لم تكن ملكا وحيدا لبنى اسرائيل، وأنها كانت مأهولة بمجموعة مختلفة من سكان فلسطين القديمة، فإن هؤلاء السكان لايتم تعريفهم كفلسطينيين، وينظر إليهم، فى الغالب، على أنهم مجهولون، وتصبح لهم هوية فقط عندما يكونون إسرائيليين أو يهودا، بالرغم من إشارة بعض هؤلاء المؤرخين إلى «الساحل الفلسطينى» و«الزراعة الفلسطينية» و«الاقتصاد الفلسطينى»، ولكن لايوصف السكان أنفسهم أبدا على أنهم «فلسطينيون».

ويعتبر هؤلاء المؤرخون التوارتيون أن فترة الانتقال بين العصر البرونزى المتأخر وبداية العصر الحديدى هى فترة إستثناء من تعرض فلسطين للسيطرة الخارجية التى كانت سمة مميزة لتاريخ فلسطين، ويعتبرون أن هذه الفترة شهدت إنهيار الامبراطوريات المسينية Amycenaea والمصرية القديمة والحيثية، كما شهدت ما يعرف «بنشوء الكيان المستقل «إسرائيل» فى التاريخ الفلسطينى، وأن تلك الكينونة أصبحت تسيطر، حسب الرواية التوراتية، على تاريخ المنطقة، بدلا من القوى الامبريالية العظمى، أى مصر وأشور وبابل وفارس واليونان وروما!!!

إن مؤرخا توراتيا، مثل برايت يستنتج أن فتوحات داود حولت «أسرائيل بشكل مفاجىء تماما إلى أكبر قوة فى فلسطين وسوريا، بل فى الواقع، ربما كانت اسرائيل فى تلك اللحظة لاتقل جبروتا عن أى قوة عظمى فى عالمها. ويتكلم برايت عن «امبراطورية»، امتدت حدودها من خليج العقبة الى البحر المتوسط ومن وادى العريش فى الجنوب الى لبنان وقاديش Kadesh حول نهر العاصى فى الشمال. وبالنتيجة، وبناء على رواية برايت، فإن داود ورث الامبراطورية الآسيوية للمملكة الجديدة فى مصر. ويرى برايت أن حدود تلك «الامبراطورية الداودية»، التى تمكن سليمان من المحافظة عليها، تدل على أن تاريخ الدولة

الاسرائيلية هو تاريخ فلسطين. وهذا التصور الذى جاء به برايت، هو رؤية لإسرائيل الكبرى مستوحاة من التوراة، وهى تتفق مع تطلعات العديد من زعماء دولة اسرائيل الحديثة وتدعم هذه التطلعات. وقد عبر بن جوريون عن رأيه عندما قال «إن حدود اسرائيل يجب أن تتضمن جنوب لبنان وجنوب سوريا. والأردن وشرقى الأردن بأكمله، بالإضافة إلى سيناء. إن قبول التقسيم لايلزمنا بأن نتنازل عن شرقى الأردن ولايستطيع أحد إن يطلب من الأخرين أن يتخلوا عن أحلامهم، وسوف نقبل بحدود الدولة كما ستحدد الآن، ولكن حدود الامال الصهيونية هى شأن الشعب اليهودى وحده ولن يستطيع أى عامل خارجى الحد منها».

وبعد حرب ١٩٥٦ والاستيلاء على سيناء أشار بن جوريون إلى إنشاء «مملكة اسرائيل الثالثة»، ومن هنا فإن أى إعادة بناء للماضى الاسرائيلى على أسس توراتية، وبخاصة تلك المتأثرة بفترة المملكة وحدودها، يجب أن تقرأ فى ضوء السياق الحديث، لأنها بقدر ما تأثرت بالادعاءات والأمال المعاصرة، فإنها تؤثر فيها، وتأثير الصراعات التوراتية فى عالم السياسة، سواء اعترف الباحثون التوارتيون بذلك أو لم يعترفوا، ويظهر ذلك جليا فى تصريح مناحم بيجن بعيد إعلان الدولة ١٩٤٨ الذى قال فيه:

«إن تجزئة الوطن شىء غير شرعى لن نعترف به أبداً. وتوقيع المؤسسات والأفراد على اتفاق التقسيم باطل ولن يقيد الشعب اليهودى. إن القدس كانت وستظل عاصمتنا الى الأبد. و«أرض اسرائيل» سوف تعود الى «شعب إسرائيل»، برمتها وإلى الأبد».

والفكرة الأخرى التى كان لها تأثير مماثل، هى الرأى القائل إن الدولة الاسرائيلية قد أسست لأغراض دفاعية فقط، أى إنها كانت محاولة للوقوف فى

وجه التهديد العسكرى البسلتى (الفلسطينى)، وأنها كانت مملكة هدفها الوحيد هو صد هجوم البلستيين. وكانت فكرة الهيمنة على االمناطق غير الاسرائيلية مستبعدة تماما. إن وهم الطبيعة الدفاعية لاسرائيل هى فكرة متغلغلة فى خطاب الدراسات التوراتية برمته فيما يتعلق بطبيعة الدولة الاسرائيلية، وهذه الدولة تحاكى الإدعاءات الصهيونية والتبريرات الإعتذارية اللاحقة بعيد إنشاء دولة اسرائيل الجديثة، حيث كثيراً ما توصف دولة اسرائيل الحديثة بأنها دولة دفاعية بطبيعتها: وتلك النظرة يعبر عنها اعلان الاستقلال. الذى جاء فيه: «لقد سعوا للسلام ولكنهم فى الوقت نفسه استعدوا للدفاع عن أنفسهم».

ولدى تعرض هؤلاء المؤرخين التوراتيين للمقارنة بين أسباط بنى اسرائيل، وبين البلستيين يعترفون بأن البلستيين (الفلسطينيين) توافرت لهم فرصة إنشاء امبراطورية من الطراز الأول، وهو عكس ما حدث فى حالة هجرة الأسباط الاسرائيلية البدوية التى كانت بطيئة وسلمية فى أغلب الأحيان، وتسللها إلى منطقة التلال فى فلسطين، حيث كانت تفصل بينها مجموعات من القبائل غير الاسرائيلية وكانت تفتقر الى التفوق العسكرى للجماعات الإيجية (البلستية)، ومع هذا كله، فإن اسرائيل، وليس البلستيين، هى التى كان بمقدورها أن تنشىء امبراطورية.

ولايمكننا ببساطة قبول الافتراض القائل أن نشوء دولة اسرائيلية، وبالأخص مملكة داود، هو الذ يؤدى إلى التاريخ الحق، وأن هذه كانت هى المرحلة الحاسمة فى التاريخ الاسرائيلى وبالتالى فى تاريخ المنطقة بشكل عام. فتأكيد برايت القائل أن إسرائيل فى فترة المملكة أصبحت إحدى القوى العظمى فى عالمها المعاصر، وأن هى «واحدة من أهم الفترات فى تاريخ اسرائيل برمته»، هو مثال على تصور للماضى، يعبر عن النظرة الشائعة فى الدراسات التوراتية. وإذا تتبعنا أثر خطاب

الدراسات التوراتية فيما يتعلق باختلاق دولة اسرائيلية أو «امبراطورية» قديمة، في سياق النشاط الصهيوني الذى استهدف إقامة دولة اسرائيل الحديثة سوف نلاحظ أن فلسطين تختزل، لمصلحة «أرض الميعاد» هذه المرة، للدلالة على وطن اسرائيل: إنها ليست وطن الفلسطينيين أو الشعوب الأصلية، وهكذا يكون اختيار تعبير «الوطن» ذو مغزى مضاعف في ضوء استعمال هذا التعبير في وعد بلفور. وهذا ادعاء في غاية الأهمية من الناحية السياسية إذا ما أخذنا في الاعتبار الصراع الحالى حول فلسطين.

إن هؤلاء المؤرخين التوارتيين يدركون أن فلسطين لم تكن أبدا بلدا يشجع قيام كيانات سياسية كبيرة تاريخية، لأن المراكز السياسية والحضارية كانت في الأناضول وفى بلاد ما بين النهرين في الشمال. وفى مصر الفرعونية في الجنوب، وكانت فلسطين هى حلقة الوصل بينها من الناحية الجغرافية، مما جعلها على الدوام بؤرة صراع بين هذه القوى الكبرى في المنطقة، ولكنهم مع هذا يجعلون مملكة داودوإنجازاته، حالة ممكنة بسبب الفراغ الذى حدث في ميزان القوى في المنطقة في تلك الفترة. وبالرغم من أنهم يعترفون بأن ثلاث قوى محلية قامت بمحاولات لاقامة ممالك مستقلة في فلسطين هم: ملك أرام صوبة وناحاش الآرامى وشاؤول الاسرائيلى، إلا أنهم يجعلون شاؤول وحده هو الذى نجح في فترة قصيرة في إقامة مملكة، بالرغم من فشله في مواجهة التهديد البلستى.

٣ ـ ظهور المدرسة النقدية للعهد القديم وأثرها على كتابة تاريخ اسرائيل القديم:

دفعت الأهمية البالغة لكتاب العهد القديم كثيرين لتأمل المادة التاريخية الواردة فيه، وبدأوا في تفكيكه إلى عناصر، لأن البنى التاريخية عادة تقوم على الأبحاث، وليس على الرؤى النظرية، ويجب أن تستند إلى البنيات الثابتة كى تصبح مقبولة تاريخيا، لأن التاريخ يتعلق بالطبيعة وليس بما وراء الطبيعة. فإذا كان إضفاء

التاريخانية على مجمل الروايات التوراتية أو على جزء منها، ممكنا، فإن عددا من العلماء الأوروبيين لم، يستجيبوا لإغراء تبنى منظور مستخلص من ذلك الشكل الشامل نظريا ولا من أى جزء منه لاتثبت تاريخيته، وأصبح هناك جدل كبير حول المصداقية التاريخية للأحداث المروية فيه.

ففى خلال ثمانينات القرن التاسع عشر استخلص جى. فلهاوزن بعد دراسة مستفيضة لما يزيد عن عقدين من الدراسات النقدية ـ التاريخية ـ للعهد القديم ما عرف باسم «الفرضية الوثائقية» لأصول الأسفار الخمسة الأولى (التكوين ـ الخروج ـ العدد ـ اللاويين ـ التثنية). وقد توصلت هذه الفرضية إلى أن الأسفار قد تم تشكيلها من أربعة مصادر مستقلة عن بعضها هى: المصدر اليهوى (نسبة إلى إسم الاله يهوه) والمصدر الايلوهيمى (نسبة إلى إسم الإله إيلوهيم)، والمصدر التثنوى (نسبة إلى سفر التثنية) والمصدر الكهنوتى، وهى التى يشار إليها، عادة، إختصارا بالحروف (جى، إى، دى، بى) بالإنجليزية.

وقد توصل فلهاوزن ومن جاء من بعده من الباحثين الذين أصبحوا يعرفون بإسم «أصحاب المدرسة النقدية» إلى أن العهد القديم هو مؤلف دينى روحانى تم تدوينه فى فترة متأخرة تلت الأحداث الواردة فيه بمئات السنين، وتحول بسبب دوره فى خدمة الفكر الدينى الاسرائيلى إلى مصدر تاريخى مشكوك فيه، لأن الأحداث الواردة فيه لاتؤيدها براهين أخرى من مصادر أجنبية أو إكتشافات أثرية، مما ألقى بظلال كثيفة حول المصداقية التاريخية المرتبطة بالخلفية الدينية وحول مزاعم الجماعة اليهودية حول الأرض والتراث والوعد الالهى.. الخ.

وإذا كان فلهاوزن قد هدف من تحليله النقدى لاسفار التوراه، التوصل الى التطور التاريخى لديانة إسرائيل القديمة فى إطار من التطور الزمنى المرحلى، فقد كان عليه للتوصل إلى هذا، تحديد هذه المصادر الأربعة المستقلة وإرتباطها الزمنى

والايديولوجى مع التطورات المرحلية فى تاريخ اسرائيل. وتوصل إلى أن المصدر اليهوى دون مع المملكة الموحدة، مملكة يهودا وسلالة داود، وأن المصدر الايلوهيمى دون مع الملكية المنقسمة ودولة إسرائيل، والمصدر التثنوى دون مع إصلاحات يوشيا (ملك يهودا من ٦٣٨ ـ ٦٠٨ ق.م) والفترة السابقة للسبى والتنبؤات، والمصدر الكهنوتى دون مع مرحلة السبى وما بعدها والدوائر الكهنوتية.

ومن النتائج الهامة لهذه الدراسات النقدية، أن هذه المصادر الأربعة للأسفار الخمسة يجب فهمها على أنها وثائق أدبية تم تأليفها وقت كتابتها وتعكس فهم ومعرفة مؤلفيها وعالمهم، بما يعنى، أنه لايمكن الحصول منها على أى شىء تاريخى يعتمد عليه عن المراحل السابقة لتاريخ اسرائيل، مما ألغى فكرة الإستفادة منها لإعادة تشكيل تاريخ اسرائيل القديم. وسرعان ما أثرت نتائج دراسات فلهاوزن وتلاميذه بشأن إعادة بناء الروايات، على فهم بقية أجزاء العهد القديم، مما أدى إلى نقل الدراسات التاريخية النقدية إلى مسار بعيد عن التفكير الدينى (ثيولوجيا) وأعطاها طابعا تاريخيا علمانيا بصورة متزايدة، وهو الاتجاه الذى دعم نجاح نتائج التنوير الأوروبى والاتجاه التاريخى الحديث فى الفكر الغربى خلال القرن التاسع عشر. وكان لتأثيره هذ المدرسة المقترنة بالتحرر من العقلية اللاهوتية الضيقة، الفضل فى التوصل الى فهم جديد لتاريخ إسرائيل القديم، ولم ينظر الى مدونى المصادر اليهوية والايلوهيمية على أنهم مؤرخون لماضى إسرائيل، بل على أنهم جامعون ومحررون لأساطير وحكايات شعبية مختلفة متعددة الأصول والتواريخ، وأن الروايات التوارتية هى شظايا ذكريات مكتوبة أو شفهية، وسلاسل من القصص، وأعمال أدبية معقدة، وسجلات إدارية وأغانى، وحكم نبوية كلمات مأثورة عن فلاسفة، وقوائم وحكايات، جمعت ودونت إنتقائيا وفسرت على أنها ماض هو بقايا دور خيالى غير مترابط جمعها العائدون من السبى البابلى.

وبالرغم من أنه بذلت جهود خلال القرن العشرين لاقامة جسور بين الدراسات الأكاديمية النقدية والتفسير التوراتي اللاهوتي، إلا أن هذه الإزدواجية إستمرت، وظل التحدى الذى فرضه البحث التاريخي قويا فى مواجهة إصرار اللاهوتيين بعناد على الإيمان بحقيقة ومصداقية المرويات التوارتية.

وقد حدد أصحاب المدرسة النقدية لمصادر العهد القديم، أنه لكتابة تاريخ مستقل لاسرائيل القديمة، لابد وأن تؤخذ فى الاعتبار ثلاثة أشكال مختلفة من البينات المباشرة المستخلصة من المصادر الأولية:

(١) الحفريات الأثرية وتحليلها، وتصنيف وتفسير الحقائق المستخلصة من الحفريات ونماذج الاستيطان القديمة فى فلسطين المعروفة جغرافيا وإقليميا.

(٢) ثروة الآثار الكتابية القديمة المرتبطة مباشرة أو بصورة غير مباشرة بفلسطين القديمة. (مثل رسائل تل العمارنة ـ رأس الشمرة (أوجاريت). أبله ـ المحفوظات الآشورية البابلية.. الخ) والتى تكشف عن البنى الدينية والسياسية ونمط الحياة والأحداث المعروفة.. الخ.

(٣) الروايات التوراتية التى تعكس صراحة أو ضمنا المجال الذى تشكلت فيه والذى يرسم تصور بنى إسرائيل لأصولهم وثقافتهم وديانتهم وتاريخهم.

وقد تواصلت دراسات وأبحاث أصحاب المدرسة النقدية منكرى روايات العهد القديم عن تاريخ اسرائيل القديم، معتمدين فى ذلك على الاكتشافات الاركيولوجية (الأثرية) وعلى تواريخ شعوب الشرق الأدنى القديمة وحضاراتهم، وكان منهم من حاول الربط بين هذه الاكتشافات الأثرية وتواريخ شعوب الشرق الأدنى القديم وبين مصداقية ما ورد فى العهد القديم، وكان من أشهرهم الباحث الأمريكى ويليام أولبرايت Albright والبرخت ألت ALT وغيرهم ممن أكدوا تاريخية التوراة على ضوء الحفريات، وخاصة فيما يتصل بقصة دخول بنى اسرائيل.

لأرض كنعان والاستيطان بإعتبارهما مفتاحاً لتفسير أصول اسرائيل القديمة. كما ركزا مع من سار فى إثرهما، وخاصة أصحاب مدرسة ألت، على الدراسة البنيوية للتمييز بين المظاهر الكنعانية والمظاهر الاسرائيلية فى نصوص التوراه على أساس قربها أو بعدها عما ورد فى اللوحات المسمارية، ورغم إعترافه بالجذور الكنعانية للتقاليد والعبادات والقوانين اليهودية، إلا أنه، بصورةغير مشروعة، أعطى بعدا تاريخيا لهذا التناقض والتعارض (الدولة المدينة، الكنعائية مقابل دولة اسرائيل القومية)، وقدم كذلك نظريته لأصول إسرائيل، بأنه تم نتيجة تسلل تدريجى واستقرار البدو الرعاة فى مناطق فلسطين المجاورة للأراضى الزراعية المنخفضة الكثيفة السكان، وهى النظرية التى أصبحت لاحقا برنامجا لجميع الأبحاث اللاحقة عن أصول بنى اسرائيل فى فلسطين، وكانت كل ما أشارت إليه بعض الأبحاث عن نماذج «الفتح»، و«الثورة من الداخل» بمثابة تحويرات مشتقة من نموذج آلت، بحيث أصبح التمييز بين الفتح والاستيطان والثورة يعكس تأكيدات وتقييمات فردية لنموذج منهجى واحد، هو التحول من الدولة المدينة الكنعانية فى العصر البرونزى المتأخر الى الدولة الاسرائيلية القومية فى العصر الحديدى، وهو المنهج الذى إتبعه أفراهام مالمات مؤلف الجزء الأول من هذا الكتاب الذى نقدم ترجمته للقارىء العربى فى تفسيره لدخول بنى اسرائيل لأرض كنعان.

وخلال الستينات والسبعينات كتب الباحث الإسرائيلى ب. مازار B. Mazar عددا من المقالات اشتملت على مواجهة شاملة لمقترحات ألت على ضوء تزايد المعلومات عن تاريخ فلسطين وحفرياتها الأركيولوجية مركزا بحثه على التغيرات العامة التى وقعت فى سوريا-فلسطين خلال الفترة التى أدت إلى ظهور ثلاث شعوب سامية جديدة أقامت كل منهادولة قومية ضمن إطار ثقافى: الاسرائيليون، الآراميون، الفينيقيون، وذلك فى فترة إنهيار السيطرة الامبريالية الأشورية والحيثية والمصرية على سوريا وفلسطين فى نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الثانى عشر

ق.م مع هجرات وغزوات شعوب البحر (الفلسطينيون) أو شعب «البلست» على طول شواطىء البحر المتوسط.

وقد سار على نفس هذا الدرب دوفوكس عام ١٩٧٠ فى دراسته الشاملة لتاريخ اسرائيل موفقا بين المرويات التوراتية والحفريات الاثرية فى فلسطين وأثار الشرق الأدنى، ورفض موقف نوت القائل بوجود جماعة دينية فى اسرائيل القديمة. وقام توماس طومسون بتقييم معظم البحوث التاريخية التى ظهرت خلال الأعوام بين ١٩٢٠ ـ ١٩٧٠ والتى أيدت إعادة بناء فترة بطريركية ضمن تاريخ فلسطين خلال الألف الثانى قبل الميلاد.

وقد رأى طومسون، أن محاولة التوفيق بين الروايات التوراتية وغير التوراتية كإثبات للمصداقية التاريخية لاسرائيل القديمة سرعان ما دخلت مرحلة إنهيار مازالت متواصلة حتى اليوم، وأنه ما أن وضعت تاريخانية التوراة موضع تساؤل حتى كان لابد وأن ينهار البناء التاريخى الذى إعتبر تاريخيانية التوراة جزءا من نظرته للتاريخ».

وعلى الطرف الآخر، حظى الاتجاه التفكيكى (النقدى) فى الدراسات التاريخية للعهد القديم بتركيز حاد. ففى الستينات من القرن العشرين تبلورت نظرية ارتبطت أساسا بإسم نورمان جوتفال تقول بأن اسرائيل ظهرت الى الوجود نتيجة للنضال الثورى للفلاحين الكنعانيين الذين كانوا يعانون القهر، وتحالفهم مع الأسباط الاسرائيلية شبه الرحل ضد المدن الكنعانية التى اضطهدت الفلاحين واستغلتهم. وقد تبنى الفلاحون الكنعانيون ديانة يهوه، الإله الاسرائيلى الأول، كأيديولوجية ثورية مشتركة، ومن هنا جاء رفض هؤلاء لعبادة البعل التى كانت العبادة السائدة فى المدن الكنعانية، حيث كانت العودة إليها تعنى العودة إلى القمع الطبقى القديم.ونتيجة لهذا الصراع ظهر مجتمع الفلاحين والرعاة الأحرار.وأدى

تطور الملكية فى اسرائيل، وبخاصة فى عهد سليمان، إلى استئناف الوضع الطبقى فى صورته المستغلة. وهناك العديد من نقاط الاتصال بين هذه النظرية وبين البحث الذى قام به فاكس فابر فى كتابه «قبائل يهوه» (The Tribes of yahweh).

وفى نفس الفترة ظهر اتجاه جديد لتطور دراما بداية اسرائيل، فنشر جورج مندنهول عالم الاجتماع الأمريكى الليبرالى عام ١٩٦٢ مقالا بعنوان «الاحتلال العبرانى لفلسطين»، وقدم نموذجا جديدا لبداية اسرائيل أطلق عليه إسم «النموذج الاجتماعى»، وانتهى فيه إلى أن تاريخ بداية اسرائيل بكامله من عصر الآباء، والخروج من مصر والتيه فى الصحراء، ودخول أرض كنعان والاستيطان فيها يفتقر لأى أساس حقيقى.

وقد أطلق مندنهول على بداية اسرائيل إسم «أسطورة الخلق»، لأنه يهدف لصنع تاريخ قومى بأسلوب مصطنع. ووضع مندنهول نموذجا بديلا، معتمداً على غياب البراهين الأثرية للعهد القديم، ورأى أن الأسرائيليين جاءوا من وسط السكان الكنعايين الذين تركوا المدن خلال حرب طبقية وصعدوا الى منطقة جبلية فى البلاد، كان يستوطنها الفلاحون الكنعانيون، وهناك التقوا بجماعة صغيرة جاءت من الصحراء تحمل تقاليد وحدانية الإله. وقد تبلور الشعب الاسرائيلى، حسب أقوال مندنهول، على مدى قرون من خلال فلاحى كنعان. وبعد ذلك أعاد داود وسليمان كتابة التاريخ صنعا «أسطورة الخلق» التى تفتقد لأية خلفية حقيقية، وقد اعتمد مندنهول فى نظريته هذه على غياب الشواهد الأثرية من ناحية، وعلى التفسير الاجتماعى الماركسى للعهد القديم.

وقد رأى مندنهول ومن اتبعوا نظريته ومن بينهم مؤلفا الكتاب الذى بين أيدينا، أن تطور المملكة الإسرائيلية اتبع نموذج «الدولة السورية ـ الحيثية التقليدية»، وهو ما أدى إلى إدخال «الوثنية فى التاريخ السياسى والاجتماعى لاسرائيل مماكان

، تأثيرات حاسمة ودائمة». والواقع أنه يصل بمفهوم المفارقة المتمثلة فى أن المملكة الاسرائيلية كانت وثنية وكانت فى الوقت نفسه اسرائيلية بشكل متفرد إلى نتيجتها المنطقية، وذلك بالتمييز الحاد بين اسرائيل الأساسية أثناء «الثورة التوراتية» وبين إعادة ادخال الوثنية خلال فترة مملكتى داود وسليمان. ويرى مندنهول بأن مملكة داود كان اندماجاً معقداً بين «الثقافات الكنعانية وثقافة شمال سورية والأناضول والثقافة السورية الشرقية فى العصر البرونزى»، مع بعض الملامح المشتقة من الحضارة المصرية، وأن تلك «الوثنية الكنعانية» المنحلة، هى أمر داخلى ينبغى النظر إليها بوصفها نقيض الثورة التوراتية النقية التى تعود إلى فترة ما قبل الملكية فى اسرائيل. ثم يؤكد بأن هناك دلائل كثيرة تثبت الارتداد المنظم الى وثنية العصر البرونزى فاق التطور السريع لمملكة القدس، وأنه حدث فى أقل من جيلين». ويرى أن ذلك كان بمثابة إنكار للاخلاقيات الدينية للعصر الموسوى وتحويل لها وعودة إلى ما هو عكسها، بحيث تصبح ختاماً احتكارياً للقوة السياسية، وهو النظام الذى انتقده أنبياء التوراة العبرية.

واعتباراً من السبعينيات قدمت فى هذا الصدد دراسات عميقة وجادة أهمها مانشر فى عام ١٩٧٧ فى كتاب «التاريخ الاسرائيلى واليهودى» على يد سبعة من المؤلفين (ميلر، مايز، م. كلارك، تومبسون، د. إرفن، أ. سوجين) عالجوا الروايات التوراتية والفترات التاريخية حتى المملكة الموحدة، وكشفوا بالاجماع أن المعروف عن أصل إسرائيل هو لاشىء أو قليل للغاية، وأنه من غير المحتمل أن تصنيف المواد غير التوراتية كثيرا إلى ما نعرفه عن التاريخ السابق لاس وأن الروايات التوراتية، هى فى أفضل الفروض، مصدر غير مناسب للمعرفة وكان هذا الاجماع بين هذه المجموعة من الباحثين بمثابة تأكيد على ان هذا الاتجاه يمثل حركة واسعة الانتشار فى هذا الحقل.

وفى نفس الإطار، ظهر رد فعل حاد فى الحفريات التوراتية ضد الخضوع للدراسات التوراتية أو الارتباط الوثيق بها، إحتجاجا عل التركيز المبالغ به على محاولات التوفيق ين الحفريات الأثرية التوراتية والدراسات التوراتية سعياً لتأكيد المصداقية التاريخية لروايات العهد القديم.

٤ ـ تاريخ إسرائيل القديم بين نقد العهد القديم والاكتشافات الأثرية:

يستند استعراض التاريخ الاسرائيلى القديم فى هذا الكتاب على نظريات نقد «المقرا» (العهد القديم) وعلى الخلافات المرتبطة بذلك، ولأن المادة المقرائية ذاتها نتسم بالغموض ومليئه بالأساطير وبالتداخلات المتأخرة فى النص، والتى يمكن تفسيرها بصور شتى. ومن جانب آخر فليس هناك مجال يفوق هذا المجال من حيث استيعابه لاحكام قديمة، وأيديولوجيات تسعى إلى تبرير موقف رنظريات تاريخية رسمية، وما يرتبط بذلك من مواقف دفاعية. ويبرز كل ذلك فى الجانب الأكبر من الأدب التفسيرى، حتى فى الجوانب التى تدعى انتهاج أساليب علمية. ولكن يبدو أن محاولات باحثين معينيين تفسير المادة المعروضة بصورة تقترب بقدر الامكان من النظرية التقليدية، وتفنيد النظريات النقدية الخاصة بعلماء «المقرا» على اختلاف مدارسهم، تقود إلى مشاكل خطيرة، تفوق فى خطورتها، تلك التى أشار اليها هؤلاء الباحثون.

وسوف نستعرض فيمايلى بعض النقاط الهامة التى توصل إليها مؤلف الجزء الأول من هذا الكتاب فى إطار ماتوصل إليها علماء المدرسة النقدية للعهد القديم على ضوء الاكتشافت الأثرية:

١ ـ أن أصل أسباط اسرائيل، يعود إلى «الخبيرو» أو «العبيرو» الذين ورد ذكرهم فى سجلات عديدة فى الألف الثانى قبل الميلاد فى منطقة الهلال الخصيب. وكانت عشائر الخبيرو وتتكون جماعات رحل، وكانوا أحيانا من الرعاة

المسالمين وأحياناً من المغيرين الذين عملوا في بعض الأحيان مرتزقة للممالك المختلفة فى المنطقة، ويميل الباحثون إلى ربطهم، «بالعبيرو» ، (الاسرائيليون هم كما ورد فى سلسلة الانساب المقرائية جزء من عشائر العبيرو) . وأحد الأمور المشتركة بين أسباط اسرائيل أو بين جزء منها، هى التقاليد الخاصة بخروجهم من أرض مصر. وليس لهذه التقاليد التى تبناها الجميع فيما بعد، أى شواهد أثرية أو وثائقية مساعدة. وفى إحدى المراحل المتأخرة لتسجيل التاريخ القديم لبنى اسرائيل وحين نسب ليعقوب آباء سابقون، برزت بالتالى الصلة المستمرة بين الآباء الثلاثة الى أن نزح الجيل الرابع من بنى إسرائيل إلى مصر.

٢ ـ أنه على امتداد التاريخ المسجل، وقبل ذلك أيضا، قد نزحت جماعات وأفراد الى وادى النيل وخرجوا منه (توجد اصداء اسطورية لذلك فى قصص الأباء الذين نزحوا ال مصر)، ولذلك فمن المحتمل للغاية أن الأحداث التى أختزنت فى وعى إحدى تلك الجماعات التى أضيفت إليها بمرور الأجيال طبقات من القصص الاسطورية وقصص المعجزات، لم تحظ مطلقا بالاهتمام من جانب مدونى السجلات المصرية أو ربما إعتبروها غير ذات أهمية. وقد كان تسلل أسباط اسرائيل الى أرض كنعان جزءا من هزة واسعة شملت كل مناطق الحضارات القديمة فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط خلال الربع الأخير من الألف الثانى قبل الميلاد، وكانت تلك فترة أفول الدول العظمى، وبخاصة الامبراطورية الحيثية (فى الشام) وكذلك فى مصر. وفى أعقاب ذلك جاء تسلل العشائر الآرامية وسيطرتها على مناطق سوريا الحالية وإستيطان «شعوب البحر» (البلستيون) القطاع الساحلى لكنعان جنوبى مناطق سيطرت عليها ممالك صور وصيدا، وتوغل أهل عيلام فى اتجاه الشرق نحو بلاد ما بين النهرين، كما غزت العشائر الدورية مناطق الثقافات المكتسبة. وهذا التسلل الذى قامت به أسباط اسرائيل، وعلى النقيض مما ورد فى سفر يشوع الذى كتب بعد الأحداث الفعلية بأجيال، كان يهدف كما يبدو إلى

خدمة الأغراض السياسية والأيديولوجية للمملكة المتأخرة (وإن كان هناك من يؤخر تأليف السفر الى فترة الهيكل الثانى، وهناك من يقدمون موعد التأليف أو على الأقل جزءا من السفر إلى فترة تقترب من فترة وقوع الأحداث الوارده فيه) وكما يبدو فإن هذا التسلل لم يحدث فى غالبية الأحوال عن طريق الحرب والاحتلال.

٣ ـ أن الاستيطان الاسرائيلى تم فى أغلبه بالطرق السلمية وعن طريق التسلل البطىء الذى قامت به الأسباط الى المناطق الجبلية الجرداء والخالية من السكان فلم تكن تتوافر لتلك العشائر الأولى امكانيات مجابهة التشكيلات العسكرية المتطورة لدى مدن الدولة الكنعانية، التى تقع أساسا فى السهول والوديان الخصبة. وكانت هذه التشكيلات مجهزة بأسلحة ومركبات حديدية. وقد تبين أن ما جاء فى سفر القضاة، الذى يحكى عن خضوع الأسباط الاسرائيلية فى حالات عديدة للكنعانيين وتعرضها للضغط من جانب لصوص الصحراء، أكثر مصداقية من الناحية التاريخية. ويقدم البحث فى مجال الأثار صورة مختلفة تماما لقصة إحتلال كنعان، كما وردت فى «المقرا». فقد تبين أن اختفاء الحضارة الكنعانية واستيطان شعب اسرئيل فى البلاد وترسيخ أقدامه فيها ليس بالحدث التاريخى غير المتكرر، بل هو يتكون من أحداث تاريخية تمتد لفترة تزيد عن قرنين من الزمان ابتداء من القرن الثانى عشر وحتى القرن الحادى عشر قبل الميلاد. وتبين أيضا أن جزءا من المدن التى ورد ذكرها ضمن المناطق التى استولى عليها يشوع، لم تكن قائمة على الاطلاق فى نهاية الفترة الكنعانية، ومنها مدن: «حشفون» و«أريحا»، «هاعى» وغيرها، واستمر ذلك فترة زمنية أطول فى أماكن أخرى. فجبل منشة كان زاخرا بأودية مفتوحة وخصبة إحتشد فيها بنو اسرائيل منذ القدم، وأقيمت فيها مراكز استيطان إسرائيلية.. وكانت المدن الكنعانية فى هذه المنطقة تفوق فى العدد المدن الموجودة فى الأجزاء الأخرى من الجبل، وكانت المدن الواقعة على أطراف الجبل، مدنا اسرائيلية فى الفترة الملكية فقط. ولم توجد فى المدن الواقعة فى قلب

المنطقة الجبلية أى علامات على حدوث خراب أو أى اختلافات بارزة، عما كان موجودا فى الحضارة القديمة، التى تمثل نقطة وصل بين العصر البرونزى والعصر الحديدى. أى لم يكن هناك احتلال وتخريب، كما ورد فى سفر يشوع، بل ما حدث كان عملية انتقال بطيئة إلى أرض كنعان. وقد حدث ذلك فى البداية من خلال ارتباط بمدن الدولة الكنعانية ثم حدث ذوبان متبادل، شهد بعض الصرعات الدموية والسيطرة الاسرائيلية، باعتبار أن اليهود شعب مسيطر (وردت اشارات الى ذلك فى سفر ملوك أول ٩ : ٢٢)، «وأما بنو اسرائيل فلم يجعل منهم عبيدا لأنهم رجال القتال وخدامه وأمراؤه وثوالثه ورؤساء مركباته وفرسانه» (ملوك أول ٩ - ٢٢)، إلى أن حدث تعايش بين المستوطنين الاسرائيليين والسكان الكنعانيين المحليين واتحدوا فى أمة واحدة على أيدى شاؤل، دواود وسليمان.

٤ - أنه تم الحفاظ على الاستمرارية اللغوية لكنعان، ولم تكن هناك أى قطيعة بين اللهجات الكنعانية القديمة، التى تنتمى الى أسرة اللغات السامية الغربية وبين اللغة العبرية، التى تنتمى أيضاً إلى تلك المجموعة اللغوية. وتتضح هذه الاستمرارية فى تبنى الأسباط المستوطنة للغة المحلية، الأمر الذى يحدث فقط فى ظل التأثير البطىء، وليس من المعقول أنهم لم يتبنوا أيضاً الثقافة المحلية التى كانت بالطبع أعلى من المستوى الثقافى من ثقافة القوم الرحل البدائيين.

ويبرز التقارب اللغوى بى الشعوب المجاورة أيضا فى لغة نقش ميشع ملك موآب، المكتوب بالموآبيه وهى شديدة القرب إلى العبرية، مع اختلافات معينة فى القواعد وكذلك فى الخط الكنعانى العبرى، ولذلك فإنه من المستحيل إيجاد أى اختلافه جوهرى من ناحية مضامين العبادة والمضامين الايديولوجية بين بنى اسرائيل القدامى وبين جيرانهم. وتدل الاكتشافات الأثرية التى عثر عليها (حسب النظام الكرونولوجى لتلك الحضارات) فى أبلا، وفى تل مسارى وفى

أوجاريت (رأس شمرا) على وجود استمرارية حضارية تاريخية للمنطقة كلها مثل اكتشاف أسماء مثل: ابراهيم، داود، ميخا، اسرائيل واسماعيل فى أبلا وفى وثائق تعود إلى ما قبل خمسة آلاف عام مضت. ويقول «فتينانو» وهو أحد الباحثين فى حضارة «أبلا»، أن لغة «أبلا قريبة الى العبرية والى اللغات الأخرى التى كانت منتشرة فى المنطقة». وعثر فى تل مارى على وثائق تتناول القبائل الغربية السامية والمؤسسات الخاصة بها خلال الالفين الثانى والثالث قبل الميلاد، وهى تلقى الضوء على بناء المجتمع القبلى الاسرائيلى، واستقراره التدريجى فى كنعان. وتحتوى تلك الوثائق على أسماء مركبة من كلمات ملحقه باسم الرب «إيل» على غرار الأسماء الموجودة فى العبرية مثل: اسرائيل واسماعيل. كماعثر على كلمات مثل: «شدّاى» وعلى أسماء سبطى «لاوى وبنيامين» (الذى يعنى ابن الجنوب). وكذلك عثر على كلمات قريبة للغاية من كلمات عبرية مختلفة. وتكشف وثائق مدينة أوجاريت، وهى مدينة خربت فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، والمكتوبة أيضا بلغة قريبة من العبرية، وإن كانت مكتوبة بلغة تختلف عن اللغة الأصلية، عن نظام ميثولوجى كامل يلقى الضوء على تعبيرات وأجزاء عديدة وردت فى العهد القديم، أى أن التقاليد اللغوية والأدبية العبرية هى استمرار للتقاليد اللغوية والأدبية الكنعانية، وهو ما يثبت التشابه الكبير من الناحية الثقافية بين أسباط اسرائيل وجيرانهم، حتى أنهم يشكلون فى الواقع أجزاء من استمرارية ثقافية واحدة.

٥ ـ يستدل من دراسة سفر القضاة أن بنى اسرائيل لم يعملوا ككيان قومى، فيما عدا ما جاء فى وصف حرب عنتئيل بن قناز ضد كوشن رشعتايم، ملك ما بين النهرين. ويشك الباحثون فى هذا الوصف، كما لم ترد الاشارة إلى أى كيان قومى أو مؤسسة سياسية مركزية ترسم السياسة القومية. وقد فسر علماء نقد المقرا، التناقض القائم بين الواقع التاريخى الذى يرد فى قصص الأحداث، كما وردت فى سفر القضاة، وبين الأوصاف الخاصة بالإستيلاء الكامل على البلاد كما وردت

في سفر يشوع الذى يعتمد عليه المدخل والإطار المنهجى لسفر القضاة، بأن ذلك راجع لانحياز محرر السفر الذى حاول تقييم تلك الفترة القديمة من تاريخ اسرائيل، انطلاقا من نظره قوميه تبلورت فقط فى أواخر الهيكل الأول أو فى فترة متأخرة عن ذالك. وقد توصل البحث النقدى للمقرا فى تقييمه لتطور تاريخ اسرائيل إلى رأى مغاير تماما لما ورد فى سفر يشوع وفى سفر القضاة حيث إنتهى هذا البحث إلى أن الأوضاع التى تحدث عنها سفر القضاة لم تكن مسبوقة بوضع يتسم بالبلورة القومية، الدينية والعسكرية، وصل إلى ذروته عند احتلال البلاد وتوزيعها بين الأسباط، ومن ثم بدأ يشهد ضعفا وتفسخا فى أعقاب هذا الاستيطان، بل العكس هو الصحيح. فبعد الاستيطان المنفصل للأسباط المختلفة بدأت تكتلات عامة بينها، وصلت لأول مرة إلى بلورة قومية تمثلت فى إقامة الملكية فى اسرائيل.

٦ ـ من الواضح أن الباحثين التوراتيين وعلماء الاثار كانوا مدركين منذ فترة طويلة لمسألة شح الأدلة الأثرية، ولكنهم أصروا مع ذلك على تصور المسرح الهائل لامبراطورية داود على أنه يمثل احدى القوى العظمى فى العالم القديم. وقد تجاهل خطاب الدراسات التوراتية النقطة التى أشار أليها طومسون فى بحثه المحمود عن الدولة الاسرائيلية فى العصر الحديدى المبكر عن عدم وجود مركز قوى سياسى واقتصادى تجاوز حدود الاقاليم المحلية فى فلسطين، تجاهلاً تماماً. وكان من الواجب أن تؤدى دراسة الأوجه الأعم للإمبراطورية الى موقف أكثر حذراً يخفف من غلواء المطالب الأكثر تطرفاً، التى تزعم أن دولة داود كانت احدى القوى الرئيسية فى العالم القديم، وأن مملكة داود وسليمان قللت من شأن الهيمنة الامبريالية الخارجية، تلك الهيمنة التى كانت سمة ملازمة لتاريخ فلسطين من العصر البرونزى وحتى عصرنا الحاضر، كما كانت هى الحقيقة الأعم للقوة الامبريالية والهيمنة التى سعت للسيطرة على فلسطين ورسم معالمها طوال تاريخها. وعلى الرغم من ذلك، فإن أنصار اختلاق وجود ماض متخيل لامبراطورية داود لم

يأخذوا فى اعتبارهم أن الأدلة الأثرية عن قيام مملكة داود لم تكشف إلا عن بنية لدولة صغيرة جداً، وأن الدلائل توحى بأن القدس لم تصبح عاصمة لدولة إقليمية قبل القرن السابع ق.م، ولم ترق الى مستوى العاصمة إلا فى الفترة الفارسية. وقد أثيرت التساؤلات حول وجود «المملكة الموحدة التوراتية» على أساس أن سكان يهودا لم يكونوا مستقرين، ولم تكن هناك قاعدة لسلطة سياسية أو اقتصادية يمتد نفوذها إلى مختلف الاقاليم الصغيرة فى فلسطين، قبل توسيع الهيمنة الامبريالية الاشورية فى جنوب منطقة شرق البحر المتوسط. وقد استمرت الدراسات التوراتية فى تصور امبراطورية اسرائيلية هيمنت على تاريخ المنطقة وحددت معالمه، ورأى الكثيرون فى الاكتشافات الحديثة لجزء من نقش أرامى فى تل دان Tel Dan (تل القاضى) تأكيدا وتبريراً لهذا التصور لماضى إسرائيل المجيد، ونظر إليها البعض على أنها نوع من الدفاع النهائى ضد الكتابات التاريخية الصحيحة التى أثارت شكوكاً حول تاريخية التراث التوراتى وكان لهذا كله أثر عميق على فكر اليهود وتطلعاتهم، ولكن على الرغم من ذلك، فإن المكتشفات الأثرية المتعلقة بهذه الفترة شحيحة جداً.

٧ ـ بدأ لوح مرنبتاح الحجرى المنقوش Mernephtah الذى اكتشف عام ١٨٨٦، والذى اكتشف فيه أول ذكر لاسرائيل فى نص خارج عن التوراه، يكتسب أهمية خاصة فى الجدل الدائر مؤخراً يشبه الأهمية التى أوليت لنقوش تل دان فى دفاعها عن تراث داود التوراتى. فالاشارة المحرجة الى هزيمة اسرائيل على يد الفرعون مرنبتاح ومفادها «قضى على اسرائيل، لكن لم يتم القضاء عل ذريتها»، أصبحت مركز الاهتمام فى الدفاع عن اسرائيل التوراتية فى مواجهة النزعة التشكيكية لدى أصحاب حركة «البحث الجديد فى اسرائيل القديمة». ودافع كثيرون من الباحثين التوراتيين) عن تاريخ اسرائيل المستوحى من التراث التوراتى، والمبنى على تفسيرهم لهذا النقش. وقد أصروا بعناد على أنه «لايوجد أى سبب

مطلقاً للشك فى أن اسرائيل التى وردت فى هذا اللوح الحجرى المنقوش هى اسرائيل التوراتية فى فترة ما قبل المملكة»، وأنه من غير المعقول» إنكار هذه العلاقة. وهنا يصبح اللجوء إلى ما هو معقول جزءا من الخطاب الذى يدعى. الموضوعية ليدعم التصور المهيمن فيما يتعلق بتاريخ اسرائيل القديمة كما صورها خطاب الدراسات التوراتية. والمعلومات الوحيدة الواضحة التى يوفرها هذا اللوح الحجرى المنقوش هى أن كياناً ما يدعى اسرائيل واجهه جيش الفرعون فى أواخر القرن الثالث عشر ق.م. ولكن هذا لايثبت أو ينفى أن إسرائيل كانت تنظيما قبيلاً أو مساحة جغرافية (من المحتمل أن هؤلاء الذين حملوا اسم «إسرائيل» وأشار إليهم النقشى كانوا من البطون التى إنتسبت إلى يعقوب، (أى إسرائيل) ولم ترحل بصحبته إلى مصر). وقد لعب لوح مرنبتاح دوراً رئيسياً أيضاً عند بعض أولئك المنهمكين فى البحث الجديد عن اسرائيل القديمة.

٨ ـ على الرغم من أن التوراة تقول أن داود حكم لمدة ٤٠ سنة فإنه مما يدعو للسخرية ألا نجد إلا آثاراً ضيلة عن فترة داود كما لاتوجد أى مبان أثرية ترجع الى هذه الفترة وبالمقارنة مع الحضارات المجاورة الآرامية والحيثية الجديدة فى سوريا، والفينيقية فى قبرص، ومع مستعمراتها الخارجية المختلفة عبر البحار وبخاصة أشور وبابل ـ فإن الأثار المادية الباقية فى أرض فلسطين عن هذه المملكة فقيرة للغاية. كما يلاحظ عدم وجود نقوش على المبانى والتماثيل وكذلك عدم وجود القصور الضخمة والعاديات المنقوشة بدقة أو الحلى والمجوهرات المزخرفة، أو الأونى المصنوعة محليا، والتى ترجع الى فترة المملكة، وكانت معظم القطع الفنية مستوردة. ولم يزد عمر مملكة إسرائيل على ثلاثة أرباع القرن. وكانت الفترة الوحيدة التى أصبح فيها اليهود قوة سياسية هامة فى غرب أسيا. وقد سجلت أمجادها بمباهاة فى التوراة. وهنا نجد استثناء فى تاريخ المنطقة لم تتمكن الجهود

الهائلة للتنقيبات الأثرية حول فترة العصر الحديدى من كشف الشواهد المادية المؤيدة له.

وهكذا يثير غياب أى سجل أثرى أخطر الشكوك حول تصور إمبراطورية إسرائيلية كانت تعبيرا عن حضارة ذات نهضة، مما يوحى بأننا بصدد ماض متخيل. والخلاصة هى أن الحديث عن إمبراطورية داود وتحقيق ما يسمى «إسرائيل الكبرى»، التى تصور باستمرار على أنها استثناء فى تاريخ منطقة الشرق الأدنى القديم يوصف بأنه غير مجرى تاريخ المنطقة، لم يجد ما يؤيده فى الانتاج البيروقراطى للحضارات المحيطة، وسواد قامت أم لم تقم فإنها لم تترك شواهد ملموسة فى الآثار المادية فى المنطقة. ومع أن البعض يرجع عدم ذكر مملكتى سليمان وداودفى النصوص القديمة للشرق الأدنى الى الضعف السياسى لمصر وأشور، مما يعنى أنها لم تكن على إتصال بالقوة المحلية فى فلسطين، فإنه حتى لو كان ذلك صحيحا، فمن الصعب تصور هذا الصمت الكامل لسجل الأثرى، إذ أن دولة كبرى إلى مثل هذا الحد، إن لم نقل امبراطورية، لابد أن تحدث تغييرات أساسية فى التنظيم الاجتماعى والسياسى وهو أمر كان ينبغى أن يترك بعض الأثر فى الوثائق الأثرية على الأقل. إلا أن المؤرخين التوراتيين يعتقدون أنه على الرغم من عدم وجود الدليل المؤيد، وحتى إن اعترفوا بمبالغات كتبة التوراة، فلا ينبغى أن يشك احد فى تاريخية historicity مملكة داود وسليمان. وبالإضافة إلى ذلك على الرغم مما ورد فى التوراة من أن سليمان قد تزوج ابنة الفرعون ـ وكان هذا انجازاً للنظر إذاما أخذنا فى الاعتبار أن مثل هذه الأمور كانت ممنوعة على الملوك الحيثين ـ فإن الوثائق الأثرية المصرية المتوفرة لم تذكر شيئاً عن هذه الحادثة المهمة.

٩ ـ يشكك حييم تدمور فى المفهوم القائل إن حكم سليمان كان عصراً ذهبياً، وعلى الرغم من ملاحظاته أن الدلائل الأثرية فى حازور Hazor ومجدو (تل

المتسلم) Megiddo، وجازر (تل الجزر) Gezer تدل على أن سليمان كانت له أعمال فى مجال تشييد المبانى، فإنه يجعل هذا الحكم مشروطا، إذ يصف تلك المنجزات بأنها «متواضعة الى حد ما» إذا ما قورنت بمبانى عمرى ويشير تدمور كذلك، الى أنه اذا كان سليمان حاكماً قوياً ثرياً بمقاييس العصر الحديدى المبكر فى فلسطين، إلا أنه اذا ما نظرنا إلى ذلك من منظور أوسع فى سياق الشرق الأدنى القديم، يمكننا اعتباره حاكما محليا فى دولة مدينة موسعة، أكثر من امبراطوراً على مستوى عالمى.

ويحدد تدمور أن مملكة سليمان كانت مكونة من مجملها من فلسطين الغربية وجزء كبير من شمال شرق الأردن، ولكنه يستثنى الجزء الأكبر من ساحل البحر المتوسط الذى كان تحت سيطرة البلستيين والفينيقيين، ويعلن، على الأقل بأن اسرائيل التى حكمها داود لم تكن الكيان الوحيد فى المنطقة، وإذ يعترف باحتمال وجود روايات أخرى بديلة للماضى، فإن سيطرة فلسطين (شعب البلست) والفينيقيين على الجزء الأكبر من ساحل البحر المتوسط تصبح شيئاً مؤكدا كما يؤكد كذلك على أن كنعان قدمت صفوة المفكرين والمتعلمين الذين سيّروا مملكة داورد، وأن المراكز السكنية الفلسطينية أنتجت أوانى فخارية راقية وأعمالاً فنية تدل على حرفية عالية، بينما الاسرائيليون وفقاً لرأى معظم المختصين التوارتيين. وعلماء الآثار، كانوا يعيشون فى مواقع ريفية صغيرة، وكانت ثقافتهم فقيرة وفجة ومادية، أى أن الفقر كان كامنا فى النظام والقيم الدينية التى فائقة الأهمية. يرى أن المملكة الإسرائيلية قد أفسدتها الحضارة الأصلية تماما، ويصبح الفرق هنا، هو بين اسرائيل الجوهرية واصطباغ المملكة الداودية بصبغة وثنية تنكرهذه الطبيعة الجوهرية.

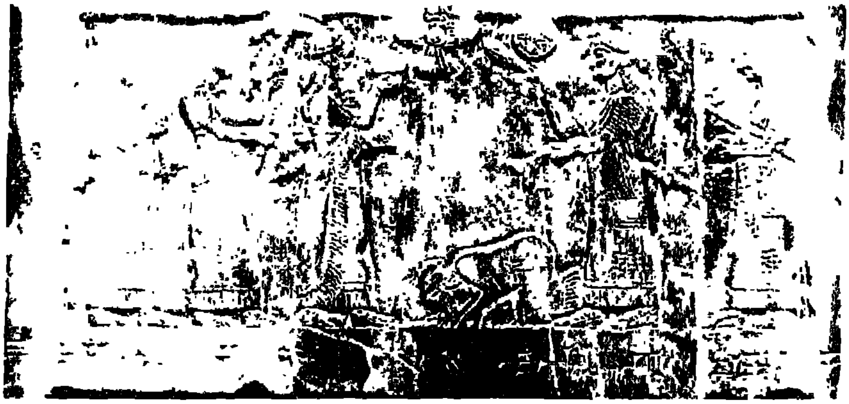
وأخيراً، فإن هذا الكتاب بجزئية (الأول والثانى) يقتصر على عرض لتاريخ العبرانيين وبنى اسرائيل فى التاريخ القديم، حتى الفترة المعروفة بخراب الهيكل الثانى فى ٧٠م، وهى الفترة التى تستند إليها الصهيونية فى دعاواها بحق الأرث فى أرض فلسطين. ومن هنا، لم أهتم بإضافة حقبة ما يسمى بالسبى البابلى والحقب الفارسية واليونانية والرومانية، لأنه لم يكن لليهود خلالها أى سلطة سياسية وكانوا خاضعين لثقافات هذه الحضارات كما خضعوا من قبل للحضارة المصرية والكنعانية.

وهذا الكتاب، بعد هذه المقدمة التوضيحية، التى لاشك فى أنها سوف ترشد القارىء كثيرا فى قراءته، هو بلاشك إضافة للمكتبة العربية، فى مجال دراسة تاريخ اسرائيل القديم، وهو مجال لايحظى بالاهتمام الكافى، وخاصة، وأن كثيرا مما يجرى اليوم فى نفس منطقة الأحداث القديمة، فى فلسطين وفى منطقة الشرق الأوسط (الشرق الأدنى القديم) يمكن قراءته واستخلاص العبر منه، بالرغم من تغير المشاهد والتحالفات والأشخاص، ولكن على ضوء عبرة التاريخ القديم الماثلة أمام أعيننا بالنسبة للمشهد المأساوى الذى نعيشه اليوم منذ قيام دولة إسرائيل الحديثة فى أرض فلسطين محاطة بدول الحضارات القديمة نفسها (مصر ـ العراق ـ سوريا ولبنان) من خلال حالة صراع دراماتيكى مع أهل البلاد الأصليين من الفلسطينيين ثقافيا وحضاريا حول الحق فى الأرض وفى الوجود!!

وختاما لايفوتنى أن أتوجه بالشكر لتلميذى النجيبين السيدة هالة زاهر المدرس المساعد بقسم اللغة العبرية وآدابها بكلية الآداب جامعة عين شمس والأستاذ محمد عبود المعيد بنفس القسم على معاونتهما الجادة لى فى إصدار ترجمة هذا الكتاب.

والله الموفق ، ، ،

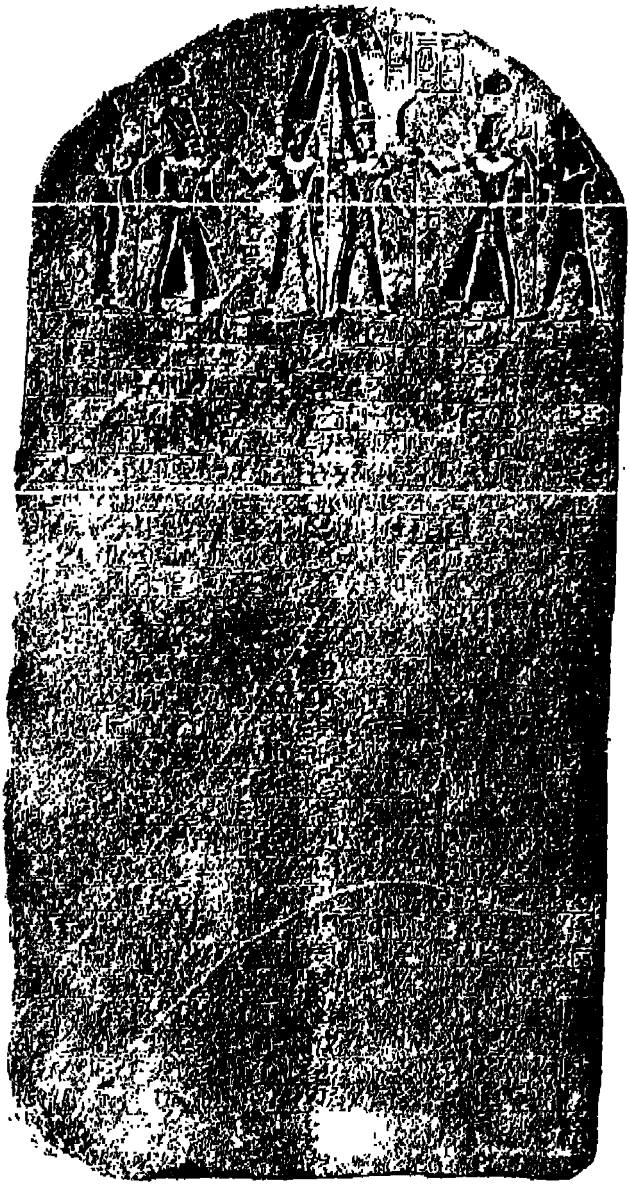
دكتور رشاد الشامى/ مصر الجديدة ٦/١٠/٢٠٠٠



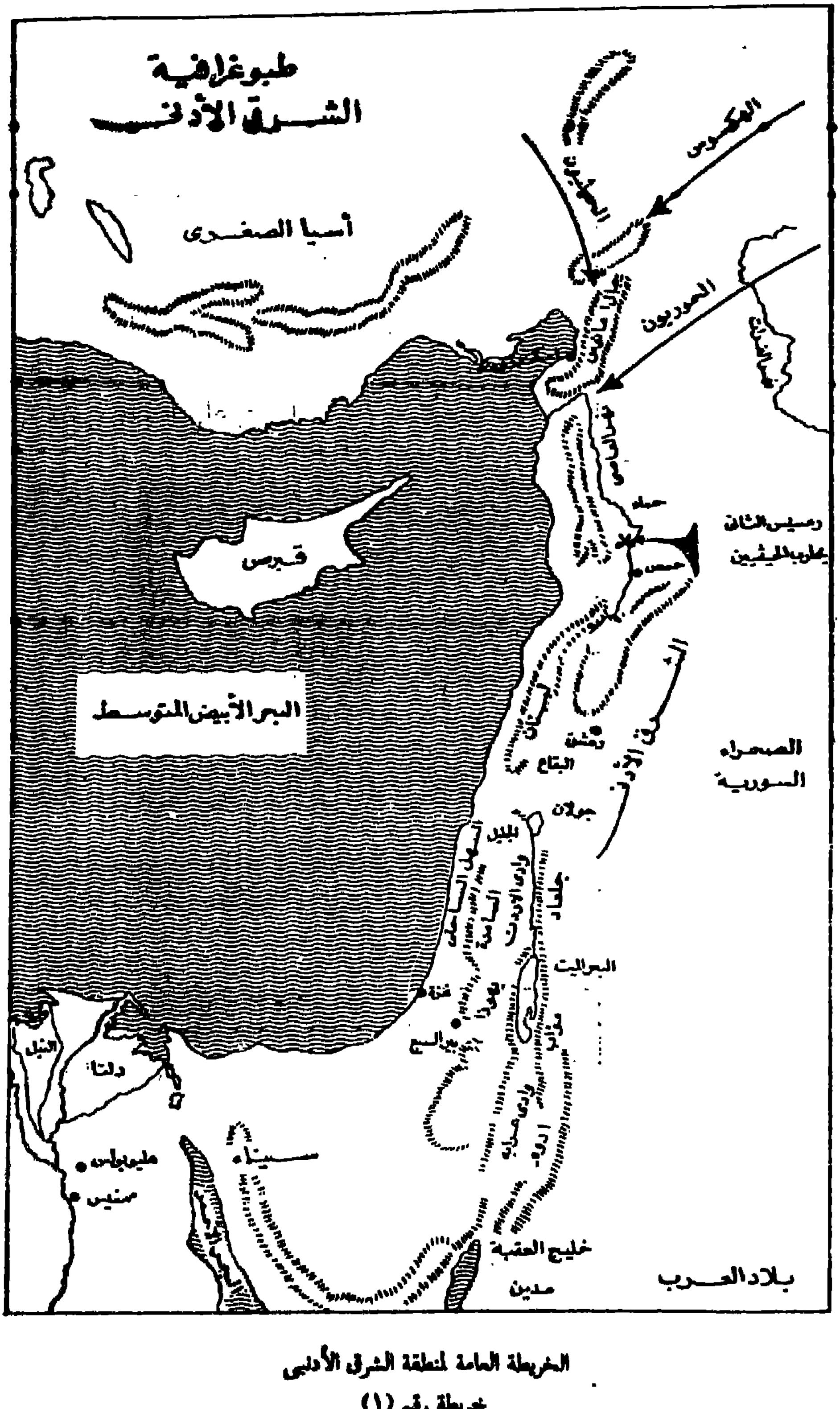
ياهو ملك إسرائيل يستسلم أمام شلمناصر الثالث ملك أشور، والكتابة على اللوحه بالخط المسمارى تقول «هدية ياهو بن عمرى»



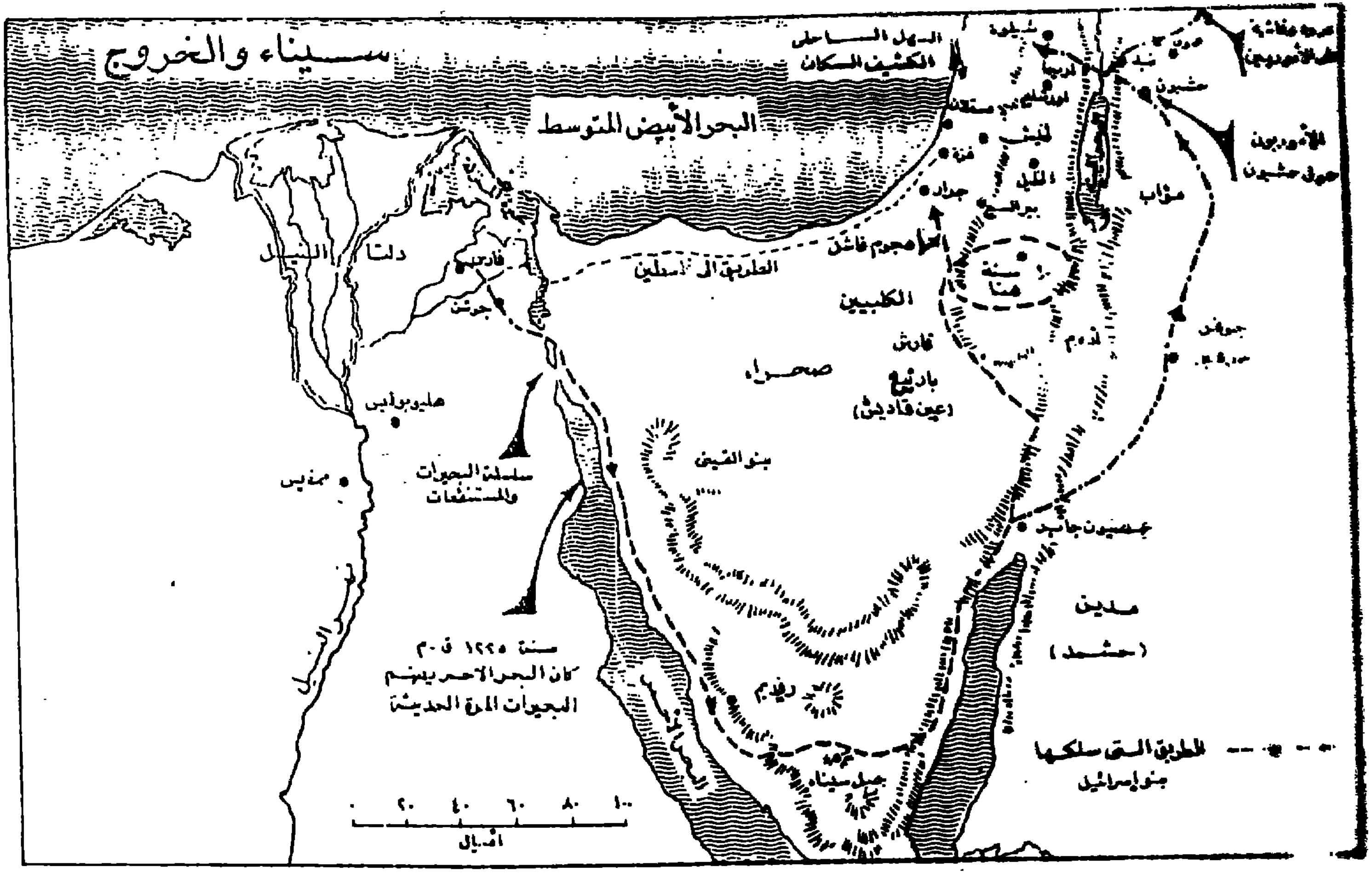
صورة لأسرى وأسماء مدن قام سيشنق فرعون مصر بأسرهم فى حملته العسكرية على فلسطين (معبد الكرنك)



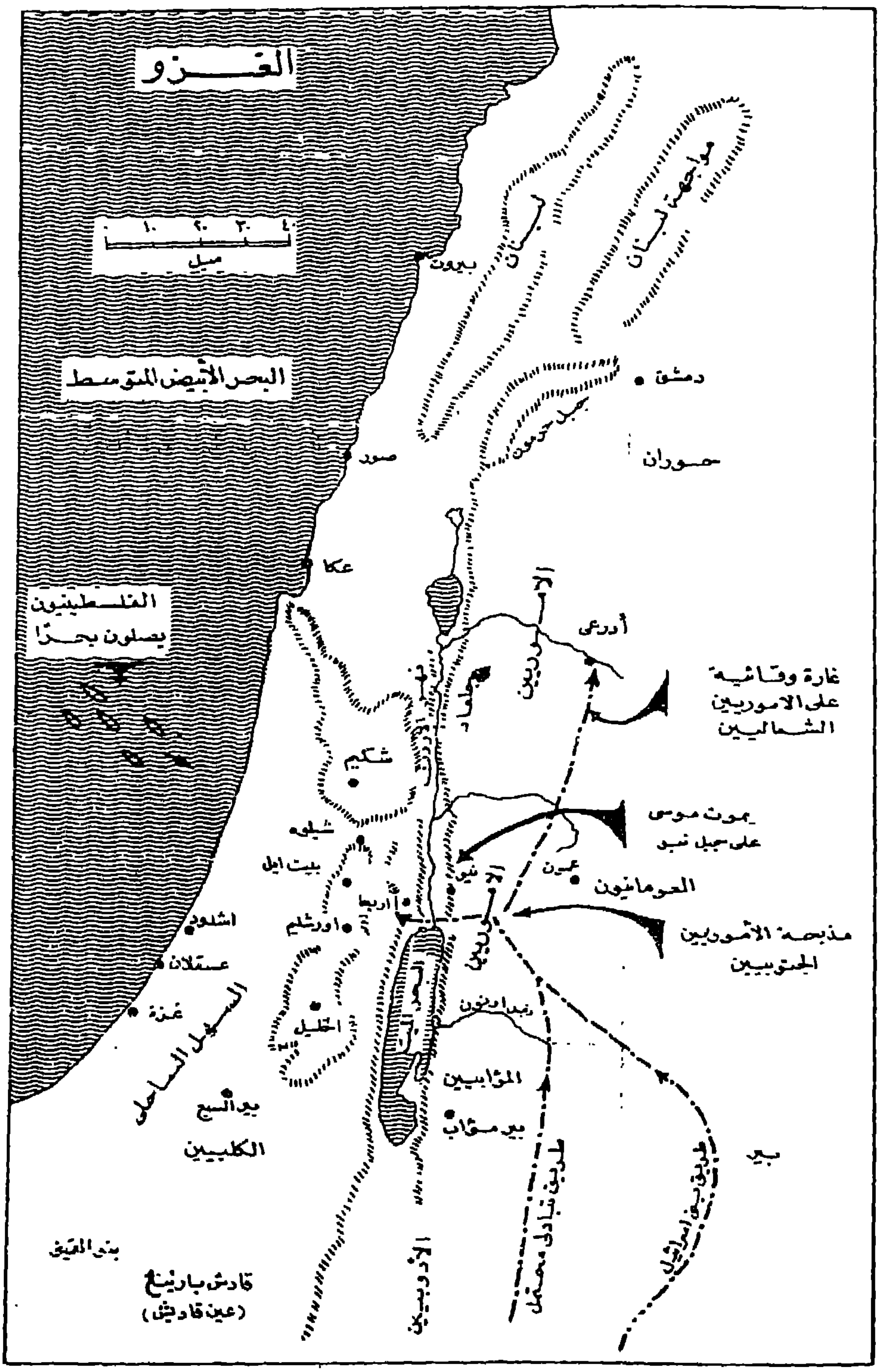
لوحة انتصار فرعون مصر مرنبتاح، تعود إلى عام ١٢٢٠ ق. م. تقريبا، وقد ورد عليها
لأول مرة الاشارة إلى اسم إسرائيل فى مصدر غير التوراة



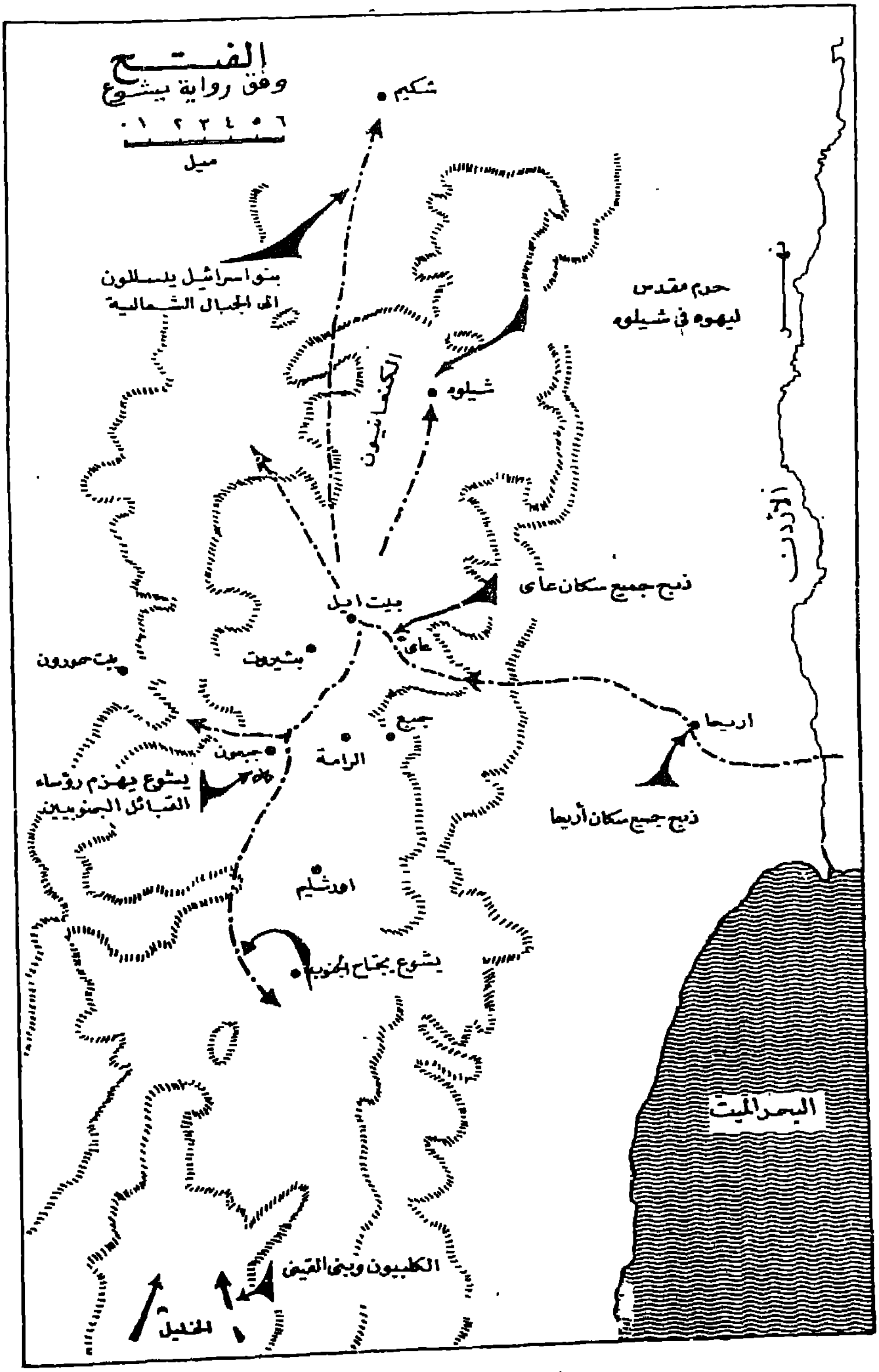
الخريطة العامة لمنطقة الشرق الأدنى
خريطة رقم (١)



خريطة رقم (٢٦١) اليهود واليهودية



خريطة رقم (٣) (اليهود واليهودية)



خريطة رقم (٤) (اليهود واليهودية)



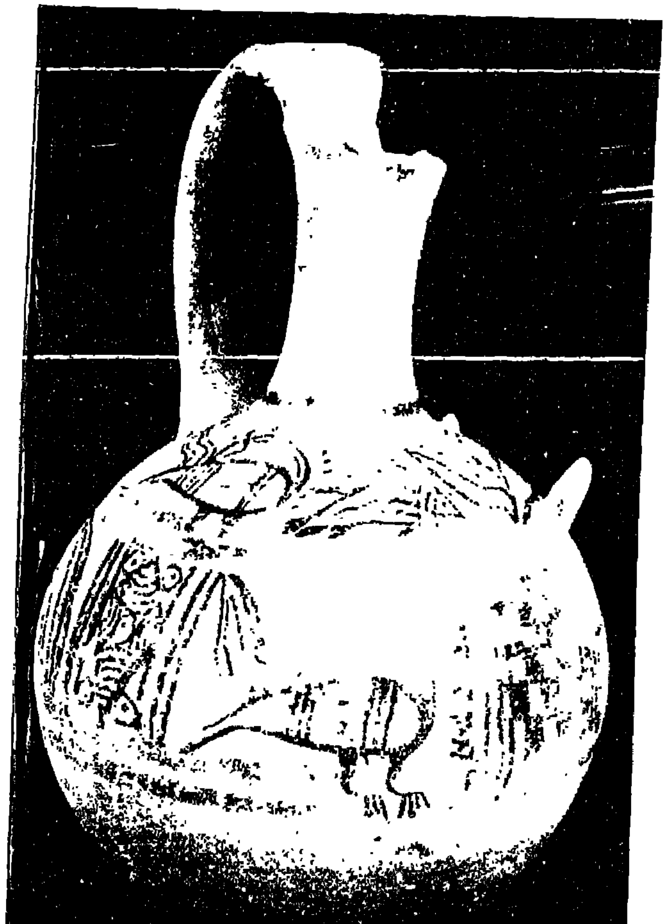
حصن كنعانى فى لوحة مصرية للفرعون سيتى الأول (١٣٠٠ ق.م)
بجوار حصن يسمى «مدينة كنعان» ويظهر فيه المحاربون الذين يسمون «الشوسيين»



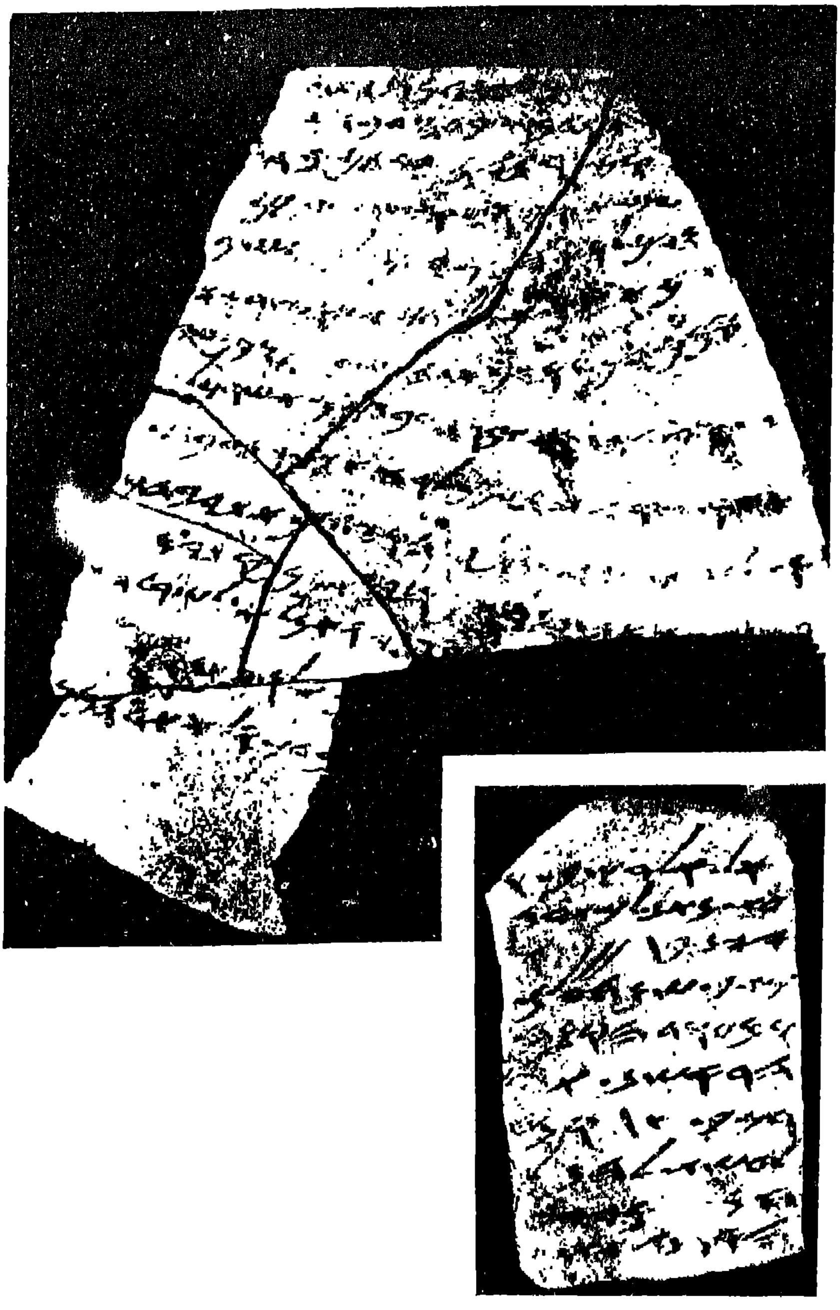
رسم حائط ملون من قصرماری ينتمی أسرة الملوك السامية الغربية يعود إلی القرن الثامن عشر ق.م. ويظهر فی الصورة شخص سامی غربی يقدم قربانا



تمثال مصرى من الطين يمثل حاكما خاضعا لمصر من القرن الثامن عشر ق .م. ويظهر
على التمثال أسماء لأكثر من ستين حاكم من أرض كنعان وأماكنهم



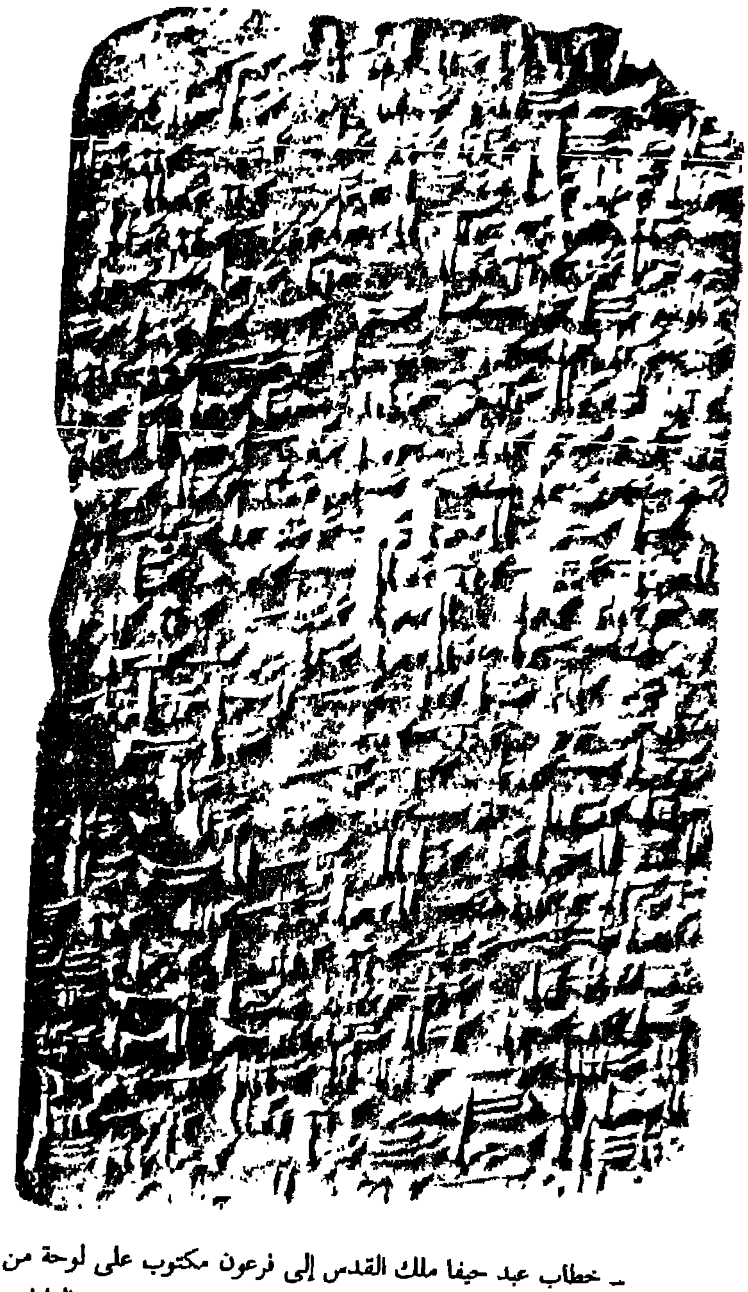
جرة فلسطينية من الفخار تم اكتشافها عام ١٩٦٨ فى قبر بجوار تل عيطون غرب مدينة الخليل تعود للقرن الثانى عشر ق.م. والجرة مزينة برسوم ملونة كانت تميز الفخار الفلسطينى



الصورة العلوية خطاب شكوى لأمير فى فترة ياشياهو عثر عليه شمال أشدود

الصورة السفلى ـ خطاب مرسل إلى إلياشيب أمير عاراد بشأن توزيع المواد الغذائية ـ

مكتوب بعربية تعود إلى نهاية فترة مملكة يهودا



ـ خطاب عبد حيفا ملك القدس إلى فرعون مكتوب على لوحة من الطين بالخط المسمارى باللغة الأكدية عثر عليه تل العمارنة فى مصر العليا



معبد كنعانى فى الجزء السفلى لمدينة حاصور تعود إلى العصر البرونزى المتأخر (القرن الحادى عشر ق .م)

أرض "فلسطين" بين بلدان الشرق القديم

تشكل المناطق التى شهدت تاريخ "بنى إسرائيل" فى حقبة "المقرا" قطاعًا ضيقًا من الأرض. يبلغ اتساعه ما يقارب ١٣٠كم على أقصى تقدير، داخل المنطقة الواقعة فيما بين ساحل البحر المتوسط غربًا، والصحراء العربية شرقًا.

وتقع هذه الأراضى عند الطرف الجنوبى الغربى لسلسلة من البلدان تنحنى سويًا فى صورة قوس أو هلال. بدءًا من الخليج العربى وحتى شبة جزيرة سيناء. وقد اشتهرت هذه المنطقة باسم "الهلال الخصيب"، وهو مصطلح يعبر، دون شك، عن التميز الطبيعى الجغرافى الذى يتميز به هذا القوس، بالمقارنة مع الصحراء العربية والمرتفعات الجبلية الجدباء التى تحيط بها. ويمتد جنوب غربى أرض فلسطين، "وادى النيل الخصيب"، إذ تفصل بينهما شبه جزيرة سيناء، أما فى الشمال فإن أرض فلسطين تعتبر أمتدادًا لسوريا. ويمثل كلاهما وحدة جغرافية واحدة - كما يمثلان وحدة تاريخية وإن كان بدرجة أقل - انبسطت من نهر الفرات، حتى نهير مصر (وادى العريش)، واشتهرت فى المصادر، اعتبارًا من القرن الثامن فصاعدًا باسم منطقة "عبر النهر".

وقد كانت أرض فلسطين، وعمليًا، كافة أراضى "عبر النهر"، بمثابة جسر وممر بين آسيا وأفريقيا، كما فتح لها البحر المتوسط من جهة الغرب والحدود الصحراوية من جهة الشرق نوافذ على منطقة بحر إيجة من ناحية، وعلى القبائل الرحالة فى فيافى العرب من ناحية أخرى. ويضاف إلى ذلك، أن أرض فلسطين تربض بين بحرين، بحيث استطاع خليج العقبة من جهة الجنوب الشرقى أن يمهد لها طريقًا نحو البحر الأحمر أيضًا، ومنه إلى المحيط الهندى والبلدان الواقعة على سواحلهما.

وقد تسبب هذا الموقع الجغرافى الواقع على مفترق طرق الأحداث فى العالم القديم، فى إحداث تحولات وتغييرات عاصفة فى مصير سكان هذه البقعة، وألقى بظلاله الكثيفة على كافة مناحى الحياة، الروحية والحضارية

والمادية، وعلى اقتصاد البلاد، وعلى تركيبتها السكانية، وأكثر من كل ذلك على طبيعتها السياسية والعسكرية؛ وهكذا فإن الموقع الجغرافى نفسه هو الذى بلّور حد كبير تاريخ هذه البلاد.

وعلى الصعيد الحضارى ظلت هذه البلاد مستباحة، في المقام الأول، للتأثيرات التى لا تنضب القادمة من المركزين الحضاريين الأكثر قدمًا فى الشرق، ألا وهما العراق القديم ومصر، اللتان نهضتا فى أواخر الألف الرابع ق. م. وباستثنائهما شقت الطريق إليها تيارات الحضارة الأناضولية، التى تسللت من الشمال فيما وراء سوريا، والحضارة الإيجائية، بمرحلتها (المنياوية) وخاصة (الميكانية)، التى أغارت من الناحية الغربية، وقد رافق هذا الالتقاء بين الحضارات الرئيسية فى تلك العصور، أكثر من مرة، صدامات حادة بينها وبين أنفسها، حيث جرى فى المقام الأول بينهن وبين الثقافات المحلية، وفى مقدمتها الثقافة الكنعانية، وفى بعض الأحيان حدث نوع من التمازج. وقد ساعد كل هذا على التطور الديناميكى لعملية الإبداع الروحى والمادى فوق أرض فلسطين، حتى أن التحولات والاستحداثات أصبحت من سمات واقعها، ولم تقف بتاتًا ثابتة فى مكانها.

لقد كانت أرض فلسطين وسوريا محطتا انتقال والتقاء ومفترق طرق رئيسى، يرتكز على شكبة متشعبة من الطرق المتصالبة طولاً وعرضًا، لتخدم التجارة الدولية. فمن ناحية اجتازتها طرق التجارة على طول عروق المواصلات الدولية بين وادى النيل وبين منطقة الفرات وآسيا الصغرى، ومن ناحية أخرى - طرق القوافل الممتدة من المناطق العربية وحتى أرض سبأ والطرق البحرية التى تقود إلى المدن الساحلية المزدهرة، خاصة الساحل الفينقى. بيد أن سوريا وأرض فلسطين اكتسبتا أهميتهما الاقتصادية ليس لكونهما محطات انتقال، وهو الأمر الذى استغله سكانها أحسن استغلال، ولكن أيضًا بفضل بعض الكنوز الطبيعية التى حباهما الله بها. ويقف فى مقدمة هذه الكنوز الغابات، وخاصة، أرز لبنان، وسائر الأشجار المليحة، التى احتاجها حكام ما بين

النهرين ومصر كثيراً، حيث أن بلدانهم افتقدت لهذا العنصر الحيوى، وكان استيراده يزيد من فخامة ما يقومون به. ويضاف إلى ذلك أن منطقة كنعان تميزت بأنها أرض الأنواع السبعة (تث ٨ ـ ٨) ويتجلى هذا التفوق سواء فى التوصيفات المصرية القديمة، (لفيفة سنحات من القرن الـ ٢٠ ق. م) أوفى تفاصيل البضائع المصدرة إلى مصر وإلى بلاد ما بين النهرين، مثل شهادة وثائق مارى.

الظروف الجغرافية - السياسية:

ظلت أرض فلسطين وسوريا تمثلان على الدوام، تحديًا أمام حكام الدول العظمى فى الشرق القديم، حيث أن السيطرة عليهما تؤمن تفوقًا اقتصاديًا وسياسيًا لا يضارع. ومن ثم فقد تمركزا لفترات طويلة فى لب الصراع المستديم بين شعوب مختلفة سعت لتدميرها، وحتى الآن فإن الفترات التى ذاقت خلالها طعم الهدوء والاستقلال، هى فترات قليلة نسبيًا، وكانت منطقة «عبر النهر» موضع نزاع دائم بين مصر والدول العظمى بالشمال حيث تبادلا المواقع فيها بشكل مطرد على مر العصور. وقد كانت عملية السيطرة على هذه المنطقة مسألة جوهرية بالنسبة لهذه الممالك، إذا كانت تريد أن تحظى بمكانة دولة عظمى، وإمبراطورية فعلية، إذ أنها بدون هذه المناطق تهبط إلى مستوى قوى سياسية إقليمية فحسب، سواء فى أفريقيا، أو فى بلاد ما بين النهرين. أو فى آسيا الصغرى. وفى هذه الفترة اكتسبت أرض فلسطين أهمية استراتيجية بوصفها رأس جسر، وكان احتلاها من قبَل أحد الأطراف شرطًا مسبقًا للهجوم على الطرف الآخر. ولا غراية إذن، فى أن أرض فلسطين مثّلت ميدانًا دوليًا للقتال أكثر من أى بقعة أخرى فى البلدان القديمة. كذلك هَبَّ من الشرق والغرب أعداء قساة أرادوا أن يخربوا أرض فلسطين وهم قبائل الصحراء من ناحية، وشعوب البحر من ناحية أخر ى؛ بيد أن هؤلاء لم يرتقوا أبدًا لقوة وبأس القوى الأعظم التى أحدقت بأرض فلسطين من الشمال والجنوب.

وقد كانت أرض فلسطين وسوريا من الناحية الجغرافية السياسية، واقعتان في قبضة القوى السياسية الإمبريالية شمالاً وجنوباً، التي تطلعت للسيطرة على طرقهما. أما على صعيد الوحدة والاستقرار ودرجة التدخل الطبيعي والديموغرافي في تركيبة سكان البلاد، فقد كان هناك اختلاف ملحوظ بين الدول العظمى جنوباً وشمالاً. ففي جنوب أرض فلسطين تربعت طوال عصر «المقرا» (كتاب العهد القديم) دولة واحدة وشعب واحد، هي مصر. صحيح أنه تبدلت فيها مراراً الأسر الفرعونية الحاكمة - وصدرت عنها عمليات عدوانية، سواء من الأسرات السابقة أو اللاحقة - التي فرضت نفوذها على أرض فلسطين، وعلى بقاع واسعة من سوريا. ومن ضمن هذه الأسر، الأسرة ١٢، والأسرة ١٨، والأسرة ١٩، والأسرة ٢٠ في الألف الثاني. ويضاف إلى ذلك، استئناف محاولات الاحتلال في عهد الأسرة ٢٢ و٢٥ في الألف الأول ق.م. لكن على مدار عمليات الغزو هذه لم تحدث أبداً محاولات لزرع تركيبة سكانية مصرية داخل نطاق أرض فلسطين. وفي مقابل الوحدة النسبية التي ميزت التركيبة الإثنية والسياسية لجنوب أرض فلسطين، كان الشمال عبارة عن فسيفساء من الشعوب والدول، الذين دلفوا إلى ساحة التاريخ جنباً إلي جنب، والواحد تلو الآخر، وعلى النقيض من الجنوب. فقد أغارت من هنا دائماً وأبداً جموع غفيرة من السكان نحو حدود سوريا وأرض فلسطين، وغيرت من صبغة هذه البلاد وطابعها. ويمكننا أن نقف من خلال المكتشفات الأثرية، التي اكتشفت في أرض فلسطين، على التدفق البشري من الشمال في فجر التاريخ، في أواخر القرن الألف ق. م. وفي مطلع الألف الثالث ق. م. (ربما الكنعانيون) ومرة ثالثة في القرن الـ٢٤ ق. م. (حضارة "أواني بيت بيرح"). أما بخصوص الغارات الهابطة من الشمال في الألف الثاني ق. م، فتدلل على ذلك المصادر التاريخية أيضاً. ففي مطلع هذه الألفية تدفقت على البلاد موجات الأسباط السامية الغربية (المعروفون في الدراسات باسم الأموريون)، وفي أعقابهم جاءت عناصر حورية وهندوأوروبية، وفي نهاية الأمر، استوطنت القبائل

الأرامية منطقة سوريا وشمال عبر الأردن، وبدرجة أقل فى أرض فلسطين، هذا بالإضافة إلى عناصر بشرية من الأناضول. والملاحظ أن كل مملكة اشتد ساعدها في الشمال سعت بشدة لاحتلال مناطق في سوريا ولتعميق نفوذها، لكن لم تصل أى منها إلى نطاق أرض فلسطين، وذلك حتى قبيل الألف الأول ق. م. وفى الألف الأول فحسب تمكنت الإمبراطورية الأشورية، والبابلية والفارسية من احتلال البلاد احتلالاً متواصلاً لتغلق الباب فى وجه عودة الحكم المصرى مرة أخرى.

والتاريخ العسكرى لسوريا وفلسطين، هو من ناحية، سلسلة مستديمة من حملات الغزو وعمليات القمع التى قامت بها الدول العظمى ضد مواطنى المنطقة، ومن ناحية أخرى، عملية صدام متكرر فيما بينهم من أجل حماية مكانتها. ومن المؤكد أن الصراعات العسكرية الدولية و«الحرب الباردة» التى دارت بين الدول العظمى أضفت على أرض فلسطين جواً من انعدام الأمان السياسى والاقتصادى، أما حملات السلب والقمع التى تكررت فقد اغترفت من كنوز المنطقة وقواها. كما أفرز الصدام الدولى بين الغزاة، وصراعاتهم من أجل فرض النفوذ على البلاد المحتلة، صدامات حادة بين القوى السياسة المحلية فى سوريا وأرض فلسطين، التى كانت الصراعات فيها على أشدها حتى بدون ذلك.

ولعل هذه الصورة تبرز بوضوح أكبر فى النصف الثانى من الألف الثانى ق. م. فى غضون الصراع الحاد بين مملكة الميتانيين، ومملكة الحيثيين التى خلفتها، حيث كانت منطقة عبر النهر منقسمة إلى عشرات الممالك الصغيرة. ولكن فى الربع الثانى من الألف الأول ق. م أيضاً اندلعت مصادمات حادة، ولكن هذه المرة بين جماعات بنى إسرائيل أنفسهم. فيما يتعلق بمسألة التوجهات الشمالية والجنوبية، على خلفية الصراع بين آشور ووريثتها بابل، من ناحية، وبين مصر.

وتعتبر أقوال النبي الموجهة إلى يهودا بمثابة استنكار لهذا الموقف «والآن مالك وطريق مصر لشرب مياه شيحور ومالك وطريق آشور لشرب مياه النهر» (إرميا ٢: ١٨). خلاصة القول أن أرض فلسطين انجرفت بشدة، أكثر من سائر بلدان الشرق الأدنى، إلى لب صراع الإثنيات التى درات رحاه بين الدول العظمى، وسقط سكانها ضحايا الدسائس السياسة الدولية أكثر من مرة.

لقد حالت الظروف الجغرفية - السياسية إذن وبوجه عام، دون الدول العظمى وسكان البلاد، وكما خلقت التبيعية لأحدى الدول العظمى، خلقت أيضًا الانقسامات السياسية الداخلية وجعلت منها طبيعة ثانية. وكان الأمر يتطلب لحظة مؤاتية سياسيًا على ندرتها - مثل أفول نجم الدولتان الأعظم فى الشمال والجنوب، على السواء - وقدرًا كبيرًا من الاستعداد والشعور بغاية قومية فى أوساط سكان المنطقة، حتى يتحرروا من أغلال التبعية ولينشئوا قوة سياسية مستقلة.

وقد تصادف مرور هذه اللحظة التاريخية المصيرية فى الربع الأخير من الألف الثانى ق. م، عندما انهارت مملكة الحيثيين من ناحية، وتعثرت القوى المصرية من ناحية. أما آشور فلم تكن قد بلغت بعد مكانة العنصر ذو الثقل الكبير فى الغرب. حينئذٍ تهيأت الظروف لتحرر واستقواء الشعوب المقيمة فى سوريا وأرض فلسطين، وصعود وترسيخ عناصر قومية جديدة، فى مقدمتها أسباط بنى إسرائيل فى الجنوب والقبائل الأرامية فى الشمال، وعندئذ بدأ الصراع الداخلى بين شعوب المنطقة من أجل إحكام السيطرة على أرض فلسطين، حيث لعب بنوا إسرائيل هذه المرة دورًا هامًا، وخرجوا فى نهاية الأمر، منتصرين وقادوا تحولاً فى تاريخ البلاد، حظى، للمرة الأولى، بحكم مستقل شامل «من دان حتى بئر سبع» (وفق الرواية القرائية).

ولم يكن هذا الإنجاز القومى أمرًا ذو بال إزاء الحقيقة التى تفيد بأن طبيعة الأرض كانت عصية على إقامة قوة سياسية موحدة تحتضن كافة

أراضي فلسطين، حين أن البلاد التي تفردت بهيكل مورفولوجي (ما هو متصل بهيكل الأجناس) ممزق، وبسمات طبيعية متباينة ومتعارضة بشكل لا مثيل له. وتتوالى الاختلافات في السمات والتغييرات الطبيعية، على عيني الناظر، خاصة في قطاع مستعرض من البلاد من الشرق إلى الغرب، وعلى طول البلاد تنبسط في شكل شريط متعاقب: السهول الساحلية، السلاسل الجبلية، غور الأردن، وجنوبيهم تنبسط بقاع النقب والعرابا، ومرتفعات عبر الأردن الشرقي وحتى تصل إلى الصحراء، وتسيطر على غالبية بقاع أرض فلسطين الغربية الجبال ومنحدراتها، المشطورة بوديان متسعة وسهول وفيرة، حتى أن أرض فلسطين لاحت في عيون القدماء على أنها أرض جبال وسهول. (التثنية ١١ ـ ١٢).

وقد أفرز التقسيم الطبيعي - الجغرافي المدعوم بتحولات وتغييرات مناخية ملحوظة، وخاصة فيما يتعلق بكميات المياه الجوفية، مجموعة من الظروف البيئية الفريدة التي تميز كل منطقة عن مثيلاتها. وشكلت هذه الظروف إلى حد كبير طبيعة الاستيطان من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية.

وعدم التوازن على هذ الأصعدة، المنعكس من خلال تطور الأساليب المعيشية في قطاعات أرض فلسطين المتباينة، هو في المقام الأول ثمرة طابع بنيتهم المورفولوجية الفريدة: من ضعف وفقر في البقاع الجبلية المشجرة و مناطق الحدود الصحراوية التي نهض اقتصادها في الأساس على حرفة الرعي، وفي المقابل ازدهار اقتصادي وتقدم حضاري في الوديان والسهول الخصبية الصالحة للزراعة الكثيفة ولقيام تجمعات سكانية مزدحمة. وفي مقابل ذلك كان هناك القطاع الجبلي المنغلق بطبيعته، وهو بمثابة أرض خصبة أكثر من سائر المناطق الأخرى لمسيرة نمو مستقلة لبني إسرائيل والقيم الروحية والدينية.

أما حوض البحر المتوسط فقد لعب دوراً هامشياً في تاريخ أرض فلسطين، حيث أنها تفتقر بصورة تامة تقريباً لساحل متعرج مثل (دبع). وأماكن طبيعية صالحة لإقامة موانئ جيدة. على النقيض من الساحل الفينيقى في الشمال.

ويبدو أثر هذا الانقسام الطبيعي إلى مناطق صغيرة نسبياً، أمراً ملحوظاً جداً من خلال الفرقة السياسية والإقليمية البالغة، ومن خلال التنوع الإثنى الذى ميز أرض كنعان بطابعه قبل ظهور بني إسرائيل. وتبدو مسألة عدم التجانس بين سكان هذه البقاع واضحة من خلال ما ورد في المصادر المصرية، خاصة اعتباراً من النصف الثانى من الألف الثاني ق. م، وكذلك من خلال كتابات كثيرة تعود لحقبة "المقرا"؛ ومن ذلك على سبيل المثال ما تذكره المقرا كثيراً وتؤكد عليه بشأن شعوب كنعان السبعة، وقد أحصتهم ذات مرة بعشرة شعوب (تكوين: ١٩ ـ ٢١). وفى جواب الجواسيس على موسى، يطلعنا النص على تخطيط هيكلى للخارطة الإثنية – الجغرافية للبلاد: «العمالقة ساكنون فى أرض الجنوب، والحيثيون واليبوسيون والأموريون ساكنون فى الجبل والكنعانيون ساكنون عند البحر وعلى جانب الأردن» (عدد ١٣: ٢٩).

أما من ناحية الفرقة السياسية المتفاقمة، فتبرز فى هذا السياق قائمة الإحدى وثلاثون ملكاً كنعانياً الذين منيوا بهزيمة على يد يشوع (يشوع: ١٢)، أما رسائل تل العمارنة اعتباراً من القرن ١٤ ق. م فإنها تضيف إلى هذه الممالك أضعافاً مضاعفة.

أرض كنعان قبل غزوات بنى إسرائيل وأثنائها

أنماط الحياة السياسية والثقافية فى منتصف الألف الثانى ق. م:

فى مقابل معلوماتنا الفقيرة والمتقطعة للغاية، عن أرض كنعان فيما قبل منتصف الألف الثانى ق. م، أصبحت بحوزتنا، اعتباراً من هذا التاريخ فصاعداً، لوحة شبه متعاقبة عن تاريخ هذه المنطقة وثقافاتها. وتتسم هذه اللوحة أيضاً بأهمية هائلة عندما يتعلق الأمر بتاريخ «بنى إسرائيل» حيث أنها تقوم بسرد الرقعة العامة التى جرت على صفحاتها أحداث التاريخ «الإسرائيلى» القديم، وأثرت بشكل مباشر، فى أحيان أخرى، على مجريات هذا التاريخ.

لقد طرأت، قرابة منتصف الألف الثانى، طائفة من التحولات الإثنية والثقافية والسياسية. داخل بلدان العالم القديم، ونالت هذه التحولات من أرض فلسطين أيضاً، فمنذ تأسيس الدولة الحديثة فى مصر خلال القرن الـ ١٩ق.م، ظلت مصر وحتى منتصف القرن الـ ١٢ق.م. (عهد الأسرات الملكية الـ ١٨ وحتى الـ ٢٠) العنصر الحاسم فى أرض كنعان، وعلى صعيد آخر تزايدت الضغوط على أرض كنعان من قبل مملكة الميتانيين التى تأسست بشمال البلاد ما بين النهرين، وبلغت ذروة مجدها فى القرن الخامس عشر ق.م.، ومن بعدها مملكة الحيثيين التى ورثت مكانة الميتانيين فى سوريا، اعتباراً من الربع الثانى من القرن الـ١٤ ق. م وحتى انهيارها قرابة عام ١٢٠٠ق. م. وقد أفضى تفوض أركان الإمبراطورية الحيثية من جهة، وأفول نجم مصر من جهة أخرى، إلى هجوم شعوب البحر على أرض كنعان، يتقدمهم البلستيون، وفى النهاية أتاح ذلك للآشوريين حوالى عام ١١٠٠ ق. م أن يحققوا حلمهم القديم بالتسلل نحو البحر المتوسط، وبسط نفوذهم على الساحل الفينيقى ردحاً من الزمان.

وقبيل منتصف الألف الثانى ق. م تزايد المد السكانى الحورى والهندوإيرانى المتسلل من مملكة الميتانيين الواقعة شمالى أرض كنعان،

المنقسمة بدورها إلى دويلات صغيرة متكاثرة. وقد كانت هذه الفرقة ثمرة توارث الحكم منذ الأجيال الغابرة. وعلى الرغم من قلة أعداد الأجانب بالمقارنة مع السكان الكنعانيين القدماء، فقد أفلح هؤلاء الأغراب فى الإمساك بدفة الحكم فى عواصم ملكية كثيرة، وذلك بفضل تفوقهم التكنولوجي والعسكرى، الذى استند فى المقام الأول إلى القتال بجيش محمول على العجلات الحربية. وقد امتزجت هذه النخبة غير السامية بالاستيطان الكنعانى الأصلى، بحيث تربعت اللغة والديانة الكنعانية على قمة الهرم الروحى. أما فى إطار الحضارة المادية وأنماط المعيشة فقد تعاظم نفوذ السكان الأغراب وتأثيرهم.

وتوجد وثائق متقطعة عن التسلسل التاريخى فى كنعان خلال الفترة المطروحة على بساط البحث، وقد اكتشف عدد قليل منها فى أرض كنعان نفسها، والحقيقة أن هذه البقعة كان مهداً لواحد من الإنجازات الحضارية المحورية فى تاريخ الجنس البشرى، وهو بكل تأكيد إختراع الأبجدية، بيد أن هذا الخط، وهو الخط الفينيقى العبرى القديم، تبلور بشكله المتكامل مع أواخر الألف الثانى ق. م، أما ما اكتشف فى فترات سابقة على ذلك فهو مجرد بقايا محدود لكتابات أبجدية مربعة الشكل (تعرف بالبروتوكنعانية)، فى بقاع مثل: نابلس، وجازر ولاخيش، ومن جراء طبيعة هذه الكتابات لم ترصد قيمتها التاريخية الحقة. وتأسيساً على ما سبق لابد من الاستعانة بوثائق بالخط المسمارى وبالخط الهيروغليفى، تعد بدورها كتابات نادرة للغاية في أرض كنعان. ومن المحتمل أن السبب الرئيسى لكل ذلك يكمن فى الحقيقة القائلة، أن هذه المنطقة وقعت تحت تأثير المصريين فيما يتعلق بأساليب الكتابة واستخدام ورق البردى (فيما عدا المجال السياسى والدبلوماسى) الذى لا يقاوم الظروف المناخية فى أرض فلسطين. أما سوريا فقد انتسبت للدوائر الحضارية الشمالية، التى اعتمدت الكتابة المسمارية، حتى فيما يتعلق باحتياجات الحياة اليومية. وقد اكتشفت أرشيفات ثرية فى «اللاخ» تضرب بجذورها حتى القرن الـ ١٧ق.م. والـ ١٥ق.م.، وفى أوجاريت على وجه الخصوص اعتباراً من القرنين

الـ ١٤ والـ ١٣ ق. م. وهذه الأرشيفات هي التي تتيح لنا أن نبحر بعيداً في دراسة منظومات الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وكذلك الحياة الروحية والدينية للمدينة الملكية السورية، والتي يسود شبه يقين أنها كانت تتماثل مع سمات عاصمة المملكة الكنعانية، كما تأثرت بها وبقدر ملحوظ نظم المدينة الملكية عند بني إسرائيل.

وقد اتضح أن زعامة المدينة الملكية كانت عادة، في يد حاكم ذو بأس شديد داخلياً، وإلى جواره طبقة «المارينو» من أصحاب النفوذ، وهم طبقة النبلاء ذوي الأصول الهندوإيرانية، التي اشتملت في الأساس على أصحاب العجلات الحربية، التي كانت تمثل العهود الفقري للجيش وإدارة المملكة. أما الطبقة الوسطى، التي كانت هي الأخرى صاحبة أملاك ثابتة، فقد ضمت: فلاحين، وأصحاب حرف وتجار يتمتع بعضهم بالاستقلالية، ويعمل بعضهم في إطار اقتصاديات المملكة، وقد أخذت طبقة ذوي النفوذ تفقد مكانتها على مر العصور، لصالح الطبقات الوسطى التي أرتقت السلم الاجتماعي، عبر الاحتياجات الخاصة للمؤسسة المالكة، أما أكثر الطبقات تدنياً، والتي كانت لا تزال تعتبر قطاعاً سكانياً حراً، فلم يكن بحوزتها أراضي وممتلكات، وكانوا يجلبون من أوساطهم العبيد وعمال السخرة، للعمل في المزارع الملكية وفي ضياع الأشراف، وقد عثر على قوائم تفصيلية عن أصحاب حرف من بينهم: جنود محترفين، وعمال بناء، وصناع، ونحاتين، ودباغي جلود، وصناع خزف، وخياطين، وجباسين، وصيادلة، وحطابين، وسقائين، وغيرهم كثير، كانوا منتظمين فيما يشبه نقابات مهنية، بحيث تنتقل الخبرات المهنية بالوراثة داخل الأسرة الواحدة، وقد احتل التنظيم الكهنوتي موقعاً متميزاً، وكذلك سائر الوظائف الدينية المختلفة، التي كان أصحابها خاضعين للملك.

وتطلعنا الشهادات الأدبية الأوجاريتية، التي أُلفت بلهجة قريبة من اللغة الكنعانية وبخط مسماري ألفبائي خاص، وللمرة الأولى، على الدين والأسطورة، والملاحم والأشعار، التي كانت رائجة في المناطق الكنعانية ـ السورية، والتي

وردت إشارات عنها فحسب في المقرا وفي مصادر أخرى متأخرة. وبناءً عليها فقد اعتلى قمة هرم الآلهة الكنعانية الإله "إيل" (اسم علم) وزوجته "أشيرا" (عشتاروت) إلى جوار شخصيات محورية أخرى في عالم الآلهة من أحفادها مثل بعل، إله العواصف والخصوبة، وأخيه وخصمه "موت" إله الفناء والدمار (قارن إرميا ٩: ٢٠، حبقوق ٢: ٥) وأختهم الإلهة "عنات" التي اشتهرت بالجمال وروح الشجاعة، وبجانبهم لعب الإله "كوثير" دوراً محورياً (من الأصل "كاشير" بالكنعانية ـ العبرية، وقارن مزامير ٦٨: ٧) الذي لم يكن معروفًا حتى ذلك العهد، وهو نصير الملائكة ويقابل الإله اليوناني "فايستوس"، ولا شك في أن النص الأدبي الأوجاريتي الثري، الذي يقف في بؤرته بعل وموت وعنات، يعد نصاً عظيم الأهمية، فيما يتعلق بإيضاح ماهية وجوهر الشعر المقرائي والبلاغة العبرية القديمة.

وعلى الرغم من كل ذلك، فإن معلوماتنا بشأ القضايا الاجتماعية والحياة الروحية في كنعان هي معلومات ضئيلة، وفي مقابل فقر المعلومات بهذا الخصوص وضآلة حجم الاكتشافات الإبيجرافية في فلسطين، فقد أميط اللثام عن مادة ثرية حول الحضارة المادية، بفضل النشاط الأركيولوجي الثري، الذي طرأ على البلاد في النصف الثاني من القرن العشرين. فحوالي منتصف الألف الثاني ق. م تدشنت مرحلة جديدة وهامة في حضارة البلاد، إنها العصر البرونزي المتأخر (١٥٥٠ ـ ١٢٠٠ق. م)، التي تنقسم إلى فترة قديمة وفترة متأخرة. وقد أميط اللثام عن حضارة العصر البرونزي المتأخر بكل أبهتها في أماكن مثل: "حاصور"، "مجيدو"، "تعنك"، "بيت شان" شمالي البلاد، و"نابلس"، "ترصة"، "بيت إيل" بالقطاع الجبلي الأوسط و"جازر"، "بيت شيمش"، "لاخيش"، و"تل بيت مرسم" (هناك من يظن أنها كريات سيفر، في البقاع والقطاع الجبلي الجنوبي، وفي "يافا" و"أشدود" على ساحل البحر، وهنا لم نحصِ سوى الحفريات الرئيسية التي تمت في الأونة الأخيرة في عبر الأردن الشرقي، وفي "تل دير علا" (ربما سوكوت) وتل السعيدية (مدينة "صافون" أو "صرتان") على حافة نهر الأردن.

ويتضح من خلال الشواهد الأثرية ووثائق النقوش المصرية التى تصف المدن الكنعانية، أنه فى واجهة المدينة كانت تلوح القلعة الداخلية، المقامة عند المرتفع، وتضم قصر الملك، وعادة ما تضم المعبد المقدس أيضاً، وكانت المدينة تحاط بأسوار منيعة، وتكرس أهمية قصوى لتحصين الأبواب وهى الإجراءات التى فرضتها الأوضاع الأمنية الحرجة التى عانت منها المدن الكنعانية. وتطلعنا الاكتشافات الأثرية الوفيرة أيضاً على التنوع الحرفى والمهنى الذى امتهنه السكان الكنعانيون، وتدلل عليه أعمال فنية فائقة مثل إنتاج العاج الذى أميط عنه اللثام فى مجيدو وأيضاً حركة تجارية رائجة مع بلدان خارجية، وكذلك مع مدن بحر إيجة، الأمر الذى تؤكده أدوات الاستيراد الميكانية، التى ازدهرت فى تلك الفترة. وقد كانت صناعتا النسيج والصباغة تمثلان المهن الرئيسية التى تفردت بها مدن الساحل الفينيقى. وهناك اعتقاد بأن هذا هو سر الاسم "كنعان" الذى يدل فى الأساس على اللون الأرجوانى (وربما نفس الأمر فيما يتعلق بالاسم اليونانى فينيقيًا) ثم أمسى يدل على التجار الذين امتهنوا هذه الصناعة بالذات (قارن "الكنعانى" فى سفر الأمثال ٣١: ٢٤.. إلخ).

وعلى الرغم من الأهمية الهائلة للمادة الأثرية والإبيجرافية المذكورة أعلاه، فإنها لا تَقْدِر أن تمدنا بلوحة تاريخية متعاقبة لتسلسل الأحداث فى أرض كنعان، ويمكننا أن نسد هذا الفراغ بقدر كبير من المصادر المصرية المتنوعة، وخاصة من التقارير عن رحلات ملوك مصر لكنعان، وبدرجة أقل من الوثائق المكتشفة في الأرشيف الحيثى الأميرى فى "حاتوشا".

حملات تحوتمس الثالث وإقامة الولاية المصرية فى كنعان:

فى أعقاب تصفية حكم الهكسوس فى مصر شن فراعنة الأسرة الـ ١٨ الأوائل حملات موسعة على آسيا، حتى يتلاشوا المخاطر التى تحدق بمصر من جراء قواعد الهكسوس التى كانت ما زالت ناهضة فى هذه البقاع، وحتى يستعيدوا سلطانهم على أرض فلسطين وسوريا، التى كانت تحت سيطرتهم فى

عهد الدولة الوسطى (وبخاصة الأسرة ١٢ فى القرنين الـ ٢٠ والـ ١٩ق.م). وقد أرسل أحمس الأول (١٥٧ - ١٥٤٥ ق. م) - مؤسس الأسرة الـ ١٨ - الجيش بعد احتلال صوعن عاصمة الهكسوس إلى شروخان (وهى تل الفارعة) التى اشتهرت لفترات طويلة بأنها إحدى المدن التى تدخل فى نطاق إرث شمعون (يشوع ١٩: ٦). وكانت هذه المدينة أحد حصون غرب النقب - فى عهد الهكسوس - الواقع على الطريق الرابط بين مصر وأرض فلسطين. والحقيقة التى تفيد بأن المصريين اضطروا لمحاصرتها ٣ سنوات حتى تمكنوا منها، تؤكد (شأنها شأن معارك الحصار الطويلة الأخرى فى كنعان)، أن الكنعانين كانوا فى هذه الفترة أصحاب قدرة لا يستهان بها فى مواجهة الموجات الهجومية للجيش المصرى، وقد منح غزو «شروخان» للمصريين ميزة امتلاك رأس جسر فى أرض كنعان، لم يخرج عن نطاق سيطرتهم حتى نهاية عهد الأسرة الـ١٨، وهو الأمر الذى أتاح لهم وبسهولة شن غارات طويلة المدى داخل آسيا فى الفترات اللاحقة.

ولا توجد لدينا، معلومات مباشرة عن حملات أمنحوتب الأول بن أحمس، لكن ما يثير الاهتمام هو اسم أرض «قدم» المنقوش على كسرة فخار بقبره، وهو الاسم الذى ذكر من قبل فى بردية، سنحات (القرن الـ ٢٠) ويشير فيما يبدو إلى الحدود الشرقية لسوريا. وقد قام تحوتمس الأول حفيد أحمس بحملة موسعة للغاية داخل الحدود الاسيوية، وصلت حتى أرض النهرين - أحد أملاك مملكة الميتانيين - وقد اجتاز نهر الفرات أيضاً، وكعادة كبار الفاتحين فى الشرق القديم أقام نصباً تذكارياً للنصر على ضفته، حتى يُرسّم الحدود القصية التى بلغها بفتوحاته. ويضاف إلى ذلك، أن ابنه تحوتمس الثانى حارب أيضاً فى شمال سوريا، وقد وصلت إلينا معلومات ترجع إلى عصره حول المعارك التى جرت مع الشوسيين، وهم القبائل البدوية التى اعتادت التجوال عند الحود الجنوبية والشرقية لأرض كنعان، وفى المناطق الجبلية وقوضوا أركان الحكم المصرى فى أرض فلسطين طوال فترة حكم الدولة الحديثة. بيد

أن كل هذه الحملات التي كرست في المقام الأول لإحراز الغنائم والأسلاب، لم تبلغ أبداً مر تبة الغزو المستديم لأرض كنعان. ولم يتحقق هذا الأمر سوى لتحوتمس الثالث (١٤٩٠ ـ ١٤٣٦ ق. م).

وقد أدرك تحوتمس الثالث، مهندس الإمبراطورية المصرية، أنه لكي يصنع من مصر عنصراً سياسياً يحتل موقع الصدارة، فعليه أن يضم أرض فلسطين وسوريا، وقد حقق هدفه هذا من خلال عمل عسكري مخطط يرمي إلى احتلال مناطق آسيوية تصل إلى عبر الفرات وإقامة إدارة مصرية في البقاع المحتلة. ولم يستطع المصريون إحكام قبضتهم على سوريا وأرض فلسطين بسهولة. لأن بعض العواصم أبدت مقاومة باسلة للحفاظ على حريتها، بالإضافة إلى أن حكام هذه المدن، الذين كانوا عادة منقسمين فيما بينهم، اتحدوا في مواجهة المصريين في إطار أحلاف شاملة بزعامة مملكة قادش الواقعة على نهر أورونتاس (أرنات) بسوريا، كما تمتعوا بمساندة ودعم من مملكة الميتانيين. وقد أضطر تحوتمس الثالث لشن ثلاث حملات على آسيا وسع بفضلها تدريجياً من سلطانه ونفوذه في الشمال، كرس أغلبها لقمع تمردات ملوك المنطقة، التي كانت ما تلبث أن تتكرر من جديد.

بيد أن قسماً من المنطقة التي تم احتلالها شق عصا الطاعة مثل غزة (التي منحت إسماً مصرياً أيضاً) وكذلك يافا حيث لا تظهران مجدداً في قوائم غزوات الفراعنة اللاحقين، وتأسيساً على ما تقدم فقد حظي المصريون بسلطة كاملة ومتعاقبة في الشريط الساحلي الجنوبي للبلاد.

أما بخصوص الحملة الأولى لتحوتمس، التي اعتبرت فاتحة وأساس حملاته المستقبلية، والتي صُورت بإسهاب في المصادر المصرية، فقد كانت موجهة فيما يبدو ضد إحدى غارات حكام كنعان، التي أرادت القضاء على الفتوحات المصرية في المهد. وبناء على هذا الافتراض ـ يمكننا تفسير الحلف الموسع الذي ضم ملوك كنعان، والذي تجمع في مواجهة المصريين بمجيدو

خلال أقل من ثلاثين يوماً من تواجد قواتهم على الأراضى الآسيوية. وحسب ما جاء فى أحد النقوش. فقد ضم الحلف ٣٣ حاكماً، ومن ثم فإنه كان أكبر تحالف جمعي نهض لمواجهة المصريين قبل أن ينجحوا فى بث عوامل الفرقة بين أعدائهم.

فى بادئ الأمر تقدم الجيش المصرى بسرعة ٢٥ كم يومياً باتجاه غزة. لكن منذ ذلك الحين فصاعداً تثاقلت خطاه، وربما كان مرد ذلك حدوث مقاومة من قبل السكان الكنعانيين. وأثناء الحملة تمكن أحد قادة تحوتمس ـ تحوتى شحو ـ أن يحتل مدينة يافا الساحلية، كما تدلنا على ذلك واحدة من القصص الشعبية، التى تصور كيف تسلل الجنود إلى قلب المدينة، فيما يشبه أحابيل قصة «على بابا والأربعين حرامى»، وقد واصل تحوتمس حملته على طول سهل الشارون وحتى ياحم (خربة يما جنوب شرقى حديرة) بالقرب من مدخل وادى عارة. الذى يعد البوابة الرئيسية لشمال البلاد. ورغماً عن نصائح قادته العسكريين مر تحوتمس في وادى ضيق وخطر، كان يغص قديماً بالغابات الكثيفة، ومن خلال استغلال عنصر المفاجأة هاجم مجيدو. التى تعد كلمة السر لدخول شمال فلسطين. وبعد حصار استمر سبعة أشهر خضعت المدينة، التى حسب ما قال تحوتمس، «كان احتلالها يضاهى فى أهميته: احتلال ألف مدينة»

وبعد سقوط مجيدو، وربما أثناء الحصار غزا الجيش المصرى ينوعام الواقعة على ضفاف نهر الأردن، وبالقرب من منابع طبرية، كما احتل مناطق ببقاع لبنان، كان يجبى منها ضريبة سنوية لمعبد الإله آمون بالعاصمة المصرية.

ويمكننا أن نستقى المعلومات عن المدن التى استعبدها تحوتمس فى أرجاء كنعان من خلال قوائمه الجغرافية. ففى إحداها يحصى ١١٩ موقعاً فى أرض فلسطين وجنوب سوريا. وكانت هذه المدن تقع فى الغالب بالقرب من الطريق الساحلى بتعرجاته المختلفة، أى فى السهول الساحلية، مرج بن عامر، ووادى بيت شان وبقاع لبنان». ومناطق أخرى بالجليل وباشان والمناطق المجاورة لدمشق، وهذه المناطق هى التى فرضت عليها السيطرة المصرية. وفى

مقابل ذلك حذفت تقريباً من القوائم الجغرافية للفراعنة، المناطق الجبلية بوسط البلاد، والنقب جنوب عور الأردن، ووسط عبر الأردن وجنوبه المناطق، وهى التى اعتبرت محدودة الأهمية فى نظر المصريين وكان سلطانهم هناك اعتبارياً، حيث اهتموا بالسيطرة على الوديان، أما الجبال فقد احتفظت باستقلاليتها.

وقد استطاع تحوتمس فى الحملات التالية أن ينفذ إلى سوريا الداخلة والشمالية، وغزا مركز المقاومة الرئيسية «قادش». وفى حملته الثامنة، التى تعد الأروع والأهم، ليس فى حملاته العسكرية فحسب بل وفى الحملات الحربية المصرية بأسرها، أجبر ملك الميتانيين بعظمته وبهائه أن يولى الأدبار، حيث عبر تحوتمس نهر الفرات فاضطر ملك الميتانيين، منافسه العنيد على حكم سوريا، أن يفر هارباً. بيد أن احتلال المصريين لهذه المناطق النائية لم يتخذ سمة الدوام، حيث استطاع ملك الميتانيين فى السنوات التالية تكوين جبهة معادية للمصريين داخل سوريا الشمالية والداخلة، وعلى الرغم من ذلك واصل المصريون فرض سيطرتهم على الساحل الفينيقى، والمدن الساحلية، مثل جبيل وصامار، اللتين أصبحتا متكئين محورين للسلطات المصرية طوال فترة حكمها، وقد كانت السيطرة على مدن الساحل الفينيقى، التى تخزن فيها الغلال الزراعية الكنعانية، وكانت تخدم الجيش المصرى وتمثل قواعد إمداد بالنسبة له، مسألة حيوية لاستمرار الإدراة المصرية فى سوريا وأمنت العلاقة بينها وبين الوطن الأم فى مصر.

وكما ذكرنا سلفاً، فقد أرسى تحوتمس الثالث بغزواته دعائم الولاية المصرية فى أرض فلسطين وسوريا، وإن كانت حدودها الشمالية قد تقلصت فى العصور اللاحقة، فإن نظامها كما أرساه تحوتمس، حاله حتى أفول نجم الحكم المصرى فى آسيا. وقد شكل جهازاً دائماً من المندوبين والقادة والموظفين الماليين والزراعيين، الذين عهد إليهم بالإشراف على شئون الحكم وجمع الجزية، تعينهم على ذلك حاميات محدودة العدد، تتمركز داخل المدن الرئيسية. كما أقام تحوتمس حصوناً فى المناطق الهامة، مثل مجيدو وبيت شان، وذلك بناءً على

المكتشفات الأثرية هناك، بالإضافة إلى أنه تفاخر بتشييد حصن فى منطقة لبنان. وقد كانت غزة تمثل القاعدة الرئيسية للمصرين، ويبدو أنها كانت مقر المندوب السامى المصرى. وقد اعتاد المصريون ترك الأمور فى يد الحكام المحليين الذين قبلوا الحكم المصرى، ولكنهم كانوا يأخذون أبناءهم وإخوانهم إلى مصر ليدرسوا فى القصر الملكى. وهكذا استطاعوا أن يدفعوا عملية التمصير إلى الأمام داخل أرض كنعان، حيث أنهم لدى عودتهم إلى أرض كنعان كانوا يتحولون إلى ممثلين للحضارة المصرية والمصالح المصرية أيضاً.

وبهذا الشكل نشأ فى الولاية المصرية الجديدة بآسيا نظام حكم استعمارى هادف. وقد استثمر المصريون الكوامن الاقتصادية فى المناطق، باستثمار متعدد الزوايا، وهو ما يمكن أن نفهمه من قوائم الجزية والأسلاب الخاصة بتحوتمس وموظفيه ومن نقوش المعابد ولوحات القبور المصرية، التى تمثل كنزاً لا ينضب من المعلومات. ويمكننا أن نفهم من كل ذلك، أن قوة بشرية هائلة تم تعبئتها كقوة عاملة لتنفيذ أعمال السلطات المصرية داخل الولاية نفسها، ومن ذلك على سبيل المثال، العبيد والجوارى الذين أرسلوا إلى مصر كأملاك للقصر، والمعابد، وضياع كبار الموظفين، وقد سلبت كذلك غنائم جمة وتم تحصيل ضرائب مضاعفة. وتقدم المصادر المذكورة لوحة واضحة لصناعات أرض كنعان ومنتجاتها. ففى المقام الأول صُدِّرت لمصر غلال زراعية، وزيوت وعطور، وأشجار للبناء أيضاً، مثل الأرز اللبنانى الممتاز، وكميات هائلة من النحاس، والأحجار شبه الكريمة، ومنتجات الرفاهية والتحف والنفائس، وبالطبع الأسلحة بمختلف أنواعها. هذا بالإضافة لأعداد كبيرة من الأنعام التى نقلت إلى مصر، وخاصة الجياد، التى اشتهرت بها سوريا وأرض فلسطين، وكذلك الحيوانات التى تمتاز بها هذه البلدان مثل الدب والفيل السورى، وأنواع من الأعشاب لا تعرفها بلاد النيل، جلبت لحدائق الحيوانات وحدائق النباتات الأميرية، وقد كرس كل ذلك بالطبع لدعم مكانة الحكام المصريين والتدليل على سلطانهم الممتد لمسافات بعيدة.

حملات امنحوتب الثانى وتحوتمس الرابع:

اعتبرت سياسة تحوتمس الثالث وأساليب حكمه فى آسيا، كما سبق وذكرنا، قدوة تحتذى بالنسبة لخلفائه من الفراعنة، بيد أنهم اضطروا بين الفينة والفينة أن يشنوا حملات عسكرية على أرض كنعان لكى يقمعوا مواطنيها، الذين شقوا عصا الطاعة ضد الحكم المصرى من فرط الضرائب الباهظة. فقد شن وريثه أمنحوتب الثانى (١٤٣٩ ـ ١٤١٠ ق. م) ثلاث حملات قمع فى آسيا. خصصت الأولى لقمع تمرد فى أرض «تحشى» (وهى «تحش» الوارد ذكرها فى «المقرا» (أحد أبناء ناحور، تك ٢٢، ٢٤)، التى تقع جنوب قادش؛ وقد تزعم هذا التمرد سبعة شيوخ قبائل على الأقل، وبعد مرور عدة سنوات نفذ حتى شمالى سوريا، التى ثارت ضد المصريين، اعتماداً على مساندة ملك الميتانيين. ولدى عودته احتل المدينة الساحلية الهامة أوجاريت وعاد من طريق قادش وغابات «لاڤو» (منطقة لاڤو حماة الواردة بالمقرا) حتى الشارون، حيث أسر رسول ملك الميتانيين، وحول رقبته رسالة (على ما يبدو بالخط المسمارى). وتفيدنا هذه المعلومة أن الممارسات الدبلوماسية والسعى للإضرار بالمصالح المصرية من قبل ملك الميتانيين لم تتقلص فى الشمال، بل توغلت حتى جنوب أرض فلسطين.

والحقيقة أن حملة أمنحوتب الأخيرة، التى تزامنت مع السنة التاسعة لحكمه، قد شنت ضد السكان الكنعانيين الذين تمردوا والسكان شبه الجوالين، بمنطقة الشارون. وحتى عبر أنحرات الذى أصبح فيما بعد جزءاً من إرث يساكر (يشوع ١٩: ١٩) بشرق الجليل الأدنى (يمكن أن نحدد موقع هذه المدينة فى تل محرحش عند مدخل وادى بيرة)، وفى طريق عودته عسكر إلى جوار قادش وغير أحد حكام منطقة الكرمل الذى شق على ما يبدو عصا الطاعة، حسب قواعد إدارة الاحتلال المصرى.

وفى تلك الأونة كانت مجيدو تعد قاعدة مصرية هامة، وفقًا للدلائل الأثرية التى اكتشفت فى هذه المدينة، بالإضافة إلى الأرشيف الأكادى الذى أميط عنه

الشام فى تعنك التى تقع ٧ كم جنوب شرقى مجيدو. وتقدم لنا ألواح تعنك لوحة مثيرة عن اهتمامات وتطلعات ملوك كنعان فى النصف الثانى من القرن الـ١٥ وعن العلاقات والاتصالات فيما بينهم، التى وصلت فى بعض الأحيان إلى مسافات ملحوظة، مثل علاقات حاكم تعنك مع منطقة وادى بيت شان. ففى إحدى الرسائل المحفوظة فى هذا الأرشيف تأمر السلطات المصرية حاكملتعنك بإرسال قوات عسكرية إلى مجيدو بلا تأخير، بالإضافة إلى جزية وهدايا خاصة. وقد بعث بهذه الرسالة شخصية مصرية رفيعة المستوى تدعى أمنحوتب. وفى رسالة أخرى يكيل هذا الأخير اتهامات حادة لحاكم تعنك الذى لم يدعم الحامية المصرية بالجنود، بل ولم يمثل أمامه فى غزة، ويحتمل أن المقصود هو المثول قبالة الفرعون أمنحوتب الثانى نفسه، الذى أمر حكام كنعان أثناء وجوده فى أرض فلسطين بأن على كل حاكم تقع مدينته على مسار حملته أن يرسل له دعماً عسكرياً. وتدل أسماء الرجال المذكورين فى ألواح تعنك، بما لا يدع مجالاً للشك، على الانتماءات الإثنية المتشابكة، وإن كانت غالبيتهم العظمى محسوبة على السكان الساميين الكنعانيين، ومع ذلك، برزت إلى جوارهم العناصر الحورية والهندوإيرانية. ويمكننا أن نستقى معلومات عن التنوع السكانى فى كنعان، من قوائم الأسرى، الذى اقتادهم أمنحوتب الثانى إلى مصر، وكانت ضمنها جماعات إثنية مختلفة، إلى جانب طبقات النخبة الاجتماعية.

أما فيما يتعلق بحملات ابنه تحوتمس الرابع (١٤١٠ ـ ١٤٠٠ق. م)، فلم تتبقى بحوزتنا تقارير تفصيلية مثل سابقيه، ولكن يمكن معرفة بعض المعلومات عن غزواته فى أرض كنعان من خلال المعلومات المتناثرة فى كتاباته وكتابات موظفيه. لقد اشتهر هو الآخر بين معاصريه بلقب «فاتح أرض خارو» (حورو)، وهذا هو الاسم الشائع لأرض كنعان على ألسنة المصريين منذ عهد الدولة الحديثة. وعلى صندوق مركبته، فى قبره بمدينة ـ آمون ـ صُورت مشاهد من حروبه مع سكان كنعان، وضمن هذا معاركه مع القبائل المغيرة، الذين أقضوا

مضاجع السلطات المصرية بشكل متزايد. كما تذكر إحدى الكتابات فى قبره بعض الأسرى من مدينة جازر، وأن فرعون زج بهم فى قلعته، كدليل على احتلاله المدينة. وتتلاءم هذه الكتابات مع رسالة أميط عنها اللثام فى جازر، وفيها يطالب الكاتب حاكم المدينة بتقديم فروض الطاعة، ويمد رسول فرعون الذى يوشك على الوصول بالغذاء، والاحتمال الغالب هو أن هذا الغذاء كان لمؤونة الجيش. كما يحتمل أن هذه الرسالة - التى تتماثل فى مضمونها مع عدد من خطابات أرشيف تل العمارنة التى أرسلها فرعون لولاة كنعان، مثل أمير أخشاف وأشقلون - أرسلها تحوتمس الرابع أثناء حملته فى أرض فلسطين إلى حاكم جازر، ومن جراء عدم امتثاله للأمر، قام بغزو مدينته. ونستمد معلومات أخرى عن حملات تحوتمس الرابع فى آسيا، وبشكل غير مباشر، من رسائل تل العمارنة، التى يذكر فيها ولاة كنعان أعمال الفراعنة السابقين فى بلادهم. ومن ذلك على سبيل المثال، يعلن أمير جبيل فى خطابه إلى أمنحوتب الثالث، أن مدينته ظلت على ولائها لآبائه الفراعنة، وأن أبيه تحوتمس الرابع، نزل بالساحل الفينيقى لكى يشرف على النظام فى الأقاليم التى تحت السيطرة المصرية. وهذه المعلومات تتواءم جيداً مع ما يُروى فى إحدى كتابات تحوتمس الرابع الذى خرج لقطع أشجار الأرز من بلاد «ريتنو» - وهذا الاسم هو أحد الألقاب القديمة لأرض كنعان فى المصادر المصرية - والحديث يدور بكل تأكيد عن منطقة لبنان.

لقد كان تحوتمس الرابع هو آخر فرعون فى الأسرة الـ١٨ يعبئ القوى لشن حملات عسكرية على آسيا، أما خلفاءه أمنحوتب الثالث والرابع (توت عنخ آمون). فقد اكتفوا فيما يبدو بإدارة أرض كنعان عن بعد، حتى تهاوت السلطة المصرية هناك تماماً فى النصف الثانى من القرن الـ١٤ ق. م. فحتى قوائم أمنحوتب الثالث الجغرافية لا تعد دليلاً على غزاوت على أرض فلسطين، وبقدر ما هى ليست نسخاً لأسماء المواقع التى ذكرها سابقوه (خاصة منطقة شمال أرض كنعان) فهى على أقصى تقدير، دليلاً على قيام ثمة علاقات مع هذه

المناطق ليس إلا. وتكمن أهمية بالغة لذكر بعض المناطق فى هذه القوائم التى نشرت مؤخراً، مثلاً رفح، وعين شاسو - مستوطنة أقامتها القبائل الجوالة بالقرب من بئر جنوبى البلاد - واللتان تظهران للمرة الأولى فى المصادر المصرية، وخاصة موقعاً باسم "أرض الشوسيين يا هوا، يمكن أن نحدد موقعه فى شبه جزيرة سيناء، أو فى النقب. والاسم "ياهو" وموقعه يثيران فى الذهن إسم الإله العبرانى وتجليه لموسى فى المنطقة المذكورة. والذى يفاجئنا فى هذه القوائم تلك السلسلة من الأسماء التى تنتمى إلى منطقة بحر إيجة مثل كونسوس على جزيرة كريت، وجزيرة كيثيرا التى تقع بينها وبين فيلوفونس، وناوبليا وميسنيا وميكنيا، وربما كانت إيليوس أيضاً هى طروادة. وتعتبر هذه الحقائق عظيمة الأهمية، من أجل الإلمام بمغزى العلاقات بين بلدان الشرق القديم، بما فى ذلك أرض كنعان، والحوض الشرقى للبحر المتوسط، ويدلل على ذلك اكتشاف كنز يتألف من عشرات الأختام الأسطوانية على الطراز الأكادى السورى فى حفريات «تابى» باليونان.

المنظومة السياسية فى عصر العمارنة:

أتت اللوحة الكاملة والمثيرة للغاية التى تصور أرض كنعان فى الألف الثانى ق. م، وتصور بصورة غير مباشرة أيضاً تاريخ أرض فلسطين - من الربع الثانى للقرن الرابع عشر الذى عرف بعصر أو حقبة العمارنة. ومن الواضح أنها سميت باسم منطقة بوسط مصر، حيث أزيح النقاب هناك عام ١٨٨٧م عن أرشيف فرعونى شامل. واتضح إن هذه البقعة كانت موقع مدينة «أخن أتون» التى حولها أمنحوتب الرابع (١٣٦٧ - ١٣٥٠ ق. م) إلى العاصمة الجديدة بدلاً من «مدينة أمون». ويضم هذا الأرشيف المراسلات السياسية لهذا الفرعون، وكذلك لوالده أمنحوتب الثالث، اعتباراً من العقد الأخير لسنى حكمه، ويشتمل على ما يناهز ٣٥٠ خطاباً، دونت غالبيتهم الساحقة باللغة الأكادية، وهى اللغة التى راجت لقرون عدة فى المفاوضات الدولية فى إرجاء آسيا القديمة. ويضم جزءاً من الوثائق مراسلات متبادلة بين فرعون وحكام الدول

العظمى فى تلك الأونة. وتدور نصف المراسلات تقريباً حول شئوون أرض فلسطين والساحل الفينيقى، وغالبيتها الحاسمة عبارة عن رسائل إلى فرعون من الولاة المحليين، الذين خضعوا له، بشكل أو بآخر، وقسم قليل من هذه المراسلات (أو على وجه الدقة نسخ من الرسائل) موجهة إلى الولاة من قبل الفرعون أو القيادة المصرية.

ويتضح من هذه الرسائل أن السيادة المصرية في أرض كنعان نال منها الوهن والضعف بشكل ملحوظ، وإن الحالة الأمنية المتدهورة فى أرجاء الولاية المصرية قد استفحل أمرها، وتدل علي ذلك، المعلومات الواردة في الرسائل بشأن الهجمات المتكررة على القوافل وتعرض هذه القوافل للسلب والنهب، والعجز البادى فى مواجهة القبائل الجوالة مثل سبط الشوتو، والعصابات من قطاع الطرق، خاصة كتائب الخبيرو والذين أغاروا على المدن، وعملوا جنوداً مرتزقة فى خدمة زعمائهم. والحقيقة أن مصر فى تلك الأونة - عهدى أمنحوتب الثالث والرابع - وصلت إلى ذروة مجدها، وبخاصة على الصعيد الحضارى، بيد أن السلطان المصرى فى البلدان المحتلة، تهاوى بشكل ملحوظ فى عهديهما. وتكمن هنا ثمة أهمية خاصة، من ناحية ديانة بنى إسرائيل، حيث اهتم الباحثون والدارسون بمسألة الإصلاح الدينى في مصر، الذى كرس له أمنحوتب الرابع جهوداً هائلة. لقد رفع من شأن عبادة «أتون» إله الشمس، وجعلها العبادة والديانة الرسمية فى الدولة، بل وأتخذ لنفسه اسم أخناتون، أى «محبوب الإله أتون». بيد أن هذا الإصلاح الدينى الذى يالغ البعض فى أثره على عقيدة التوحيد عند بنى إسرائيل، ظل عرضاً طارئاً فحسب، ولدى وفاة الفرعون، اعتبره المصريون هرطقة دينية. كما ينبغى ألا نبالغ فى وصف ضعف أمنحوتب الرابع بوصفه سياسياً أو اتهامه بالإهمال المطلق لشئون الإدارة المصرية فى كنعان، حيث أن هناك دلائل عدة تفيد قلقه بشأن سلطته فى أرض كنعان، وتفيد قيامه بالتخطيط لحملة عسكرية موسعة على هذه البلاد، لم تخرج فيما يبدو إلى حيز التنفيذ. وعلى أية حال، فبقدر ما حافظ هو ووالده على

نفوذهم وسلطانهم فى أرض كنعان والساحل الفينيقى، فإن هذا الأمر تم لهما من خلال الاستغلال الجيد لصيغة «فرق تسد»، وتشجيع الدسائس وإشعال النزاعات بين الولاة المحليين.

ويمكننا أن نتعرف على موضع أرض فلسطين فى إطار الإمبراطورية المصرية، من خلال أرشيف تل العمارنة، الذى يعد المصدر الرئيسى لمعرفة النظام الاستعمارى المصرى ونظمه الإدارية فى المناطق المحتلة. ولقد كانت أرض كنعان تقع فى الجنوب إلى الولايتين الرئيسيتين فى آسيا ويتوسطهما منذ زمن بعيد مدينة غزة. وتمتد حدودها بطول الساحل حتى مدينة صور، وبعد فترة ما اتسعت حدودها حتى تخطت جبيل وياشان. وعلى قمة هرم القيادة فى الولاية المصرية تربع حاكم مصرى يحمل اللقب الأكادى «رابصو» (وكيل بالكنعانية والعبرية)، وكان على خلاف قواعد إدارة الاحتلال المصرية فى النوبة خاضعاً للفرعون بصورة مباشرة. وكان الوكلاء مسئولون عن ولاة العواصم المحلية، الذين حملوا اللقب الأكادى «حزنو» الذى يضاهى الاسم «حزان» فى العبرية المتأخرة والذى يشير إلى قائد المدينة، ويرمى هذا اللقب إلى تأكيد تبعيتهم وخضوعهم إلى للسلطات المصرية، حتى وإن اعتبروا أنفسهم ملوكاً.

وتأسيساً على ما سلف، فقد كان ولاة كنعان أنفسهم يمثلون العمود الفقرى للحكم المصرى هناك، وعمل إلى جوارهم مسئولون ورسل مصريون، وكان تحت تصرفهم حاميات تتألف فى الأساس من جنود مصريين وكوشيين، أى من أبناء النوبة. وقد كانت القوات العسكرية محدودة العدد للغاية. كما يفهم من المطالبات القليلة من قبل الولاة بإرسال إمدادات عسكرية، مثل والى مجيدو الذى طلب مائة رجل. وطلبى أمير القدس وأمير جازر اللذان لم يطلبا سوى ٥٠ جندياً فحسب، كما يتضح أيضاً مدى التسليح الضعيف الذى بأيديهم من خلال الوثائق المختلفة مثل الرسالة التى عثر عليها فى لاخيش والتى تعود إلى نفس الفترة وفيها يطلب أحد الولاة أن يرسلوا إليه ستة أقواس وثلاثة خناجر

وثلاثة سيوف. أما عندما كانت تتطلب الامور عملية عسكرية كبيرة الحجم، فقد كانوا يرسلون من مصر قوات داعمة - جيش الرماة، الذى نهض في المقام الأول على سلاح المركبات، حيث أن فائدة الرماة رماة الأقواس تزداد بشدة إن كانت مدعومه بالمركبات الحربية.

بيد أن الأهمية الحقيقة بالنسبة لرسائل تل العمارنة، فيما يتعلق بتاريخ أرض فلسطين، وكذلك تاريخ بنى إسرائيل، تتمثل فى تسليط الأضواء على أوضاع العواصم الكنعانية المتفرقة، وعلى العلاقات فيما بينهما. والتى كانت تتغير بين الفينة والفينة، وعلى الفرقة والعلاقات العدائية من ناحية، وعلى الأحلاف، وفي كثير من الأحيان على الجبهات الشاملة من ناحية أخرى. والمضاهاة بين رسائل تل العمارنة والوثائق المعاصرة لها فى الأرشيف الأميرى الحيثى فى "خاتوشا" (وهى الآن بوجازكوى) ومؤخراً مع الأرشيف الأوجاريتى أيضًا، تطلعنا بوضوح شديد على الموقف الحرج داخل هذه الممالك، وخاصة سوريا التى كانت واقعة بين فكى الكماشة، مملكة الميتانيين والحيثيين، ومن ناحية أخرى بين القطبين المصرى والحيثى، وقد أدى هذا الوضع المتأزم إلى دسائس، ومؤمرات عسكرية، ونفاق سياسى، ونشأة حالة من الابتزاز بين العواصم والدول الكبرى. وقد برز الحيثيون كقوة منافسة للمصريين، بعدما نجح الملك الحيثى القديم "شوبيلوليوما" فى إزاحة ملك الميتانيين عن سوريا ويحتل موقعه، بعد أن توغل عميقًا عبر دمشق، والوديان التى عند بقاع لبنان. والحقيقة هى أن ممالك جمة فى سوريا فضلت السيادة الحيثية على السيادة المصرية، لأن الدولة الحيثية أظهرت كفاءة أكبر ومرونة فى العلاقات مع "الأتباع"، بل ومنحتهم مظلة حماية عسكرية أكثر فاعلية. بيد أن المتيانيين لم يتنازلوا بسهولة عن مكانتهم، حتى أن الصراع الثلاثى بين الخصوم الأقوياء - مصر والحيثيين والميتانيين - على ولاء ملوك العواصم الكنعانية أدى إلى تقويض توازن القوى الحرج فى المنطقة بأسرها.

وعلى الرغم من الوضع السياسى المزعزع فقد ظلت أرض فلسطين تحت السيادة المصرية، ويدل على ذلك اعتبارهم أن مصر مسئولة عن ممارسات سكان البلاد. ومن ذلك على سبيل المثال: موقف بورنبورياش الثانى ملك بابل، الذى اعتبر أن أمنحوتب الرابع مسئولاً عن سلب قافلة له، كانت فى طريقها من بابل إلى مصر، وعن قتل تجاره في عين حانثون، عند بقاع بيت ناطوفا، (التى صارت فيما بعد ضمن إرث زبولون - يشوع ١٩: ١٤) وقد جاء فى أقواله الموجهة إلى فرعون: «إن كنعان هى أرضك، وملوكها عبيدك، وفى أراضيك أوذيت، أفنهم (القتلة) وليسددوا الأموال التى نهبوها والرجال، الذين قتلوا عبيدى، يجب أن تقتلهم وتثأر للدماء».

وقد امتد نطاق السلطة والمسئولة المصرية شمالاً حتى أقصى الطرف الشمالى لسهل البقاع، واعترف الحيثيون بهذا الترسيم الحدودى. وبناء على ذلك، اعتبر تسلل «شوبيلوليوما» إلى أرض «عَمْقِى» جنوب هذا الخط الحدودى، بمثابة مساس بالسيادة الإقليمية المصرية، حتى فى التاريخ الحيثى المدون نفسه، الذى علل هذا التعدى بالوباء الهائل الذى ضرب أرض الحيثيين.

وقد كان ازياد قوة الحيثيين فى سوريا وضعف مكانة المصريين، سبباً فى تشجيع ممارسات عصابات الخبيرو، الذين تحالف معهم بعض الولاة المحليين - خاصة فى المنطقة الجبلية الوسطى وشمال أرض الأموريين - لكى يتخلصوا من نير المصريين، كما تفاقمت دوافع الكراهية بين الولاة أنفسهم إزاء عجز سلطات الاحتلال. وفى مقابل ذلك وفى السهول - مرج بين عامر، الشارون، والسهول الساحلية - كانت السلطات المصرية ذات بأس شديد، حتى هذه الفترة، حيث أن هذه البقاع التى اعتبرت فى أغلبها أرض فرعونية، كانت تحتل مكانة حيوية بالنسبة للاقتصاد المصرى. ولا ننسى «بريديا» أمير مجيدو الذى نفذ مشروعات زراعية موسعة في مرج بن عامر لصالح فرعون، واحتاج لإتمام مشروعه، جباة ضرائب تم إحضارهم من أماكن مختلفة من ضمنها يافا. التى كانت واحدة من مراكز الإدارة المصرية، وأقيمت بها مخازن أميرية لتجميع الغلال. كما تبين

وثيقة مصرية أكثر تأخراً (بردى أناساتسى أ) أن المدينة اشتهرت كمركز لصناعة الجلود، والأسلحة.

أما فى المنطقة الجبلية الوسطى، فتظهر لنا من خلال الوثائق، المعنية بالحالة الأمنية المتدهورة، أسماء عاصمتين، من شأنهما أن يلعبا دوراً رئيسياً فى فترة غزو بنى إسرائيل للبلاد واستيطانهم لها - ألا وهما نابلس والقدس. لقد ظهر عدو لدود للسلطات المصرية وهو «لابايا» والى نابلس، الذى بسط نفوذه على جبال أفرايم ومنسى، بل ووصل بمُعاونة كتائب الخبيرو إلى مرج بن عامر، وحاصر مجيدو. ووسع نفوذه شرقًا حتى جبال جلعاد وغربًا حتى عبر الشارون. يضاف إلى ذلك، أنه بالاشتراك مع «ملحئلو» والى جازر - وأبناءه من بعده - على القدس، بل وعلى مناطق موغلة أكثر جهة الجنوب، مثل لاخيش وأشقلون.

أما القدس نفسها فقد ظلت تقريباً على ولائها لفرعون، فحاكمها عبد حافا (ولا يحتمل أن نطابق بين اسمه واسم يوتى-حيفا) يسمى نفسه بلقب قائد عسكرى مصرى؛ ويناشد فرعون فى رسائله، أن يمده بإمدادات عسكرية ليقاوم أعمال السلب والنهب من قبل الخبيرو وأعداءه. وقد أحصى ضمنهم بالإضافة إلى ولاة نابلس وجازر، حاكم جات ولاخيش وأشقلون أيضًا. وكان أكثر ما يثير حنق أمير القدس هو محاولات تقويض حكمه فى القطاع الحدودى الشمالى الغربى لمملكته، يقصد نهب أحد طرقه «حقل أيالون» وغزو مدينة «روبتوتى» التى لم يتم التثبت من موقعها، وكذلك المؤامرات عند الحدود الجنوبية الغربية «أوبوت كعيلا» (والتى يمكن أن تكون خربة كيلا). ولعل مصير القدس يشير إلى العزلة الهائلة التى عانتها عواصم كنعانية كثيرة، كما يشير إلى قيام أحلاف موسعة، لكن بشكل مؤقت، وتدل على مثل هذه العلاقات الموسعة فيما بين الممالك الكنعانية، وعلى سبيل المثال، توجه عبد حافا وشوقاراداتا، الذى كان حاكم الخليل وربما جات إلى والى عكا وأخشاف في منطقة الساحل الشمالى، لكى يمدهم بإعانات عسكرية فى مواجهة الخبيرو.

إن الملف الدبلوماسي للقدس الذي عثر عليه في أرشيف تل العمارنة، لا يستعرض القضايا والتعقيدات التي تواجهها عاصمة كنعانية خلال نضالها من أجل البقاء فحسب، وإنما يسلط أيضًا الأضواء الساطعة على ما روته "المقرا" عن وضع وتاريخ القدس العتيقة. وبعد أجيال قليلة فحسب من هذه الحقبة شق بنو إسرائيل لأنفسهم طريقًا نحو أرض كنعان، ف منطقة الحدود التي فصلت بين مملكتي نابلس والقدس، هذين المركزين المهيمنين على المنطقة الجبلية، وفقًا لما جاء في وثائق تل العمارنة. ومع الاختلاف في التشكيل السياسي والعسكري في عصر يشوع، فقد تجلت في الصراع على مملكة القدس ملابسات وظروف استراتيجية مشابهة لتلك التي تعود إلى حقبة العمارنة. وفيما يتعلق بالتركيبة السكانية للقدس، يعكس لنا الاسم «عبدحافا» المركب من شقين الأول كنعاني والآخر حوري - حيثي، مدى الاختلاط الإثني الذي انتشر بين سكان المدينة. وتطرح لنا المصادر المقرائية صورة مشابهة تفيد إنه إلى جوار السكان الكنعانيين والأموريين القدامى تواجدت أيضًا عناصر حورية–حيثية تم توطينها في المدينة، وينتسب لهم بالطبع اليبوسيون الذين استوطنوا المدينة قبل وصول بني إسرائيل. (قارن حزقيال ١٩ : ٣). هذا بالإضافة إلى فن التعبير والأسلوب البليغ لرسائل تل العمارنة المبعوثة من القدس، والتي تزخر بكلمات وأساليب بلاغية كنعانية، وتدل على أن المدينة شكلت منذ فترة ليست بالقصيرة مرتكزًا هامًا لمدرسة بارعة من الكتاب. ومع تحولها إلى عاصمة لبني إسرائيل في عهد داود أصبح من شأن القدس أن تلعب دورًا محوريًا في إرساء قيم الحضارة الكنعانية، بالإضافة إلى توريث قواعد الإدارة ونظمها إلى بني إسرائيل.

أرض كنعان فى حقبة غزو بنى إسرائيل

لا شك فى أن تدهور أوضاع السلطة المصرية فى آسيا، كنتيجة لضعف الأسرة الثامنة عشرة فى النصف الثانى من القرن الـ ١٤ ق. م. وحالة الفوضى التى سادت أرض كنعان، قد عبدت الأرض أمام غارات آخذت فى التزايد من قبل قبائل جوالة وشبه جوالة، قادمة من أطراف الحدود الشرقية للأراضى المزروعة بهدف استيطانها. وقد كان بنو إسرائيل ضمن العناصر المغيرة والمستوطنة، بالإضافة إلى أسباط قريبة لهم، وشعوب حدود جنوبى عبر الأردن - أدوم ومواب وعمون.

والحقيقة، وهى، أن حور محب قام بمحاولة فى هذه الفترة لاستعادة السيطرة المصرية على أرض كنعان، بيد أن هذه المحاولة لم تتوج بنجاح حقيقى. وتكمن أهمية بالغة فى النقوش التى عثر عليها فى قبره، حيث تصف ملامح وجوه الأسرى من أرض فلسطين، وربما من سوريا أيضاً، الذين وقعوا فى قبضته، وكان فيها بينهم ساميين طوال اللحى وحيثين، وتؤكد هذه النقوش تركيبة السكان الكنعانيين المتنوعة فى هذه الأونة، ومع تولى الأسرة التاسعة عشرة أمور مصر فى أواخر القرن ١٤ ق. م، صار هناك نهج جديد في السياسة الخارجية للفراعنة تمثل فى توجه جديد إزاء الشرق، أعاد لهم السيطرة على آسيا، وإن كانت محدودة بالمقارنة بعهد تحوتمس الثالث. ويدلل على العلاقات الوثيقة مع كنعان فى هذه الفترة، ذلك العدد الهائل من الوثائق المصرية الذى اكتشف فى أرض فلسطين والذى يفوق ما أرسلته أية أسرة أخرى. ومن ناحية أخرى وصل التأثير الكنعانى على مصر ذاتها فى هذه الفترة إلى ذروته. ويؤيد ذلك دخول آلهة كنعانية كثيرة فى المعبد المصرى واستخدام ألفاظ مقتبسة من الكنعانية فى الأدب المصرى.

وتشير الاكتشافات الأثرية التى أميط عنها اللثام فى أرض فلسطين (شواهد قبور بيت شان، وتل الشهاب فى حوران، وصبور) إلى حملات الفرعون

سيتى الأول (١٣٠٨ق. م. - ١٢٩٠ ق. م) إلى كنعان، التى دلف إليها فى بداية تولية الحكم هذا بالإضافة إلى القوائم الجغرافية الخاصة بالمدن التى غزاها فى كنعان، والنقوش والكتابات الأخرى التى زّين بها معبد الإله آمون فى الكرنك، وقد صوّر فى النقوش الطريق الذى سلكه الجيش المصرى ماراً بشمال شبه جزيرة سيناء نحو رفح بأدق التفاصيل، واصفًا الحصون العشرين والآبار المحصنة، ويرسم لنا غزو «مدينة كنعان» التى يحتمل أن تكون غزة، وغزو مدينة ينوعام الواقعة على ضفاف نهر الأردن بالقرب من منابع بحيرة طبرية، وغزو مدينة قادش (هناك شكوك حول ما إذا كان المقصود قادش الواقعة على الأورونانس. على الرغم من العثور على نصب تذكارى لسيتى هناك، فمن غير الواضح إذا ما كان توغل شمالاً إلى هذا الحد، ومن ثم فهناك من يفضل مضاهتهما بقادش نفتالى فى الجليل الأعلى). وبالإضافة إلى تصوير حصون أرض كنعان ومناظرها الخلابة، تعرض النقوش لوحات جانبية للقبائل الهمجية المغيرة، والمحاربين الكنعانيين، وللأمراء العظام من لبنان، الذين يجتثون أشجار الأرز من أجل فرعون تعبيراً عن الولاء، (قارن الملوك الأول ٥ - ٢٠)، وكذلك أشخاص حيثيين، وهم بالتأكيد ممن قاتلهم فرعون فى جنوب سوريا. ويمكننا أن نستخلص من قوائم سيتى الجغرافية أن هدفه فى الأساس كان استعادة السيطرة المصرية على بيت شان، والجليل والساحل الفينيقى، حيث يرد ذكر سلسلة من المدن اعتباراً من عكا وحتى أولازا فى الشمال.

ونستقى معلومات مثيرة عن منطقة بيت شان، والخطة السياسية العسكرية التى جابهها فرعون من خلال نصبان تذكاريان له عثر عليهما فى هذا المكان، ويعود الإثنان فيما يبدو إلى عامه الأول. ففى الأول يروى أنه أرسل جيشًا مصريًا لقمع تمرد ملك حماة الذى هاجم بيت شان الواقعة عند الشمال، وبالاشتراك مع رجل باحال من عبر الأردن هاجم المدينة المسماة رحوف (تل الصارم ٥ كم جنوبى بيت شان). أما النصب التذكارى الآخر فأقيم لذكرى

الانتصار على قبائل العبيرو (هذه هي الصيغة المصرية للاسم الأكادي خابيرو) الذين أغاروا على هضاب الجليل الأدنى، وعرّضوا أمن السكان المحليين للخطر. وتتعالى هنا أصداء من غارات متناثرة في منطقة الجليل، كانت بمثابة بشائر لقدوم أسباط بنى إسرائيل إلى شمال أرض فلسطين، وقد ورد في قوائم سيتى الثانى الجغرافية أول ذكر لاسم "أشير" [وقد كتب أ س ر]، الذى عرف فيما بعد وفى فترة متأخرة بأنه سبطًا إسرائيليًا.

وقد وصل الصراع المصرى - الحيثى من أجل السيطرة على منطقة عبر النهر إلى ذروته فى عهد وريث سيتى الأول، الفرعون رعمسيس الثانى (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق. م) خلال معركة قادش الواقعة على "الأورونانس"، لكن العلاقات تحسنت فيما بعد بين الدولتين الأعظم، وتوصلاً إلى اتفاقية سلام، وقد كانت معركة قادش التى اندلعت فى السنة الخامسة لحكم رعمسيس (١٢٨٥)، معركة حامية الوطيس بين مصر والحيثيين، حيث استعان كل طرف بقوات غريبة كثيرة، وقد استعان المصريون بـ «نعرونا الأمورى» (أى قوات مشاة منتقاة سميت بالاسم الكنعانى - العبرى "نعريم") أما الحيثيون - فقد تعززوا بقوات من شمال سوريا، وشعوب شمال وغرب الأناضول. ويتفاخر رمسيس كثيراً فوق جدران معابده فى مصر، بمعركة قادش بوصفها أكبر انتصارته، على الرغم من أن ما يفهم هو أنه منى بهزيمة، ولم يحقق غايته العسكرية وهى غزو قادش. واستعاد الحيثيون سيطرتهم على أرض أمور التى كانت قبلاً بحوزة المصريين، بل أنهم توغلوا جنوبًا حتى دمشق التى أمست مفوضية حيثية ردحًا من الزمن، كما نستقى من وثائق «خاتوشا».

وقد زعزع فشل المصريين فى معركة قادش سيادتهم على أرض كنعان. وبعد مرور ثلاث سنوات اضطر رعمسيس أن يقود حملة عسكرية على الجليل الأعلى لقمع العواصم المتمردة، مثل ميروم، التى حارب بنو إسرائيل الكنعانيين منذ فترة قليلة من أجل مياهها. وتدلل بعض التفاصيل الأخرى فى نقوشه على

عمليات غزو أخرى جرت فى الشمال، مثل تصوير غزو مدينة عكا، وخاصة شواهد قبوره التى عثر عليها فى بيت شان، وفى صور وفى جبيل وفى الشيخ سعد الواقعة على الطريق الرئيسى فى الباشان. ويذكر النصب المقدس الذى عثر عليه فى الشيخ سعد، الإله السامى «إيل - قونيه - صافون» الذى تشابه اسمه مع «بعل صافون» المعروف فى أوجاريت وفى «المقرا»، ويبعث فى الذهن ما ورد فى المقرا: «الله العلى مالك السموات والأرض» (تك ١٤ ـ ١٩). ويدلنا على الصلات والوثيقة التى ربطت بين رعمسيس وشمال عبر الأردن، أن مسئولاً كنعانياً رفيع المستوى خدم في مصر وهو «بن آذان» الذى من صر - باشان. تلك المدينة التى ورد ذكرها فى الوثائق الأوجاريتية ورسائل تل العمارنة. بيد أن نشاط رعمسيس الثانى العسكرى لم ينحصر فى شمالى البلاد فحسب، حيث تتراكم فى الأونة الأخيرة براهين تفيد أنه أولى اهتماماً بالغًا للجنوب. فقد أظهرت الحفريات التى جرت فى يافا، أن المدينة دُمرت، ثم تم إقامتها مجدداً فى عهد رعمسيس، حيث عثر على اسمه منقوشاً على عضادات بوابة المدينة. كما عثر مؤخراً على واحد من نقوشه يصور عملية الاستيلاء على مدينة أشقلون. وتفيد بعض القوائم الجغرافية المنسوبة إلى عهده، أنه تمكن من إخضاع كافة المدن الساحلية، من دور شمالاً وحتى رفح جنوبياً، هذا بالإضافة إلى القبائل المغيرة فى الشرق والنقب وأرض ساعير.

والمثير للفضول حقًا، هو النقوش والكتابات الموجودة على جدران معبد رمسيس فى مدينة - آمون، والتى أميط عنها اللثام منذ فترة قصيرة، وهى تصور حملته على أرض مواب. حيث غزا ضمن ما غزاه من مدن: ديبون، بالقرب من الضفة الشرقية لأرنون، وهذا الاكتشاف الذى يعد الدليل الأول على وصول حملة مصرية إلى عبر الأردن جنوبى اليرموك، يعد دليلاً ساطعًا على الاهتمام الذى أولاه المصريون لهذه المناطق النائية، والتحقق من التأثير المصرى على هذه البقاع يفسر لنا وجود شاهد قبر غريب فى قرية "بالوعا"

جنوبى ديبون، التى يمكن نسبتها فيما يبدو إلى عصر رعمسيس. وقد نقش عليه بأسلوب مصرى لا يرقى إليه الشك صورة والى مواَب (هل تمثل هذه الشخصية أول ملوك مواَب المذكور فى العدد ٢١: ٢٥ ؟) ترافقه الآلهة، ونقش إلى جواره كتابات غير واضحة بما يكفى، وتتسم هذه المعلومات الجديدة بشأن التواجد المصرى فى المنطقة بأهمية بالغة لفهم تاريخ بنى إسرائيل، نظراً لأن جنوب شرقى عبر الأردن، لعب فى تلك الأونة دوراً حاسماً فى مسألة غزو بنى إسرئيل.

وقد عقد المصريون والحيثيون معاهدة سلام عام ١٢٦٩ ق. م، حيث تم توقيع اتفاق يقضى بعدم مهاجمة أى طرف منهما للآخر بين رعمسيس الثانى وحاتوشيلى الثالث ملك الحيثيين. وفى الميثاق التفضيلى المنسوخ لدى الطرفين، ليست هناك تفصيلات بشأن الخطوط الحدودية المتفق عليها بينهما، لكن يبدو أنها كانت تتماشى مع الحدود الشمالية لأرض كنعان المنصوص عليها فى «المقرا». (عدد ٣٤). وقد وجد بنو إسرائيل هذا الواقع الجغرافى ـ السياسى قائماً أثناء شن غزواتهم على البلاد، وينعكس ذلك عند وصف الأرض الموعودة فى سفر يشوع ١ ـ ٤: «من البرية ولبنان هذا (حتى هنا كانت تبسط السيادة المصرية) إلى النهر الكبير نهر الفرات جميع أرض الحيثيين». (وهذه هى حدود السيادة الحيثية فى سوريا). وبناء على ذلك فإن الحدود المصرية كانت تشتمل على منطقة دمشق وامتدت حتى حماة عند طرف سهل البقاع. (تاركاً أرض الأموريين داخل الحدود الحيثية)، ووصل على ساحل المتوسط حتى صامار فيما وراء جبيل. وبالفعل يرد ذكر دمشق وصامار بوصفهما أقصى القواعد المصرية شرقاً وشمالاً وذلك فى برديات أناساتاس الأول. الذى يستعرض تخوم الإمبراطورية المصرية بآسيا فى المرحلة الثانية من حكم رعمسيس.

وقد ألف برديات أناساتاس الأول، التى عرفت أيضاً باسم «رسالة شنينا». كاتب مصرى لتكون رداً على نظيره ـ منافسه، وتعد هذه البرديات

مصدراً فريداً من نوعه عن أرض كنعان - فهي بمثابة «دليل للبلاد» - كان فيما يبدو أداة لمعاونة الجيش المصرى وبخاصة «الماهير» (مصطلح كنعانى ورد فى البرديات للإشارة إلى القوات الخاصة). وهذه الوثيقة تقدم وصفاً وتصويراً عاشقاً لمناظر البلاد الخلابة، ومدنها وسكانها، وأهم من كل ذلك، طرقها الرئيسية. كما يصف طبيعة اقتصاديات الجيش المصرى في القطاعات الجبلية، كما تدل من ناحية، على الازدهار الذى تمتعت به مدن أرض فلسطين القابعة فى السهول، وخاصة السهول الساحلية، مثل يافا، وتشير من ناحية أخرى، إلى الأحوال الأمنية المهزوزة فى المناطق الجبلية من جراء غارات القبائل المغيرة والعناصر الهمجية الأخرى، التى ضمت فيما يبدو أسباط بنى إسرائيل الذين سكنوا الجبال. وفى هذا السياق من الممتع ذكر العمل البطولى الذى قام به سبط يدعى (أ. س. ر.) - الذى يحتمل أن يكون هو سبط آشير الإسرائيلى - «حيث ظفر بدب عند شجرة البكائيين»، الأمر الذى يذكرنا بحكايات شمشون وأبطال داود.

وقد استمرت العلاقات السليمة السوية بين مصر والحيثيين أيضاً فى عهد الفرعون مرنبتاخ (١٢٢٤ - ١٢١٤ ق. م.) وتود حلايا الرابع (١٢٥٠ - ١٢٢٠ تقريباً ق. م) وحتى انهيار مملكة الحيثيين. ولعل أحد الأمور التى قادت إلى تقارب شديد بين الدولتين، هو المخاطر المماثلة من خلال تهديدات شعوب البحر الذين آثاروا شعوب غرب آسيا الصغرى من جهة، وهجموا على مصر فى السنة الخامسة لحكم مرنبتاح بوصفهم حلفاء القبائل الليبية من جهة أخرى. وقد أضطر مرنبتاح فى سنوات حكمه الأولى أن يقمع تمردا عاما تفشى فى البلاد من أشقلون وجازر جنوباً وحتى ينوعام شمالاً. وفى هذا السياق تحتل أهمية بالغة قصيدة مدح ترجع للسنة الخامسة لحكم الفرعون، وتخلد انتصاره العظيم، نظراً لأنها المرة الأولى التى يرد فيما ذكر بنى إسرائيل فى نص خارجى (فى قائمة الشعوب المهزومة قيل: إسرائيل أضحت يباباً، ولم يعد لها نسل).

وتدلنا نصوص من يوميات مسئولين مصريين أقاموا عند الحدود المصرية بشبه جزيرة سيناء (برديات أناساتاسى الثالث) على استعادة مرنبتاح لسيطرته على أرض كنعان وإشرافه العسكرى على مرتكزات مثل: غزة وصور على ساحل المتوسط، بل وعلى بقاع فى المناطق الجبلية أيضًا. كما يرد ذكر قادة عسكريين عائدين من «آبار مرنبتاح التى عند الجبال»، بين الراجعين من الحدود، فى التقارير التفصيلية التى كان يدونها الموظفون عن الحركة على الحدود. وهناك من اعتبروا أن المراد هنا هو «منبع مياه نفتوح» المذكورة على أنها نقطة حدودية فاصلة بين بنيامين ويهودا فى جبال القدس (يشوع ١٥: ٩ - ١٨: ١٥). وينهض هذا الرأى على أساس هجاء إسم الفرعون فى هذه الفترة بهذا الشكل (منبتاح) (أى بدون حرف الراء). وطالما أن التركيب المقرائى "معاين رمىْ" عين ماء) ينم عن ازدواجية لغوية زائدة عن الحاجة، فإن الأقرب إلى الافتراض، هو أن الكاتب أخطأ فى تهجئة الاسم منبتاح. وقد علمنا من خلال الكتابات التى خلفها هذا الفرعون أنه أطلق إسمه - تشبهًا بأبيه رعمسيس - على عدد من المناطق والقلاع فى أرض فلسطين وشبه جزيرة سيناء.

غروب شمس السيادة المصرية على أرض كنعان

حتى بعد وفاة مرنبتاح أيضاً، عندما أفل نجم السلطات المصرية في كنعان لمدة جيل، وتبرهن على ذلك أدلة مختلفة في أرض فلسطين، مثل الجرار التي عثر عليها في تل فارعة (شروخان) غرب النقب، وكذلك في تل دير علا عند مصب نهر اليبوك بعبر الأردن. (مدينة سوكوت على ما يبدو). حيث أن الجرة الى عثر عليها في الموقع الأول تحمل اسم الفرعون سيتي الثاني. أما التي عثر عليها في الموقع الثاني فتحمل اسم زوجته، الملكة تا-فاسرت. كما أن هناك اكتشافات أخرى في تل دير علا تعود إلى نفس الفترة الزمنية، وتبرهن وبشكل يثير الدهشة، على وجود تأثيرات لشعوب البحر حتى في هذا المكان النائي. و تنتمى المعلومة المستقاة من يوميات الموظف المصرى المسئول عن الحدود إلى هذه الفترة (برديات أناساتاسى السادس، والتى تتعلق بمرور أحد القبائل المغيرة وبصحبتهم أنعامهم. قادمين من أرض أدوم، سائرين في اتجاه شرق الدلتا، نحو أرض جاسان، بحثاً عن الرزق، الأمر الذى يذكرنا بأحداث مشابهة في القصص الوارد عن أباء بنى إسرائيل.

وقد آل مصير الأسرة ١٩ إلى حالة هائلة من الفوضى قرابة عام ١٢٠٠ ق. م.، عندما أمسك بزمام الحكم شخص أجنبى يكتنفه الغموض، يدعى «أرسو» (يرسو) ولقبه «حارو» أى حورى، الأمر الذى يدلل على أصله الأسيوى. ويحتمل أن مسألة غزو حاكم من الشمال لمصر مرتبطة بشكل أو بآخر

بالأحداث التى جرت في أرض فلسطين، والتى تتردد أصداؤها في التراث «المقرائى» فربما المقصود هنا هو «كوشان رشعتايم». ملك آرام النهرين. أول من استعبد بنى إسرائيل في عصر القضاة (قض ٣: ٨ - ١٠)، وهو حاكم من شمال سوريا، احتل أراضى يهودا قبل ظهور الاستيطان الإسرائيلى، وهى فترة زمنية تتلائم مع نهاية الأسرة ١٩ في مصر، حيث من الصعب أن نفترض أن حملة غازية موسعة إلى هذا الحد قادمة من آرام النهرين إلى أرض

فلسطين، كانت تهدف إلى قمع بنى إسرائيل ليس إلا. والأكثر منطقية هو أن نفترض (إذا لم يتعذر علينا أن نصلح صيغة المقرا لتكون: «ملك أدوم» بدلاً من ملك أرام النهرين») أن الهدف الحقيقى كان غزو مصر، وإن الحرب التى نشبت مع سبط يهودا هى مجرد حدث عارض فحسب، حيث أن «المقرا» تنحو أحيانًا نحو ربط أحداث تاريخية عامة بتاريخ بنى إسرائيل، وبناء على هذا التخمين أيضًا، فإن خلاص بنى إسرائيل الذى تم على يدى عوتنيئيل بن قيناز، كان مرهونًا فى الأساس بطرد الغزاة الأجانب من مصر على يد الفرعون ستنحات مؤسس الأسرة ٢٠.

وقد كان رعمسيس الثالث، (١١٩٨ ـ ١١٦٦ ق. م، ووفقًا لتسلسل تاريخى أكثر تأخرًا [١١٨٢ ـ ١١٥١ ق. م] بن ستنحات، أخر الغزاة العظام فى التاريخ الفرعونى، حيث تمكن ولآخر مرة من بسط السيادة المصرية على أرض كنعان. وكانت أهم حروب رعمسيس بمثابة حرب حياة أو موت، ليس دفاعًا عن أرض كنعان فحسب، بل عن مصر ذاتها، وقد دارت مع شعوب البحر، الذى انقضوا بمنتهى القسوة على الحوض الشرقى للبحر المتوسط. وسيتم تناول هذه الأحداث، وخاصة الصدامات مع البلستين الذين يرد ذكرهم للمرة الأولى فى كتاباته، فى الفصل الخاص بالبلستيين. أما هنا فسيرد ذكر سائر ما قام به رعمسيس إزاء أرض كنعان.

لقد نجح رعمسيس فى حروبه ضد القبائل المغيرة، وسكان ساعير، الذين تزايدت ضغوطهم على الحدود المصرية، وحصّن عددًا من مدن كنعان ـ خاصة على طول الطريق الرئيسى ـ طريق البحر ـ ومن ضمن هذه المناطق مكان يسمى برج رعمسيس. وتدلنا الكتابات المصرية على العلاقات الوثيقة بين مصر وأرض كنعان، ومن خلال تلك الكتابات التى عثر عليها فى مجيدو، وبيت شان، أهم حصون السلطة المصرية فى شمال أرض فلسطين، وكذلك الأمتعة التى تحمل اسم الفرعون مثل جرة من جازر ووعاء عاجى من مجيدو. وفى بيت

شان، حيث عثر على تمثال للفرعون، أقام كسابقيه معبدين، من المحتمل أنهما: بيت داجون، وبيت عشتاروت الوارد ذكرهما فى المقرا (صموئيل الأول ٣١: ١٠ - أخبار الأيام الأول ١٠ - ١٠). وقد شيد المصريون في عهده معابد كثيرة فى أرض كنعان، أكثر مما شُيد فى أى فترة أخرى، ولم تعبد فى هذه المعابد الآلهة المصرية فحسب، بل آلهة كنعان المحلية أيضًا، وفيما يبدو أن ذلك قد حدث حتى يمنح المصريون لسلطتهم هناك طابع الشرعية والرسمية. كما أن هذه المعابد حملت مغزى اقتصاديًا بالغًا، حيث خُزنت بها القرابين والضرائب المقدمة من سكان كنعان إلى مصر. ففى برديات هاريس الأكبر تحصى تسع مدن من بلاد خارو، أى من أرض كنعان، ضمن الأملاك الوفيرة للإله آمون، إله الدولة المصرية، وكانت هذه المدن بمثابة بقاع مقدسة، ومساكن للكهنة، وربما صارت هذه المدن المقدسة المخصصة لسكنى الكهنة، نموذجًا يحتذى لمدن اللاويين والكهنة المعروفة فى المقرا؟

وبعد فترة قصيرة من انتعاش السيادة المصرية فى أرض كنعان فى عهد رعمسيس الثالث، تهاوت دعائم هذه السيادة بعد موته، وآخر أثر يفيد تواجد النفوذ المصرى فى أرض فلسطين هو نصب تذكارى يرجع لعصر رعمسيس الخامس فى مجيدو يرجع إلى منتصف القرن الـ ١٢ ق. م. وتدل قصة الرحالة المصرى ون - آمون، الذى أبحر فى بداية حكم الأسرة الـ ٢١ (١٠٨٠ ق. م. تقريبًا) باتجاه جبيل، بوضوح شديد على تلاشى النفوذ المصرى حتى من منطقة الساحل الفينيقى، الذى ظل تحت سيطرتها مئات السنين. وقد تسبب تعاظم القوة الآشورية واحتلال الملك تجلات بلا سر الأول (١١١٤ - ١٠٧٦ ق. م تقريبًا) لبنان والموانئ الفينيقية، والتى فرض الجزية على ثلاثة منهن: أرود، جبيل، صيدا، فى إقصاء السيادة المصرية عن الساحل الفينيقى. ولعل هذا يفسر تلك المعاملة المهينة التى كانت من نصيب وفى - آمون ورسل مصريين آخرين أموا رحاب زاخار - بعل ملك جبيل فى هذه الفترة. ويبدو أن مصر

حاولت فى هذه الأونة أن تنسج علاقات طيبة مع آشور، التى أمست عنصراً سياسيًا فى منطقة الساحل الفينيقى، ويدلنا على ذلك، تلك الحيوانات النادرة، والكائنات النيلية التى أرسلها الفرعون إلى ملك آشور كبادرة تشير إلى حسن النوايا.

بيد أن حملة تجلات بلاسر الأول باتجاه الغرب كانت حدثًا عارضًا وطارئًا، حيث أن آشور اضطرت للانتظار مدة تزيد عن ٢٠٠ عامًا حتى نجحت فى إقامة مرتكز لنفسها عند ساحل البحر المتوسط. وقد كانت الأسباط الأرامية التى اجتاحت بجموعها الغفيرة منطقتى الفرات وسوريا (اعتباراً من أواخر القرن الـ ١٢ ق. م) تمثل العقبة الرئيسية التى حالت دون احتلال تجلات بلاسر الأول وخلفائه لسوريا، ويدلنا على منعة الأراميين - الذي ير ذكرهم للمرة الأولى صراحة فى نقوش تجلات بلاسر - وصعوبة إلحاق الهزيمة بهم، ما جاء على لسان ملك آشور الذى اضطر لشن ثمان وعشرون حملة ضدهم فيما وراء الفرات، بينما هو يطارد فلولهم حتى واحة تدمر وتلال لبنان. وبعد ذلك بثلاثة أجيال. حارب الأراميون - بعد أن انتظموا فى دول - شاؤل وداود من أجل بسط نفوذهم على منطقة لبنان وشمال عبر الأردن. أما فى أرض فلسطين نفسها، حيث تقوضت دعائم السيادة المصرية هناك، ولم تكن آشور قد بلغت بعد منزلة عنصر سياسى بارز، تفاقمت الصراعات فى القرنين ١٢ - ١١ ق. م فيما بين القوى المحلية ذاتها، ولعب بنو إسرائيل دوراً محوريًا فى هذا الصراع. إذ تعين عليهم مراراً وتكراراً أن يحاربوا السكان الكنعانيين، أصحاب الأرض الأصليين، والقبائل المغيرة من الصحراء، وممالك الحدود الواقعة شرقى عبر الأردن، وأخيراً مع البالستيين.

بدايات تاريخ العبرانيين

مما لاشك فيه، أن الأيام الأولى لأى أمه أو لغة تكون دائماً محاطة بالغموض، حيث لا تكون هناك إلا بعض الذكريات الباهتة ذات القيمة التاريخية، على أى نحو، من الممكن أن تشق طريقا لها عبر تسلسل الأجيال. ويرى البعض أن العبرانيين يتميزون بالفرادة بين سائر شعوب الشرق القديم، وذلك لأنهم حافظوا على مرويات شفهية (تقاليد) متشعبة تضمها أسفار التوراة وسفر يشوع، حول أصلهم وتاريخهم قبل أن يظهروا ككيان متبلور فى المجال الدولى القديم. وفى الحقيقة، فقد كانت لجيران العبرانيين تقاليد قومية على غرار ماخلفه العبرانيون، حسبما تشير إلى ذلك أقوال النبى عاموس: «ألم أصعد إسرائيل من ارض مصر والفلسطينيين من كفتور والآراميين من قير» (الإصحاح التاسع آية ٧). ومعنى هذا، أنه بعد أربعمائة سنة تقريباً بعد استقرار الفلسطينيين والآراميين فى أماكن استيطانهم التاريخية، كانت مازلت تتردد فى المنطقة أصداء عن أصلهم القديم وعن هجرتهم من بلادهم الأصلية.

وهناك سؤال هام يفرض نفسه فيما يتصل بمدى موثوقية المادة التاريخية الواردة فى كتاب «العهد القديم» وعن بداية تاريخ العبرانيين أو بنى إسرائيل، بمعنى، هل المعلومات الواردة فى قصص الآباء الواردة فى سفر التكوين عن أن أصل آباء بنى إسرائيل هو من بلاد مابين النهرين، وعن هجرتهم إلى أرض كنعان، وعن صورة حياة الآباء فى هذه البلاد بأشكالها الإجتماعية والدينية، وعن قصة الاستعباد فى مصر والخروج والتيه فى الصحراء، وأخيراً عن احتلال أرض فلسطين، هى معلومات تعكس أحداثاً تاريخية حقيقية؟.

إن المؤرخ مازال يصادف صعوبة منهجية خطيرة فيما يتصل بصحة المصادر المتاحة له بشأن هذه الأحداث. فهو من ناحية، عليه أن يدعم صياغة بداية شعب إسرائيل بناء على شهادة هذا الشعب نفسه، أى من خلال الاستناد لما هو وارد فى العهد القديم، بالرغم من كل المحاذير التى ينطوى

عليها الأخذ بهذه الوثيقة كوثيقة تاريخية ذات مصداقية. ومن ناحية أخرى، فانه من المحظور على المؤرخ أن ينسى أن الوثيقة «التاناخية» (نسبة إلى «التاناخ» وهو كتاب العهد القديم) نفسها على صورتها اليوم قد تحددت على هذا النحو بعد الأحداث التى وصفتها بأجيال كثيرة وعلى أساس تقاليد (مرويات) شفوية ومصادر قديمة مكتوبة مختلفة من حيث طابعها وقيمتها التاريخية. ومن المعروف أن تدوين العهد القديم قد أصبح على هذا النحو كعمل عضوى وزمنى (كرونولوجى) متتابع بعد نشاط أدبى مستمر ومتنوع من الاختيار بين التقاليد المختلفة، ودمجها وإعدادها، سواء بالطريقة التى شكلت «شريعة الوثائق» الارثوذكسية فى دراسة العهد القديم، أو بطرق أخرى مقبولة اكثر (مثل بلورة «طبقات» أو «موضوعات» أدبية حسب النظرية التى تبلورت أخيراً فى بحث الدراسات الالمانية). وعلاوة على ذلك، فإن الصورة البسيطة والوحيدة التى يثيرها العهد القديم عما قبل التاريخ الإسرائيلى هى ثمرة وجهة نظر إسرائيلية متأخرة ذات هدف تاريخى خاص، يرمى إلى جعل التاريخ القديم للعبرانيين ذو أساس قومى عام إسرائيلى واسع.

وقد تخبط الباحثون فى هذا الموضوع منذ بداية النقد العلمى للعهد القديم وبالغوا فى الحلول التى طرحوها ولم يكن هذا يعنى أن هناك موقفا سلبيا بارزاً تجاه الثقة فى تاريخية التقاليد (المرويات الشفهية) المقرائيةً، (نسبة إلى «المقرا» وهو الاسم العبرى لكتاب العهد القديم) وهو الأمر الذى ظهر بدرجات مختلفة من الشدة، فى مدرسة البحث الألمانى البروتستانتى، وذلك لأنه كانت هناك استثناءات لهذا بين دوائر الباحثين فى أوروبا الغربية وفى الولايات المتحدة الأمريكية أبدت بعض الملاحظات حول هذه المرويات الشفهية.

وقد تناول أسلوب نقد العهد القديم، والذى سار على نهج مدرسة فلها وزن، التقاليد المقرائية بالرفض التام، واعتبر أنها انعكاس متأخر، يرجع إلى أيام الملكية ومابعدها. وعلى سبيل المثال، فإن الخلافات بين يعقوب وعيسو وتفضيل الأول عن أخيه فى الحصول على بركة أبيهم، لا تعكس من وجهة

نظرهم، إلا علاقات العداء بين إسرائيل وآدوم في أيام الملكية واستعباد آدوم على يد داود.

وقد ظهرت على يد مدرسة فلها وزن بمرور الزمن نظريات مختلفة ومتغيرة مثل المدرسة الميثولوجية (الخرافية أو المتعلقة بالأساطير) التي ترجع إلى بداية هذا القرن، والتي نظرت إلى آباء بني إسرائيل بإعتبارهم شخصيات آلهة أساسا، تحولت إلى بشر عاديين، و «اخترعت» عن طريق الأسطورة.

قصص العهد القديم التي تصف إسرائيل حتى أيام الملكية:

إن وجهة النظر الشائعة حالياً في البحث، والتي هي نتيجة لتأثير المدرسة المشار إليها سابقاً، وهي وجهة النظر المقبولة بشكل أو بآخر لدى الكثيرين من المؤرخين وباحثي العهد القديم، حتى في خارج ألمانيا، تتجلى أساسا في نظرية الباحثين أ. آلت وم. نوط. وتذهب هذه المدرسة إلى أن بني إسرائيل لم يصبحوا شعباً إلا على ارض كنعان وفي مرحلة متأخرة، أي ليس في القرن الثاني عشر ق.م، عن طريق التجمع التدريجي للأسباط الاثنا عشر الذين كان العامل المشترك بينهم هو الأيمان بالرب.

ويرى نوط، بصفة خاصة، أن تجمع هذه القبائل كان بمثابة «حلف انفكتيوني» (أي تجمع الأسباط حول مركز عبادي مشترك، كان في البداية في نابلس (شكيم) ثم انتقل من هناك إلى بيت إيل»، ثم انتقل أخيراً إلى شيلو). ومعنى هذا رفض الروايات القائلة بوجود علاقة منذ البداية بين أسباط إسرائيل ومصيرهم المشترك قبل غزوهم لأرض كنعان. وبناءً على هذا، فإن ماهو وارد في العهد القديم بشأن الاحتلال العسكري لأرض كنعان يكون هو الآخر مرفوضا، حيث ترى هذه المدرسة أن غزو أسباط إسرائيل لأرض كنعان قد تم عن طريق التسلل الهادئ، الذي تم بسبب دورات الري الموسمية العادية من أطراف الصحراء إلى حيث الأراضي المزروعة، حسب عادة الأسباط شبه الجوالة عبر كل العصور. والأكثر تطرفاً من هذا، تلك الفرضية التي خرج بها مؤخراً ج. مند نهول، الذي يرفض رواية دخول بني

إسرائيل إلى أرض كنعان من الخارج، مفترضا أن اليهود قد تبلوروا كطائفة دينية من عناصر مختلفة كانت تعيش فى الاستيطان الكنعانى المحلى من خلال ثورة إجتماعية وسياسية.

ومن أجل توضيح صياغة الروايات «التاناخية» (نسبة إلى العهد القديم «الذى يسمى بالعبرية» «التاناخ») نشير إلي أن علم الدراسة النقدية للعهد القديم، يحتاج حسبما تجلى فى نظرية آلت ونوط، إلى تكنيك التحليل الأدبى القائم على عدة افتراضات ومبادئ. وسوف نورد فيما يلى عدة نماذج من قضية احتلال كنعان وفقا للتفسير الايثيولوجى (اللاهوتى) الذى أصبح عنصراً رئيسا فى تدوين أسفار التوراة وسفر يشوع. وهنا نؤكد الرأى العلمى الخاص بهم بشأن «تأميم» التقاليد التاناخية، التى كانت أساساً، وفقا لهذه الفرضية، ذات أساس قبلى ومحلى محدود. إن هذه المرويات الشفهية القديمة، التى كانت لدى الأسباط المنعزلة منذ أيام تيههم على حدود البلاد، قد نقلت حسب وجهة النظر هذه إلى أرض كنعان مع استيطان الأسباط فيها، وارتبطت بالمناطق التى استقروا فيها. وعلاوة على ذلك، فإن أماكن العبادة، مثل «شكيم» (نابلس) و بيت إيل التى فى تقاليد الآباء، وشكيم وجلجال التى فى تقاليد الاحتلال، قد شكلت طابع صياغة القصة أو كانت مصدراً لها. وبعد أن تجمعت الأسباط فى إطار شعب إسرائيل «أممت» القصص القبلية وطبعت بطابع قومى شامل. ولم يكن أبراهام وإسحق ويعقوب إلا رؤساء قبائل منفصلة، أقاموا فى البداية على حدود صحراء أرض فلسطين، وفقط مع مرور الزمن جاء المدونون وحولوهم إلى شخصيات إسرائيلية عامة ودمجوها فى إطار سلسلة أنساب لآباء شعب إسرائيل.

وخلاصة الأمر، تبعاً لهذه المدرسة ومن على شاكلتها، يعتبر كل التاريخ الخاص بالعهد القديم (التاناخى) السابق لعصر القضاة بمثابة رواية.

وبالإضافة إلى وجهة النظر النقدية هذه للعهد القديم ورواياته، توجد مدرسة أخرى يتزعمها و.ف. أولبرايت ترى أن الكثير مما هو وارد فى العهد القديم يمكن الاعتماد عليه كأساس تاريخى موثوق فيه لاسترجاع فترة ماقبل التاريخ الإسرائيلى.

ويهتم الباحثون اليهود برأى هذه المدرسة ويحاولون الترويج له لأنه يعطى أهمية كبيرة للاعتقاد الراسخ بشكل أكيد فى الوعى الإسرائيلى بشأن وجود علاقة أكيدة ومصدراً مشتركا لكل أسباط إسرائيل، حيث انه بهذه الطريقة يمكن التوصل إلى تفسير مقبول لخلق العضوية القومية التى ظهرت فى ارض كنعان بعد مرور أجيال على ضفتى نهر الأردن بين هذه الأسباط فى إطار الملكية، حسبما هو وارد فى أسفار العهد القديم.

وقد انبرى الكثيرون من الباحثين اليهود للرد على وجهة نظر آلت - نوط، وكان أشهر من قام بهذا العالم الإسرائيلى حزقيال كويفمان، الذى أخذ على عاتقه تفنيد كل بنود وجهة نظر هذه المدرسة مما جعله يقع فى تطرف واضح جعله يقبل الرواية التاريخية «التاناخية» بأسرها، وبكل تفاصيلها تقريبا، بإعتبارها مصدراً موثوقاً فيه للتاريخ اليهودى. ولكنه ذهب بعيداً حينما افترض أن «الطبقات» الأدبية المبلورة فى العهد القديم تعكس بدقة فروقا تاريخية زمنية حقيقية. وعلى أى الحالات، فبالرغم من الميل لوجهة النظر التى يمكن أن تقبل الرواية «التاناخية»، إلا أننا يجب أن نتحفظ من الانجراف فى تيار القبول المطلق لروايات العهد القديم دون مراجعة، إذ لابد دائما أن يتعرض كل ماهو مكتوب للنقد الدقيق، لأنه من طبيعة الأمور أن تشتمل هذه الروايات على عناصر أسطورية بالإضافة إلى وجهات نظر متصلة بالمفارقات التاريخية المتأخرة، سواء من حيث التفاصيل أو من حيث الخطوط العامة (مثل الاتجاه لتوسيع الأساسى القومى)، وهو ثمرة عمل المحررين المتأخرين. وبشأن الديالكتيك (الجدل) الذى ينحاز لاستخدام المصدر «التاناخى»، فى مقابل المناهج ذات الجانب الواحد، تشهد المناقشات حول قضية احتلال ارض كنعان واستقرار القبائل العبرية فيها، وسنتحدث فى النقطة التالية عن أباء شعب إسرائيل، وهى القضية التى تحظي بخلاف كبير بين الباحثين.

الآباء فى العهد القديم وفى البحث:

يوافق الباحثون الذين يقرون أسس التقاليد (الروايات) المقرائية على أن زمن الخروج من مصر واحتلال ارض كنعان، أو على الأقل المراحل الحاسمة

لهذه الأحداث، قد وقع فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد. ولكن الأمر ليس على هذا النحو إذا ما تدخلت العوامل الزمنية «لعصر الآباء» وهو الموضوع الذى اختلفت الآراء حوله. إن أصحاب المدرسة النقدية وعلى رأسهم أولبرايت، وسبيزر وديفو والباحث الإسرائيلى ش. يابين، يرون أن هذه الفترة هى النصف الأول من الألف الثانية ق.م، وبصورة خاصة بداية هذه الفترة الزمنية، أى خلال العصر البرونزى الأوسط. وهم يستندون فى هذا، من بين مايستندون إليه، إلى الوثيقة الأثرية التى تم اكتشافها فى شرق الأردن وفى صحراء النقب وعلى الاكتشافات التى تم العثور عليها فى منطقة مارى.

وقد وجدوا فى العهد القديم ماراوا أنه يمثل دليلاً على وجهة النظر هذه فى أسفار المكتوبات، حيث توجد إشارة إلى أن فترة استعباد اليهود فى مصر استمرت ٤٠٠ سنة (التكوين ١٥: ١٣) أو ٤٣٠ سنة (الخروج ١٢: ٤٠ - ٤١). ولكن الباحثين الذين جاءوا بعد ذلك (معظم الباحثين ومن بينهم ى. كويفمان. وك. جوردون وأ. ايسفالدت) اقترحوا إرجاع فترة عصر الآباء إلى القرن الرابع عشر ق.م، استناداً إلى أيام الاحتلال والاستيطان، التى يرجعونها إلى فترة تل العمارنة.

وقد وجدوا أدلة على ذلك فى العهد القديم، وعلى الأخص فى إحصاء الأجيال (قارن التكوين ١٥ - ١٦ - ٨ الجيل الرابع يقيم هنا)، وفى روايات تتابع الأجيال والتى بموجبها يعتبر موسى - الذى يمكن إرجاعه إلى القرن ١٣ق.م، كان بمثابة الجيل الرابع ليعقوب (يعقوب - لاوى - كاهت - عمرام - موسى، الخروج ١٦: ٦ - -٢). ولكن الأدلة الزمنية داخل العهد القديم محل شك فى هذا الموضوع، وذلك لأن المضمون الحقيقى للأرقام الواردة فى العهد القديم ليس مؤكداً بما فيه الكفاية من ناحية، ولأنه يجب ألا نعتبر قوائم الأنساب هذه ذات قيمة زمنية كبيرة وذلك بسبب طابعها الاختيارى. والدليل على ذلك، مثلا، الأنساب الأكثر اكتمالا بالنسبة ليشوع الذى كان الجيل العاشر بالنسبة ليعقوب فى مقابل أنساب موسى غير المكتملة.

وفى الحقيقة، فإن محاولات تحديد تاريخ دقيق، إن قليلا أو كثيراً، لآباء شعب إسرائيل هى مسألة محل خلاف، وذلك لأنه من الصعب التحدث عن «عصر الآبا» بإعتباره عملية محددة وملموسة من الناحية الزمنية، حتى ولو كنا لا نود أن نرفض نفس الروايات «التاناخية».

ويبدو أنه فى سياق قصص الآباء قد ترسبت ذكريات لتطورات تاريخية ترجع إلى مئات السنين، ربما كان بدايتها ذلك التيه السامى الغربى فى منطقة الهلال الخصيب وفى اتجاه الغرب، وهو التيه الذى وصل إلى ذروته فى الربع الأول من الألف الثانية قبل الميلادى. وهذه المراحل الزمنية الواسعة قد أدمجت فى الروايات «التاناخية» فى إطار ضيق ينحصر فى ثلاثة أجيال - وهى فترة زمنية، تشهد عليها التقاليد التاريخية الشائعة بين المجتمعات القبلية البدائية فى أيامنا - والتى تتجلى فى حصر هذه الفترة فى كل من إبراهيم واسحق ويعقوب.

ولكن بالاضافة إلى أن روايات العهد القديم تهتم بهؤلاء الآباء الثلاثة كشخصيات فردية وكممثلين لفترات تاريخية، فإن العهد القديم يعلق عليهم مهاما متصلة بالمستقبل، أهمها وعد النسل وانفر ادية النسل الإسرائيلى والوعد بالأرض التى سيرثها الأحفاد، وهى الأشياء التى تتكرر عبر المكتوبات اليهودية (مثل قول الرب لإبراهيم «أجعلك أمة عظيمة...» لنسلك أعط هذه الأرض «التكوين ١٢:٢، ٧») . وبناء على هذا، فإن أساس أهمية الأباء هم كونهم موضوعات للتجلى الإلهى وبإعتبارهم عاقدى العهد الذى قطعه الرب مع إبراهيم، ونواة هذا العهد هى رسالة الشعب المختار. و «إله الأباء» هوإله ذو طابع خاص يقيم علاقات شخصية ودية مع أسرة الأ باء ويدافع عنها فى تيهها، ومع هذا فهو إله بلا إسم، وبلا عالم، تطلق عليه أسماء غامضة مثل: «إله إبراهيم واسحق ويعقوب»، «خوف اسحق» و «بطل يعقوب»، وهذا الرب يظهر للآباء فى أماكن إقامتهم فى أرض كنعان، ومرة أخرى تطلق عليه أسماء عامة مثل: «إله العالم» و «الإله الأعلى»، وعلى الأخص « اللّه القوى»، أو يسمى بأسماء مرتبطة باسم مكان مثل «إله رئى» و «إله بيت آيل». وربما

كانت هـذه الأسماء الإلهية ترمز إلى آلهة كنعانية محلية أساسا، وذلك وفقا ماتشير إليه الوثـائق الاوجاريتية والتى كان الإلـه «إيل»، وفقا لهما، هو رئيس القـبيلة الكنعانيـة، ولكن الآباء ربطوا هـذه الأسـمـاء بإصطلاحات الألوهية التى أحضروها معهم من بلاد مابـين النهرين. وعلى أى حال، فقد اتضح أن اكتشاف اسم الإله وعقيدة التوحيد الخالصة، والمرتبطـة بهذا الاكتشـاف يرجع إلى أيام موسى وذلك مايكشف عنه سياق السرد فى سفر التكوين.

وبالرغم من أن تجوال الآباء عبر البـلاد طولا وعرضا قد وصف فى سفر التكوين من خلال شكل دينى مرتبط بتقديس أماكن معينة عن طريق إقامـة المذابح والنصب التـذكارية، فإن المصـدر «التـاناخى» يبرز بوضـوح صورة الآباء بإعتبرهم شبه رحالة، كانوا معتادين على الانتقال من مكان لآخر فى إطار منطقة الجبل الرئيسى وصحراء النقب وغيرها لدى مرورهم على مدن كنعان. وقد أقاموا خيامهم كذلك بجوار شكيم (التكوين ١٢:٦)، وبين بيت إيل وعـاى (تكوين ١٢:٨) وبـجـوار الخليل (حـبـرون) (تكوين ١٣: ١٨)، وبجـوار بئـر سـبع (تكوين ٢٦: ٢٥) و «من هنـاك إلى مـجـدل عـرار» (تكوين ٣٥: ٢١). وكانـوا متمـتعين بعهد الحماية من سادة البلاد الكنعانيين وعقدوا معهم علاقات سلام، حسبما يتـضح من علاقـة إبراهيـم بملكى صادق ملك شكيم (التكوين ١٤: ١٨ - ٢٠) ومع أبيـمـالك ملك جـرار (تكوين ٢٠، ٢٦)، وكذلك يتضح هذا من الفقرة الخاصـة بشراء مغارة المكفلة من عفرون الحيثى (تكوين ٢٣). وفى بعض الأحيان نجد أنهم ذهبوا فى تجوالهم بعيدا عن قـاعـدتهم وذلك لدى سعـيـهم وراء المراعى، وذلك على غرار مـافعل أبناء يعقـوب الذي خرجـوا من وادى حبـرون إلى منطقـة شكيم «لكى يرعـوا غنم أبيهم» (تكوين ٣٧: ٢٢ فصاعدا).

وليس هناك أى معنى لإنكار الطابع شبه الرعوى للآباء وتقبل الاعتقاد، الذى شـاع مؤخرا، بأنهم كانوا يتعيشـون عن طريق تجارة القوافل الدولية، وكان هناك كذلك من ذهبوا إلى أبعد من ذلك واعتبروا إن الآباء كانوا تجارا محترمين. والفيصل فى هذا الموضـوع هو الدليل «التـاناخى» الذى يؤكد أن طابع حياة الآباء كان طابع الرعاة النمـوذجيين، الذين يتعيشـون على رعى

الغنم والبقر لديهم خبرة فى مجال الزراعة الموسمية، وذلك حسبما هو وارد فى قصة اسحق فى جرار (التكوين ٢٦: ٢٢). ويتفق هذا الطابع الإجتماعى الاقتصادى مع نظام حكم حياة الآباء الموصوف بإعتباره حكما بطريركيا واضحا.

وبالنسبة للموثوقية الخاصة بالروايات (التقاليد) الشفهية بشأن الآباء تبرز تلك الطبيعة المزدوجة التى أشرنا إليها قبلا فى المقدمة التاريخية. فمن ناحية حفظت فيها مادة قديمة موثوق فيها، من ناحية أخرى، تطل منها مفارقات تاريخية متأخرة. إن الكثير من نمط حياة الآباء عن النظم الإجتماعية والقانونية، وعن المعتقدات والسلوكيات الخلقية بأنواعها، وعن المجال الجغرافى الاستيطانى وطرق التجوال، كل هذا يتداخل وأحيانا بصورة مفاجئة، مع الواقع التاريخى الشامل لما قبل الاحتلال الإسرائيلى حسبما هو معروف الآن وفقا للاكتشافات الجديدة. وفى موضوعات كثيرة تتناقص الصورة الواردة فى قصص الآباء مع الواقع المتأخر الذى يرجع إلى أيام الاستيطان والملكية، أو أنها على الأقل لا مغزى لها تجاهه، وبالتالى فإنه لا يحتمل أن تكون خلفية هذه القصص نتيجة لانعكاس متأخر. ويمكن أن نعثر على النموذج الملموس على ذلك فى أسماء الآباء وأسماء أبناء أسرهم، وهى الأسماء التى لها مايقابلها كثيراً فى الوثائق الاكادية والمصرية التى ترجع إلى الفترة من الألف الثانية ق.م حتى الربع الأخير من هذه الألفية، حيث أن الغالبية العظمى من هذه الأسماء لم تعد مستعملة فى أزمنة لاحقة لذلك، ومعنى هذا، أنها اعتبرت أسماء قديمة.

ومما يثير الدهشة حقا فى بعض الأحيان مدى الدقة التى جعلت التقاليد الشفهية تحافظ على تفاصيل قديمة إلى هذا الحد، لدرجة أن المحررين المتأخرين لم يكونوا يعرفون أحيانا مغزاها الأولى.

وبالإضافة إلى هذا فإن فحص التقاليد الشفهية للآباء كل جزء على حدة، يوضح انه إلى جانب التفاصيل القديمة والموثوقة، توجد سلسلة طويلة من المفارقات التاريخية التى تعكس زمن تأليف سفر التكوين، من بينها

مفارقات تاريخية واضحة، أدركها بعض مفسرى العصر الوسيط مثل ابن عزرا، وخاصة فيما يتصل بعصر كتابة سفر الخروج، ومن بينها مفارقات تاريخية غامضة لا يمكن اكتشافها إلا عن طريق البحث المعمق. والمثال على وجهة نظر المفارقة التاريخية فى وصف طابع حياة الآباء، هو احتياج الآباء للجمل (التكوين ١٢:١٦؛ ٣٠:٤٣؛ ٣١:١٧)، حيث أن ترويض الجمل واستخدامه من أجل الأسفار قد بدأ فقط فى القرن ١٢ ق.م.

وليست هذه جزئية شكلية، بل هى فارق عميق فى حياة المجتمع بين الرحالة الكاملين، الذين يعيشون فى الصحارى وحيوانهم هو الجمل، وبين أشباه الرحالة مثل آباء شعب إسرائيل، الذين يعيشون داخل إطار الاستيطان الدائم وعلى حدود الأرض المزروعة ويحتاجون إلى الحمير والأتن فى تجوالهم وفى نقل متاعهم. وتكثر المفارقات التاريخية بصفة خاصة فى المجال الجغرافى. والمثال على ذلك، ذكر مدينة دان (التكوين ١٤:١٤) التى كانت تسمى ليش قبل الاحتلال الإسرائيلى وتشهد على ذلك وثائق مارى. وفى المجال الانثريولوجى الوصفى - يرد ذكر الفلسطينيين فى قضية اسحق وابيمالك ملك جرار، الذى يسمى أيضاً **"ملك الفلسطينيين" (التكوين ٢٦: ١، ١٤:١٧) (بالرغم من اسمه الكنعانى الواضح)**، مع أن هذا الشعب ظهر على حدود ارض كنعان فقط فى بداية القرن ١٢ق.م وانتظم فى مملكة فى مرحلة متأخرة عن هذا التاريخ.

وينطبق نفس الحكم بالنسبة للآراميين، الذين تدخلهم التقاليد الشفهية مع آباء شعب إسرائيل. فهم من ناحية أقاموا علاقات زواج مع بيت لابان الآرامى (**تكوين ٢٥:٢٠**) وربما سمى بسبب ذلك بالآرامى (**التكوين ٢٥:٢٠**)، ومن ناحية أخرى سميت منطقة إقامتهم باسم فدان آرام أو آرام النهرين. ولكن المصادر الخارجية لاتشير بتأكيد إلى وجود قبائل آرامية قبل نهاية القرن ١٢ ق.م، حيث أغاروا بجموعهم على المنطقة المسماة فى التوراة باسم «آرام النهرين» والمسماة فى الوثائق الخارجية القديمة باسم **"النهرين"** فقط. وذلك فإننا يجب أن نعتبر أن آرامية» الآباء تمثل وجهة نظر تحوى مفارقة تاريخية متأخرة، ولذلك فإنه لا يوجد أساس قوى كذلك للرأى الشائع بين

الباحثين بأن بنى إسرائيل هم أصلا من الآراميين أو "ماقبل الآراميين". والحقيقة هى أن بنى إسرائيل يعدون من طبقة قديمة من القبائل السامية الغربية، تسمى وفقا لما هو شائع علميا "الاموريون" (خلافا للاموري الوارد فى التوراة)، وهم الذين ظهروا فى بلاد الهلال الخصيب فى نهاية الألف الثالثة ق.م.

الآباء على ضوء الاكتشافات الحديثة:

تحتوى الاكتشافات الكثيرة التى تم التوصل إليها، وخاصة خلال الخمسين سنة الأخيرة، على مايفسر الإطار الذى تم من خلاله صياغة التاريخ العبرى. فمن ناحية، كثرت المعلومات عن القبائل السامية الغربية فى ميزوبوتاميا الذين ينتمى إليهم آباء بنى إسرائيل، كما قلنا من قبل، ومن ناحية أخرى ازدادت معلوماتنا عن كنعان وسكانها خلال القرنين السابقين لاحتلال البلاد وتبلور الشعب اليهودى داخلها بشكل عميق. وفى الحقيقة، فإنه لم يتم العثور على القرائن المباشرة أو "الأدلة" بالمفهوم الرياضى، فيما يتصل بوجود الآباء، ويعتبر البحث عن هذه الأدلة بمثابة سعى مبالغ فيه. ولكن فيما يتصل بهذا الخصوص، نجد أن بعضا من آباء إبراهيم المذكورين فى قائمة انساب آباء الأمة العبرية (تكوين ١١) مثل شاروج، وتارح وكذلك ناحور، قد تم العثور عليهم فى المصادر الخارجية كأسماء لأماكن فى منطقة حاران، وهى البلد التى بدأ منها التاريخ العبرى (ناحور يظهر فى التوراة نفسها تكوين ١٤: ١٠ باعتباره اسم مدينة). ومعنى هذا أن مادة المقارنة الخارجية هى بالفعل بمثابة شهادة عرضية فقط، ولكن قيمتها هائلة من ناحية التصنيف.

وهناك أهمية من الدرجة الأولى للمصادر «الأبيجرافية» (النقوش المكتوبة)، وأهمية أقل من هذا بالنسبة للاكتشافات الأثرية. وسوف نورد فى البداية بعضا من الاكتشافات الأثرية ذات المغزى بالنسبة لتقدير المرويات الشفهية عن الآباء. ومن بين هذه الاكتشافات الهامة بعض ماتم العثور عليه فى فلسطين خلال السنوات الأخيرة ويرجع إلى العصر البرونزى الأوسط بالذات، أى إلى حوالى النصف الأول من الألف الثانى قبل الميلاد. وحيث أن

الآباء لم يكونوا من السكان الدائمين ومن خالقى الحضارة المدنية، بل كانوا فى حالة تجوال وكانوا من ساكنى الخيام، فقد اتضح أن المادة الأثرية التى بين أيدينا، أكثر مما تلقى ضوءاً على حياة الآباء، فإنها تلقى الضوء على كل مايتصل بموتهم وطرق دفنهم. ففى منطقة ما . توجد إشارة إلى منطقة مدافن أسرية فى مغارة المكفلة فى ضواحى مدينة الخليل (تكوين ٢٣)، وفى منطقة أخرى عن قبر راحيل لدى موتها عند تقاطع طرق لدى تجوالها:«فماتت راحيل ودفنت فى طريق أفراته، التى هى بيت لحم. فنصب يعقوب عموداً وهو عمود قبر راحيل حتى اليوم» (تكوين ٣٥: ١٩-٢٠). وفيما يتصل بطرق الدفن هذه والتى تختلف اختلافاً تاماً عن تلك التى كانت تميز القبائل شبه المتجولة، والذين لايحرصون على دفن موتاهم أثناء التجوال وكانوا يبحثون عن الحماية فى ظل إحدى المدن الكنعانية ويسعون لدفن موتاهم فيها، يكون هذا الاكتشاف الأثرى فى فلسطين والذى يرجع للعصر البرونزى الأول ذو أهمية. ففى البداية كان يتم العثور على قبور منعزلة على جوانب الطرق دون أى ارتباط بالاستيطان الحضارى، ومن ناحية أخرى، تم العثور فى حفائر المدن الكنعانية على مقابر أسرية فاخرة، مثل تلك التى فى أريحا. وتم العثور على قبور تشتمل فى المتوسط على عشرة هياكل بشرية لرجال، ونساء وأطفال، بما يؤكد أن هذه المقابر مقابر عمومية كانت تستخدم عبر عدة أجيال مثل مغارة المكفلة.

وقد تم العثور فى القانون الحيثى على شواهد مماثلة لتلك المساومة التى جرت بين إبراهيم وعفرون الحيثى حول شراء المقبرة. وتمثل قضية مغارة المكفلة الاختلاف بين السكان الدائمين فى كنعان وبين العائلات الجوالة التى فى حاجة إلى مقابر لها.

وهناك استنتاج آخر، ربما كان له مغزى تاريخى كبير، آثاره البحث الأثرى فى منطقة النقب، وهو البحث الذى قام به نلسون جليلك وآخرين خلال الخمسينيات من القرن العشرين، حيث اتضح أنه كانت توجد فى النقب عشرات المستوطنات التى ازدهرت فى المرحلة السابقة للعصر البرونزى

الأوسط، وأنه خلال حوالى ١٩٠٠ ق.م، وربما بعد ذلك بعدة أجيال، تم تخريب هذا الاستيطان الدائم، وأصبحت صحراء النقب أرضا جرداء لمئات من السنين حتى حوالى عصر الملكية الإسرائيلية. والسؤال الآن هو كيف يمكن تطبيق هذه المعلومات على ماهو وارد فى قصص الآباء؟ تقول التوراة عن إبراهيم: «وانتقل إبراهيم من هناك إلى أر ض الجنوب وسكن بين قادش وبين شور تغرب فى جرار» (تكوين ٢٠:١). وورد عن اسحق كذلك: «وأتى اسحق من ورود بئر لحى رئى إذ كان ساكنا فى أرض الجنوب» (تكوين ٢٤: ٦٢). وهنا نجد أن قصص التوراة تتحدث عن منطقة مأهولة بالسكان وآمنة. وهذا الاستنتاج فى الواقع من الممكن أن يكون حاسما بناء على اكتشافات جليك وأولبريت من بعده، فى تحديد فترة عصر الآباء بإعتبارها بداية الألف الثانية ق.م. وفيما عدا هذا من الجائز أيضا أن يكون ذلك الخراب العام الذى عم النقب وشرق الأردن جنوب اليرموك، قد ورد فى التوراة بشكل غامض بعض الشئ عن طريق الإشارات التاريخية وبالذات فى الإصحاح ١٤ من سفر التكوين. ففى هذا السفر توجد إشارة إلى حملة عسكرية واسعة لأربعة من ملوك الشمال بقيادة ملك عيلام، وقد ظلت هويتهم غامضة بالرغم من كل المحاولات التى بذلت من أجل ربطهم بشخصيات تاريخية، وقد استمرت هذه الحملة عبر كل طريق الملك شرق البلاد إلى النقب وصحراء سيناء، وهى الحملة التى تم فيها ضرب الملوك الخمسة الذي كانوا فى المنطقة الواقعة جنوب البحر الميت وسائر شعوب المنطقة. ولكن، من أجل توضيح الخلفية التاريخية للآباء تحتل النقوش المكتوبة (الابيجرافية) الغنية التى عثر عليها فى بلاد الشرق القديم اكثر من المادة الأثرية. ونحن نعنى بذلك عشرات الآلاف من الوثائق التى عثر عليها فى سوريا والعراق بالخط المسمارى وباللغة الاكادية، وإلى حد اقل من هذا، الوثائق التى عثر عليها فى مصر، وقد عثر فى فلسطين نفسها على كتابات قليلة جداً معدومة القيمة التاريخية بالنسبة لموضوعنا وترجع إلى الألف الثانى ق.م. ولن يمكننا هنا التعرض إلا لبعض من هذه الاكتشافات فقط، وهى تلك التى عثر عليها خلال الخمسين سنة الأخيرة وهى تعتبر حاسمة من حيث أهميتها لموضوعنا. ولن نحتاج كذلك هنا للوثائق الاوجاريتية، التى تم العثور عليها منذ عام ١٩٢٩

فى رأس الشمرة على الشاطى السورى، وذلك لأنه بالرغم من أهميتها بالنسبة لتاريخ وحضارة سوريا إلا أن قيمتها فيما يتصل بالتوراة تنحصر فى الجانب اللغوى والأدبى أساسا. ومن بين المصادر المصرية توجد أهمية من الدرجة الأولى لكتابات تل العمارنة التى تلقى ضوءاً كبيراً على كنعان وسكانها، وهى ترجع إلى القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن الثامن عشر ق.م.

وقد اتضح من هذه الاكتشافات أن الأسرة التى حكمت كنعان تنتمى إلى مجموعة الشعوب السامية الغربية وتدل على ذلك أسماءهم المركبة من أسماء مثل أب وعم وشيم وإيل، وهدد، ومن بينها اسم «أب ورهن» الذى يثير اهتماماً خاصا. كذلك فإن أسماء المناطق الواردة فى هذه المصادر يدل على تمدن اخذ الزيادة لأرض كنعان وعلى انقسامها إلى ولايات متعددة بالعشرات. وهنا يرد ذكر الأسماء القديمة لمدن البلاد مثل ليش التى كانت لفترة تسمى دان، ومدن الحدود، مثل شوتو وكوشو التى تتردد أسماؤها فى التوراة كتسميات قديمة لموآب «أبناء شت» (العدد ٢٤:١٧) ومدين «خيام كوشن» (حبقوق ٣:٧).

والاستنتاج الهام الذي نخرج به من رسائل تل العمارنة، هو أن مراكز الحكم كانت موجودة أساسا فى سهول فلسطين، بينما ذكرت نابلس والقدس (شيخيم وأورشليم) فقط فى الجبل الأوسط، وكانت منطقة تجوال الآباء بالذات فى منطقة الجبل الأوسط والنقب. وحقيقة أن كتابات العمارنة وقصص الآباء تعرض مجالات جغرافية مختلفة، هى حقيقة ذات مغزى كبير. والنتيجة المستفادة من ذلك هى، أنه ليس طابع الحياة البدائى للآباء هو الذى حال بينهم وبين البحث عن المعيشة فى الأقاليم الخصبة من البلاد، ولكنهم حيل بينهم وبين الدخول إلى سهول البلاد والوديان، التى كانت مأهولة بكثافة سكانية كبيرة على عكس الاستيطان الهزيل الموجود فى المنطقة الجبلية.

وننتقل بعد ذلك إلى اكتشافات ميزوبوتوميا منطقة المنبع الرئيسى للتاريخ العبرى. ونذكر أولاً وقبل كل شئ، الاكتشافات التى عثر عليها فى مدينة مارى (تل الحريرى حالياً)، التى تقع على شاطئ الفرات الأوسط على

بعد حوالى ٢٥ كم شمال الحدود بين سوريا والعراق. لقد تم العثور فى حفائر هذا الأثر عام ١٩٣٣، على قصر يرجع إلى عصر الأسر السامية الغربية، وهو قصر فريد فى نوعه من حيث أبعاده وفخامته والخزائن الملكية التى فيه. وتم العثور فيه على ٢٠ ألف وثيقة، لم يتم فك رموزها جميعا حتى الآن. وقد اتضح بسهولة من الصلة المثلثة بين وثائق مارى وآباء وشعب إسرائيل مايلى:

١) من ناحية الزمن: ترجع وثائق مارى إلى القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن الثامن عشر ق.م وفقاً للأسلوب الخاص بقياس الزمن وهى فترة معاصرة إن قليلاً أو كثيراً للإطار الزمنى لقصص الآباء.

٢) من ناحية الإطار الجغرافى: وردت منطقة آرام النهرين مرات متتالية فى هذه الوثائق. كما تبرز مدينة حاران وناحور، وهى المواطن القديمة للآباء وفقاً للتوراة، بإعتبارها مراكز هامة وبؤر للقبائل الجوالة وشبه الجوالة. واكثر من هذا، فإن أوصاف رحلات القبائل الجوالة وطبائع القوافل من منطقة الفرات نحو سوريا الجنوبية وفلسطين الشمالية، والتى يرد فيها ذكر امورو ومدينة حاتور، تجعل قصص العهد القديم عن تيه الآباء بين آرام النهرين وكنعان ذات أساس حقيقى.

٣) هناك اهمية خاصة للعنصر العرقى، وذلك لأن معظم الأشخاص والقبائل التى ورد الحديث عنها فى وثائق مارى هى من أصل سامى غربى، مثل آباء شعب إسرائيل، وكانت تتردد على ألسنتهم لهجات قريبة من اللغة العبرية فى صورتها القديمة جداً. وتشهد على ذلك من ناحية، العديد من أسماء الذات الشخصية، والتى تقابل أسماء كانت سائدة فى إسرائيل فى عصر الآباء والترحال، مثل اسم يعقوب وإسماعيل، ومن ناحية أخرى، عدد هائل من الكلمات السامية الغربية المستعارة، والتى تعتبر غريبة عن اللغة الاكادية والتى صيغت بها وثائق مارى، وهى كلمات معروفة وواردة فى العهد القديم. والمادة الغنية والمتنوعة التى تحويها وثائق مارى عن حياة القبائل السامية الغربية، وانتقالهم من حياة الترحال إلى الاستيطان الدائم واتصالهم

بالسكان، تعتبر بمثابة المادة الخارجية الهامة جداً من اجل توضيح شكل المجتمع البطريركي القبلي الإسرائيلي بتنظيمه ومؤسساته، وطرق استيطان قبائل إسرائيل، وماهية علاقاتهم بالاستيطان القديم في البلاد. ومن بين تلك الإجراءات التي لها مايقابلها في التوراة، نذكر على سبيل المثال موضوع إبرام العهد في حفل قتل حيوان، وهي حادثة توضح الأساس الرعوي لحفل العهد بين إبراهيم والرب.

وهناك تقييم جديد لتقرير قصص الآباء فيما يتصل بالعلاقات الأسرية، والأفكار الشخصية والحياة اليومية بشكل عام، وذلك من خلال آلاف الوثائق التي تم العثور عليها في نوزي، التي تقع شرق نهر دجلة بالقرب من حقول البترول في كركوك.

إن هذه الوثائق تمثل الحضارة الحورية، حيث كانت نوزي هذه خلال القرن ١٥، ١٤ ق.م مقراً هاماً للحكم في مملكة ميتاني، الذي ينتمي سكانها إلى الشعب الحوري. ولكن الحوريين كانوا قد انتشروا قبل ذلك في منطقة خاران واتجهوا نحو منطقة سوريا وفلسطين وفرضوا طابعهم على التركيب العرقي القديم للأنساب العبرية وعلى أسباط إسرائيل في فترة متأخرة أكثر. ومن هنا تأتي أهمية هذا المصدر بالنسبة للتاريخ الإسرائيلي القديم، لأن المعلومات الكثيرة التي تم الكشف عنها في المحفوظات الكثيرة لأشراف المدينة وكبار موظفي الإدارة فيها مايجعل من قصص التوراة اكثر من مجرد أدب ويجعلها قصصا ذات أسس اجتماعية عرقية من ذلك النوع الذي كان شائعاً في منتصف الألف الثاني ق.م واندثر بمرور الزمن. ومن بين الأمثلة الكثيرة التي يمكن أن نقدمها سنورد البعض للتدليل على هذه النقطة. إن تصرف إبراهيم، الذي كان على وشك أن يورث عبده وابن بيته اليعازر الدمشقي كل ممتلكاته طالما انه لا ينجب وحديث الرب إليه «لا يرثك هذا. بل الذي يخرج من أحشائك هو يرثك» (تكوين ١٥: ٢- ٣)، يصبح واضحا بصورة جيدة على ضوء الإجراء الذي كان متبعاً في نوزي بشأن تبني العبد حينما يكون سيده عاقراً ثم إعادة العبد إلى مركزه السابق بعد أن يرزق

بأبناء. وتصرف سارة وراحيل، حينما خشيتا من كونهما عاقرتان، فلجأ إلى تسليم جاريتيهما إلى أزواجهم لكى تنجبا أولاداً (تكوين ١٦: ٢ – ٣، ٣٠: ١ – ٤)، هذا التصرف يتفق مع عقود الزواج التى كانت تعقد فى نوزى، والتى كانت تتضمن أحيانا بندا يلزم الزوجة العاقر بإعطاء جارتيها لزوجها. والصفقة الغريبة الخاصة بنقل البكورية من عيسو إلى يعقوب مقابل طبيخ عدس، لها هي الأخرى، أساس واقعى فى عقود المساومة، التى يتضمن أحدها بيع حق البكورية للأخ الصغير مقابل ثلاثة كباش.

وهذه النماذج الواردة فى التوراة وغيرها عن طبائع الحياة الموصوفة فى التوراة، والتى بدت شاذة واستخدمها بعض دارسى العهد القديم ذريعة لمهاجمة السلوك الخلقى المنحط فى أسرة الأباء، هذه النماذج، هى بالفعل على ضوء ماكشفت عنه الوثائق التاريخية، كانت جزءاً من نظام الحياة الذى كان شائعاً بين شعوب الشرق القديم.

بنو إسرائيل فى مصر

ليس هناك حدث من بين الأحداث التى يرويها العهد القديم حدث يمكن ان نعتبره لغزاً كاملاً مثل قضية إقامة بنى إسرائيل فى مصر وقضية الخروج من مصر. فبالرغم من ان قضية خروج بنى إسرائيل من مصر هى حدث من الأحداث الرئيسية فى التاريخ الاسرائيلى القديم، وبالرغم من إنها وصفت بالتفصيل فى «المقرا» (العهد القديم) فإن الباحثين على اختلاف مناهجهم لم يتفقوا حتى اليوم على رأى مقبول لا بالنسبة للحدث نفسه، ولا بالنسبة لخط سير عملية الخروج، ولا حتى بالنسبة لمكان العبور فى البحر الأحمر او «بحر سوف» كما يسمى فى العهد القديم، لأنه لم يتم العثور حتى الآن على براهين أثرية او وثائقية تؤكد وقوع مثل هذا الحدث. وبالرغم من أن بعض الباحثين قد حاولوا العثور على وثائق أو براهين، إلا أن هذه الوثائق أو البراهين ليس فقط أنها لم تكشف عن غموض الحدث، بل إنها خلقت تناقضات جديدة لم يستطيعوا تفسيرها.

وبالنسبة لموضوع خروج بنى إسرائيل من مصر ينبغى أن نميز بين ثلاث نقاط أساسية يرتبط كل منها بالآخر وهى:

١) إقامة بنى إسرائيل فى مصر.

٢) تاريخ خروج بنى إسرائيل من مصر.

٣) نقطة الخروج من مصر، أو موقع أرض جاسان.

وبالرغم من أنه ليست لدينا أية معرفة، أيا كانت، فيما عدا تلك الواردة فى التوراة، عن نزول بنى إسرائيل من أرض كنعان إلى مصر، وإقامتهم فى أرض جاسان وخروجهم منها بعد ذلك إلى أرض كنعان، فإن ماتقصه المرويات الشفهية المتوارثة فى هذا الموضوع، فى خطوط عامة أحيانا وبالتفصيل أحيانا أخرى، يثير أمامنا أحداثاً تاريخية ترجع إلى الألف الثانى قبل الميلاد، وهى أحداث لها أساس وجذور فى المصادر المصرية بالقدر الذى

يدعم هذه المرويات من الناحية الخاصة بدراسة رموز «المقرا». إن مسألة استيطان بنى إسرائيل فى أرض جاسان والظهور المريب ليوسف فى بلاط فرعون إلى أن عين مساعدا للملك (تك ٤١: ٤٠ - ٤٥ ، ٨:٤٥) «وجعلنى آبا لفرعون وسيداً لكل بيته ومتسلطاً على كل ارض مصر»، يرى كثيرون من الباحثين أنها قد حدثت خلال حكم الهكسوس لمصر (خلال السنوات ١٧٢٠ - ١٥٧٠ ق.م)، حيث كانت عاصمتهم هى صوعن التى فى الدلتا الشرقية، أى فى أرض جاسان، وكانوا قوما من الساميين، وظهر منهم حكاماً ساميون قادوا مملكتهم (الأسر الخامسة عشرة والسادسة عشرة)، مثل يعقبهر، وعنتهر، وحين وحمودى. وقد ربط بعض الأدباء الأغريقيين وعلى رأسهم مانيتو، والذى وصلت كتاباته إلينا عن طريق يوسف بن متتياهو، بشكل غامض بعض الشئ، بين احتلال الهكسوس لمصر وطردهم من مصر، وبين ظهور بنى إسرائيل فى مصر وخروجهم منها فى زمن موسى (قارن أيضاً الإشارة إلى تأسيس عاصمة الهكسوس وتحديد مدى السنين حسب هذا الحدث حسبما هو وارد فى سفر (العدد ٢٢: ١٣)، «وبنيت حبرون قبل صوعن مصر بسبع سنوات». لكن لا يوجد فى المرويات «المقرائية» أى دليل على علاقة من هذا النوع بالذات، وذلك لأنها لا تستقيم مع التحديد الزمنى لمسألة الخروج من مصر. كذلك فإن الجو المصرى الأصيل فى حد ذاته، والذى يلوح فى سياق قصص يوسف، يدل على زمن أكثر تأخراً.

إن نزوح بنى إسرائيل إلى مصر يمكن ان نربطه بشكل عام فقط، بتلك الحركة الدائمة للعناصر السامية الغربية من أرض كنعان إلى أرض النيل، وهى الحركة التى بدأت فى نهاية الألف الثالثة ق.م، وكان من بينهم من وصل فى بعض الأحيان إلى مركز ممتاز فى حياة الدولة. والدخول السامى، على شكل جماعات صغيرة او كبيرة، كان يتم أساسا بالطرق السلمية، وذلك لدوافع تجارية، حسبما تشير إلى ذلك، على سبيل المثال، وليمة التجار الموصوفة فى النقوش المعروفة فى القبر المصرى القديم فى بنى حسن فى

مصر الوسطى، أو بسبب القحط والجوع الذى كان يعم ارض كنعان، أو بسبب بيعهم إلى المصريين عبيداً، وهى ظروف ورد معظمها بشكل أو بأخر بوضوح فى سياق قصص الآباء.

ومن هذه الناحية، تلقي بعض الوثائق المصرية ضوءاً حيا أيضاً، وذلك مثل قائمة العبيد في ضيعة أحد الأشراف المصريين التى ترجع إلى القرن الثامن عشر ق.م، أى قبل أيام الهكسوس، ومعظم هؤلاء لهم أسماء سامية غربية واضحة، وهى الحقيقة التى تذكرنا على الفور بمركز يوسف فى منزل فوطيفار. وفى قائمة أخرى ترجع إلى منتصف القرن الخامس عشر ق.م ورد ذكر أشراف من ارض كنعان (المقصود مدن مثل مجيدو، وحاصور وأشقلون)، من الموجودين فى بلاط فرعون للحصول على المحصول والعطايا، مثلما حدث عندما جاء أبناء يعقوب إلى مصر هرباً من القحط والجفاف. وتشير القصص بصفة خاصة إلى نزوح أبناء يعقوب، وكذلك أسرة إبراهيم وإسحق إلى مصر بسبب الجوع الذى ساد كنعان، وهو مايتفق مع البيان الذى أبلغه قائد حدود مصرى إلى فرعون بشأن مرور قبيلة من الجائلين من جنوب فلسطين إلى الدلتا الشرقية.

وهناك دليل غير مباشر عن وجود بنى إسرائيل فى مصر يمكن أن نعثر عليه في وجود مجموعات من الأشخاص فى مصر ممن يسمون «العابيرو» وهى المجموعات التى ورد إسمها فى وثائق ترجع من منتصف القرن الخامس عشر ق.م حتى منتصف القرن الثانى عشر ق.م. وليس هناك شك فى أن الاسم «عابيرو» باللغة المصرية هو الاسم «خبيرو» الشائع الاستعمال فى الوثائق الاكادية لمدة حوالى ألف سنة، اعتباراً من نهاية الألف الثالثة ق.م، مثل وثائق نوزى وفى رسائل تل العمارنة. وهذه الاصطلاحات لها بالطبع صلة بالاسم «عبرى» والتى يرى بعض الباحثين ان هناك تشابها بينها من حيث اللغة والمضمون بشكل مطلق، بينما يرى البعض الآخر أن هناك مجرد تقارب موضوعى اولى فقط، بينما هناك من يرفض هذا تماماً. ومن هذا

التنوع الواسع فى تفسير ظهور «الخبيرو» ، من حيث الزمان والمكان، من بابل فى الجنوب حتى الأناضول فى الشمال وفلسطين فى الغرب، وفى معظم أسماء الأعلام عندهم والتى اشتق معظمها من لغات مختلفة تماماً، من كل هذا، يمكن ان نستنتج أننا لسنا أمام شعب أو مجموعة عرقية قومية، بل أمام اصطلاح ذو مغزى إجتماعى، إختلف الباحثون حول تحديده بدقة.

وقد اتضح أن المقصود غالباً بهؤلاء «الخبيرو» طبقة اجتماعية ذات مرتبة منحطة، لم تكن ضمن الإطار الإجتماعى العادى، وذلك على غرار المتهودين فى التوراة، وذلك إما لأنها كانت تضم عناصر أجنبية عن المكان الذى كانت تقيم فيه أو لأسباب أخرى غير معلومة.

وإذا كانت هناك علاقة بين الاصطلاح المذكور وكلمة «عبرى»، إذن فإن هذا الاصطلاح كان فى الأصل اصطلاحاً ذو مغزى طبقى. وتتناسب وجهة النظر هذه مع الأصطلاح الإجتماعى القانونى «عبد عبرى» (خروج ٢:٢١)، ومع بعض التسميات مثل «إبراهيم العبرى» (تكوين ١٤: ١٣)، الذى كان غريباً فى أرض كنعان وليست له الحقوق الكاملة للمواطن، وبصفة خاصة مع المكانة المنحطة التى كان يحظى بها بنو إسرائيل فى مصر، حيث كانوا مستعبدين لفرعون وخاضعين لسطوته، وذلك حسبما تقول التوراة: «كنتم غرباء فى أرض مصر».

وبسبب هذه الظروف التاريخية ربما التصق بنو إسرائيل كجماعة بالاصطلاح «عبرى»، ولكنه تحول فى التوراة إلى اصطلاح ذو طابع عرقى واضح. والتسمية «عبريون»، من أجل الإشارة إلى التبعية القومية لبنى إسرائيل، هى تسمية قاصرة على مجموعة قصص يوسف وموسى، وعلى قضية الصراع مع الفلسطينيين، كما انه ظل قاصراً كذلك على موقف الصدام بين بنى إسرائيل والأجانب (وبالذات ضد المصريين والكنعانيين والفلسطينيين).

ولا يمكن بالطبع أن نبني استنتاجات على أساس الجد الأكبر «عابر» الذى اشتق اسمه بالطبع عن الاصطلاح «عبرى» والذى أضيف اليه فيما بعد تفسيراً جغرافياً من كلمة «عبر النهر»، وذلك لأن التسمية «عبرى» تستعمل بالفعل فى العهد القديم للإشارة إلى إطار أوسع من شعب إسرائيل بمفرده. وفى مقابل هذا فإن التسمية «عبيرو» باللغة المصرية، والتى يمكن أن تشمل بنى إسرائيل ، كانت شاملة وتنطبق على عمال السخرة الأجانب الذين عملوا فى مصر بشتى أنواعهم والذين كان معظمهم ساميين من أرض كنعان.

وبالرغم من كل الشكوك حول ما إذا كان المقصود بهذا هم بنى إسرائيل حقيقة، فإن هناك اهتماماً كبيراً برسالة قائد مصرى تعود لفترة فرعون مصر رمسيس الثانى بشأن تزويد العبيرو بالغذاء: «وزع حصص الحبوب على الجنود والعبيرو الذين يسحبون الحجارة إلى معبد رمسيس». والمقصود بذلك أولئك الأشخاص الذين يعملون الأعمال الشاقة فى إقامة المعبد، حسبما يبدو، فى مدينة رمسيس، وهى الحقيقة التى تثير على الفور ماهو وارد فى التوراة عن بنى إسرائيل: «ووضعوا عليه رؤساء تسخير لكى يذلوهم بأثقالهم. فبنوا لفرعون مدينتى مخازن فيثوم ور عمسيس» (خروج ١:١١).

وتبدو هذه المعلومات متسقة مع ماهو وارد عن أعمال الفراعنة الأوائل فى الأسرة المصرية التاسعة عشر. الذين نقلوا لأسباب تتعلق بسياستهم الخارجية، التى كانت موجهة نحو كنعان، مراكز حكمهم إلى شرق الدلتا، إلى منطقة ارض جاسان، وهى «أرض رعمسيس»، وهى التسمية التى أطلقت عليها نسبة إلى ر عمسيس فى قصة يوسف (تكوين ٤٧:١١)، أو «حقل صوعن» «قدام آبائهم صنع أعجوبة فى أرض بلاد صوعن» (المزامير ١٢:٧٨) حيث تميز رعمسيس الثانى، بصفة خاصة، بأعمال البناء الواسعة وذلك خلال مدة حكمه الطويلة (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م). وأقام على غرار أبيه سيتى الأول،

عاصمة مصرية جديدة وأسماها باسمه «مابيت رعمسيس محب الإله آمون»، كما قام كذلك بتعمير المناطق التى تحافظ على مداخل شبه جزيرة سيناء، فأقام مدينة باسم «برآتوم» «بيت الإله آتوم» (هى حسبما يبدو، تل الرطابة) وهاتين المدينتين ليستا إلا فيثوم ور عمسيس اللتان وردتا فى التوراة.

وعلى هذا الأساس، يمكن اعتبار أن ر عمسيس الثانى هو الفرعون الذى تم استعباد بنى إسرائيل فى مصر، وربما خرجوا أيضاً فى عصره من مصر. وإذا أعطينا أهمية تاريخية للمعلومة الواردة فى سفر الخروج والإصحاح الثانى الآية ٢٣ بشأن موت فرعون الاستعباد، فإن بنى إسرائيل يكونوا قد خرجوا من مصر فى عهد ابنه مرنبتاح. وتؤيد هذا الافتراض قائمة انتصار الفرعون مرنبتاح والتى ترجع إلى السنة الخامسة لتوليه الحكم (عام ١٢٢٠ ق.م تقريباً)، وفقاً لها انزل هزيمة بإسرائيل، والمقصود بذلك بالطبع تلك المعارك التى دارت رحاها فى كنعان وليس فى شبه جزيرة سيناء حسبما يعتقد بعض الباحثين، حيث أن هذه المعلومات وردت مع الإشارة إلى إحتلال اشقلون وجيزر وينو عام جنوب طبرية. وليس معروفاً بوضوح ماهو الإطار المقصود به اصطلاح «إسرائيل» الوارد فى هذه المصدر الخارجى لأول مرة – هل يشمل إسرائيل أم يشمل عدة قبائل فقط إم أن المقصود هو شعب وليس بلد، وعلى أى الحالات فإن ماهو وارد عن إسرائيل هو دليل على أن قبائل إسرائيل لم تكن قد عبرت بعد من اجل الاستيطان الدائم فى فلسطين. وعلى أية حال، يمكن أن نستنتج من كل هذه المعطيات أن قضية الخروج من مصر واحتلال ارض كنعان، أو على الأقل المرحلة الرئيسية من هذه الأحداث، قد حدثت فى القرن ١٣ ق.م وانتهت فى الربع الأخير من هذا القرن.

وهذا الاستنتاج الزمنى تعززه أدلة أخرى، قد يكون لها مايبررها فى التوراة. فحسبما هو وارد فى التقويم الزمنى فى سفر الملوك الأول ٦:١، حدث الخروج من مصر قبل تأسيس هيكل سليمان ب

٤٨٠ سنة (عام ٩٧٠ ق.م تقريباً). وهذا الرقم بالطبع ليس دقيقاً لأن المقصود به وهو ١٢ جيلاً وذلك على اعتبار أن الجيل هو ٤٠ عاماً وفق تحديد التوراة. ولكن إذا اعتبرنا أن الجيل هو ٢٥ سنة، فإن المقصود يكون ثلاثمائة عام ١٢×٢٥= ٣٠٠ عام. وبموجب هذا يكون الخروج من مصر قد حدث في النصف الأول م ن القرن الثالث عشر ق.م. ويمكن التوصل إلى هذا التحديد الزمني على أساس ملاحظة القاضي يفتاح للك بن عمون (القضاة ١١:٢٦) بشأن تواجد الاستيطان الإسرائيلي في شرق الأردن لمدة ثلاثمائة عام حتى أيامه، أي حتى الربع الأول من القرن الحادي عشر ق.م. وإذا طبقنا عدد السنوات وفق حساب الأجيال السابقة، فإن الرقم يحذف منه مائة وثمانين عاماً بالتقريب، وتكون بداية الاستيطان الإسرائيلي في شرق الأردن هي النصف الأول من القرن الثالث عشر ق.م.

الخروج من مصر وجبل سيناء:

يرجع عدم وجود أي نبأ صريح خارج إطار التوراة عن قصة الخروج من مصر واحتلال فلسطين إلى حقيقة أن هذه الأحداث لم تكن ذات وزن دولي، تجعل الشعوب تسجلها في مصادرها.

ولكن المرويات الشفهية بشأن خلاص شعب إسرائيل من «بيت العبودية ورحلة صحراء سيناء إلى أرض المعياد، هي حجر الأساس في العقيدة الإسرائيلية ، وليس في أسفار التوراة والأسفار التاريخية فقط، بل أيضاً في فكر الأنبياء (مثل هوشع ١١: ١، وعاموس ٧:٩، وارمياء ٢:٦)، ولدى شعراء المزامير (مثل المزمور ٨٧: ١٢ - ١٣، ٩١: ٦).

وقصص الخروج من مصر والتيه في صحراء سيناء هي قصص يلفها بالفعل رداء من الشعر الشعبي والعديد من أعمال المعجزات، ولكنها مع هذا لا تفتقد إلى بعض الخطوط التاريخية التي تعززها بعض المعلومات الواردة في المصادر المصرية. ويتضح هذا من خلال يوميات القادة المصريين الذين

كانوا على الحدوده مصر وشبه جزيرة سيناء فى مطلع القرن الثالث عشر ق.م والذين كانوا موكلين بالأشراف الدقيق على حدود وكان العبور فى كلا الاتجاهين مرهونا بالحصول على تصريح من السلطة المصرية. وتتضح هذه الحقيقة بشكل زائد على ضوء عمليات التردد المتعددة التى كان يقوم بها موسى وهارون إلى فرعون للسماح بخروج بنى إسرائيل. ولكن هروب بنى إسرائيل من مصر، بعد أن رفض طلبهم، توقيته بساعات الليل، هذا الهروب له ما يماثله في الوثائق، مثل القصة المعروفة. للاجئ المصرى شنهات فى فترة الأسرة المصرية الثانية عشرة، الذى عبر الحدود فى الظلام فى طريقة إلى سيناء وكنعان، ورسالة قائد مدينة ثاكو، (هى، فيما يبدو، سوكوت التى تقع فى أرض جاسان المجاورة للحدود، والمذكورة فى بداية رحلة بنى إسرائيل)، بشأن هرب عبدين إلى سيناء فيما وراء تحصينات الحدود التى تقع شمال مدينة مجدل (المذكورة هى الأخرى فى قصة الخروج من مصر)، وإرسال حملة عسكرية من حرس الحدود فى أعقابهم من أجل إعادتهم (بردية أناستاسى الخامس نهاية القرن الثالث عشر ق.م)، هذه الرسالة تعتبر دليلاً دامغاً. ويتضح من هذا، أن تحصينات الحدود المصرية كان من بين أهدافها منع هروب العبيد المصريين، ولكن يبدو أن هذا الحاجز لم يكن على الدوام ذو كفاءة كافية، حيث تشير المصادر المصرية إلى هرب الأفراد وقصة الخروج من مصر لستمائة ألف من بنى إسرائيل المسلحين بعائلاتهم (بشأن الرقم المبالغ فيه سنتحدث فيما بعد).

وبالنسبة لرحلة بنى إسرائيل من مصر يبدو مقنعاً ذلك الزعم بأنهم لم يخرجوا فى طريقهم إلى البلاد عبر الطريق الاقصر «لم يهدهم الرب فى طريق أرض الفلسطينيين مع أنها قريبة، لأن الرب قال حتى لايندم الشعب إذا رأوا حرباً ويرجعوا إلى مصر» (الخروج ١٣: ١٧). هذه القصة تبدو مفتقدة للمصداقية على أساس الواقع فى تلك الأيام، لأن طريق أرض الفلسطينيين الممتدة على طول شاطئ البحر المتوسط كانت جزءاً من طريق

دولى، حصنه الفرعون سيتى الأول حوالى ١٣٠٠ ق.م بشبكة من الحصون، وهو الأمر الذى كان من شأنه أن يؤدى إلى فشل بنى إسرائيل . وبناء على ذلك فإن رحلة بنى إسرائيل قد سارت فى طرق ملتوية ومعقدة، وبالرغم من قوائم المحطات التفصيلية الواردة فى سفر الخروج وسفر العدد، فإنه لايمكن إستعادة طريق تيههم، لأن الغالبية العظمى من هذه المحطات كانت مجرد مواقع مؤقتة لايمكن التعرف عليها بدقة. وينطبق إنعدام المصداقية كذلك على تحديد موقع «بحر سوف» وجبل سيناء الذين يرى المفسرون القدامى أن موقعهما ينبغى أن يكون في الجنوب، الأول فى خليج السويس، أو فى إحدى البحيرات المرة، أو فى خليج ايلات، والثانى فى جبل موسى الذى يقع جنوب شبه جزيرة سيناء. وفى مقابل هذا يفترض كثيرون من الباحثين الجدد، أنه لابد من نقل هذه المواقع إلى الشمال: بحر سوف إلى بحيرة البردويل، المتفرعة من البحر المتوسط، ذات المياه الراكدة والقابلة فى بعض مواقعها لعبور الأشخاص، وحيث يتواجد العابرون فى مجرى الطرف الفاصل بين هذا الفرع والبحر المتوسط بين بحر مياه من هنا ومن هناك (راجع سفر الخروج ١٤: ٢٩)، وجبل سيناء فى إحدى التلال الواقعة شرق قادش برنيع. وبالفعل، فإن المعطيات الجغرافية القليلة، بقدر مايمكن التعرف عليها، فيها مايمكن أن يعزز الرأى الخاص بأن طريق الرحلة الشمالية وكذلك خط الرحلة قد حدث عن طريق الالتفاف الواسع فى الجنوب. وتشير إلى الطريق الشمالى المواقع المذكورة فى بداية رحلة بنى إسرائيل، أى مجدل وقم الحيروث وبعل صفون (الخروج ١٤: ٢) الذى كان موقعا مقدساً للنازلون عند البحر منذ العصور القديمة حتى العصور الكلاسيكية، ولكن من ناحية أخرى تدل عدة مصادر عن وجود بحر سوف فى خليج إيلات. وعلى أية حال، فإن المحطة الرئيسية فى رحلة تيه بنى إسرائيل كانت فى الواحة الصحراوية الهامة قادش برنيع، التى تقع فى تل قديرات فى شبه جزيرة سيناء الغربية الشمالية، بجوار عين مياه متدفقه كانت كافية لإمداد الاسباط « أياما كثيرة» (التثنية ١: ٤٦).

وبالرغم من كل الغموض الذى يلف قضية الخروج من مصر ودخول أرض كنعان، فإن هذه الاحداث فى حد ذاتها تتشابك مع ظروف العصر وتتناسب مع المشهد التاريخى لتلك الفترة وتبلور جماعات إثنية وتقرير مصيرها الذاتى فى كيانات قومية تسعى إلى تحقيق إطار إقليمى سياسى. لقد قامت فى تلك الفترة الزمنية تقريباً دول أدوم ومواب وعمون التى إنتظمت فى ممالك، على خلاف إسرائيل، فى المرحلة الاقدم. ويوجد التعبير الأعلى لتبلور إسرائيل من «انتماء عبرى» إلى شعب حقيقى فى الثورة الدينية التى ينطوى عليها موقف جبل سيناء، الذى نظرت إليه الدراسات النقدية الحديثة للعهد القديم بإعتباره مرويات تختلف عن البلورة الادبية لقضية الخروج من مصر، وترى أنهما تضافرتا فى نسيج واحد فى اجيال متأخرة. وعلى أى حال، فإن المرويات المقرائية تربط الثورة الفكرية الجديدة بشخصية موسى المدهشة الذى ينتمى إلى سبط لاوى، والذى حافظ والوعى اليهودى على ذكراه بإعتباره سيد الانبياء، والمشرع والقاضى والقائد العسكرى والسياسى، والزعيم «الكاريزمى» لخروج شعب إسرائيل من العبودية إلى الحرية، والذى رأى خالقه أكثر من أى مخلوق آخر وحظى بتلقى التوراه لشعبه وللعالم فى مشهد جبل سيناء. وينطوى هذا التحول الدينى على تجلى الروح القدس لموسى، والذى تطابق التقاليد المقرائية المختلفة بينه وبين إله الآباء: «أنا الرب أبيك، إله إبراهيم، وإله اسحق، وإله يعقوب» (الخروج ٣: ٦) «وأنا ظهرت لابراهيم واسحق ويعقوب بأنى الآله القادر على كل شئ. وأما بإسمى يهوه فلم أعرف عندهم» (الخروج ٦: ٣).

وقد حدث تخبط بين الباحثين حول تفسير اسم الرب وبصفه خاصة حول مصدره، وهناك من خمنوا أن مصدره هو المصطلحات الدينية القديمة للقبيلة العبرية. ولذلك فإننا نشاهد اليوم ، أسماء شخصيات مختلفة فى وثائق مارى. ولكن مايثير الدهشة، أنه لا توجد بالذات فى العبرية أسماء مركبة من الاسم «ياهو» حتى فترة يوخيفد، أم موسى. ومن ناحية أخرى، هناك

الفرضية المديانية القينية بشأن أصل الإله يهوه، التى تعتمد على أن مكان تجلى الإله لموسى هو جبل سيناء، والذى كان فى منطقة مجال تحركات المديانيين، وكذلك أيضا الدور، الفريد من نوعه، الذى تنسبه التقاليد المقرائية ليثرو، كاهن مديان، صهر موسى، فى اتباعه نظم القضاء بين شعب إسرائيل (الخروج ١٨). ويمكن حالياً أن نجد تعزيزاً آخر لهذا التخمين في وجود منطقة من البلاد باسم «أرض الشوسيين ياهوا»، وردت فى نقوش الفرعون أمنحتب الثالث قبل موسى بعدة أجيال، والفرعون رمسيس الثانى، بخصوص منطقة سيناء وأرض سعير، الواردة فى «المقرا» خارج نطاق قضية الخروج من مصر بإعتبارها منطقة ظهور الرب (التثنيه ٣٣: ٢، القضاة ٥: ٤، حبقوق ٣:٣، والمزامير ٩:٦٨). ولكن، ليكن مصدر الألوهية كيفما يكون، ويكفى إنها تحسم التحول الدينى الموضوعى الجديد، ووجهة النظر التوحيدية، والتى تعتبر بمثابة إرهاص إسرائيلى أصيل، لم تتم إستعارته من العالم الوثنى. فعلى خلاف إله الآباء الأسرى والمتوحد، فى الغالب، أى عبادة إله واحد مع وجود آلهة أخرى إلى جواره، فإن عقيدة التوحيد الخاصة بيهوه ترتكز على وجهة نظر قطبية لإله عالمى وكونى من ناحية، وذات تعبيرات وأهداف قومية واضحة. من ناحية أخرى. كذلك فإن العهد بين الرب وبين الشعب لايقتصر هذه المرة على هدف الشعب المختار فحسب، بل يشتمل على بشرى أخلاقية إجتماعية وصلت إلى ذروتها بإعطاء الوصايا العشر. ويبدو أن ديانة التوحيد لم تكن ثمرة فكر ثيولوجى متأخر، وفقا لوجهة النظر المطلقة الخاصة بالدراسات النقدية للعهد القديم، بل هى، وفقاً لرأى حزقيال كويفمان، كانت عاملاً تاريخياً وإجتماعياً حاسما، عمل منذ بداية ظهور إسرائيل كشعب وظل حيا فى وعى الاسباط لدى إحتلالهم لهذه البلاد، وهنا يكمن المغزى الحقيقى للخروج من مصر ومشهد جبل سيناء.

احتلال ارض كنعان والإستيطان فيها

الاحتلال في رواية العهد القديم:

ننتقل مع قضية احتلال ارض كنعان واستيطان أسباط إسرائيل فيها من مرحلة ماقبل التاريخ القديم إلى مرحلة بداية التاريخ. إن الرواية «الرسمية» و «القانونية» في العهد القديم، بشأن احتلال ارض كنعان واستيطان أسباط إسرائيل فيها هى رواية قاطعة: ارض كنعان تم احتلالها من على جانبى نهر الأردن فى عملية عسكرية قصيرة نسبيا، بينما الأسباط الاثنا عشر يعملون متضامنين تحت زعامة موسى وخليفته يشوع. وقد تم استيطان الأسباط أيضاً بعملية بسيطة من أساسها ومن خلال تقسيم معد سلفا لأقسام الأرض المحتلة. لقد حصلت أسباط شرق الأردن على أنصبتها من موسى نفسه (العدد ٣٢؛ يشوع ٩:١٣ فصاعدا) بينما حصلت بقية الأسباط على أنصبتها من يشوع حيث حصلت سبعة منهم على المناطق الخاصة بها عن طريق القرعة (يشوع:١٨).

وصورة الاحتلال القومى الإسرائيلى الشامل والموحد، والتى تعرض فى تتابع، وحسبما يعرضها العهد القديم، تناسب الرؤية الزعامية فى عصر متأخر من مجمل تاريخ إسرائيل القديم. وفى حقيقة الأمر كان الواقع التاريخى معقداً بلا حدود. لقد جمعت عمليات احتلال مختلفة ومراحل تاريخية معقدة فى الرواية الإسرائيلية المتأخرة فى ملحمة قومية كبيرة، تضع فى مركز الأحداث شخصيتى الزعيمين موسى ويشوع، على نحو مايحدث فى أى عرض تاريخى للشعوب الأخرى بالنسبة لأبطالها القوميين المشهورين. وعلى أية حال، فإن المصادر المقرائية لهذه القضية، والتى تتركز فى معظمها فى سفر يشوع وبعض منها فى سفر العدد، من ناحية، وفى سفر القضاة الإصحاح الأول، من ناحية أخرى، ومهما كانت أراؤنا بشأن صورة صياغتها وزمن تأليفها، هذه المصادر تعرض علينا أساساً تاريخاً شاملا، إلى حد ما،

يحتوى على مايمكن أن يستخدم كأساس لاستعادة تسلسل الأحداث، فى الوقت الذى نجد فيه أن اتجاه استعادة الأحداث عند إحدى المدارس يختلف تماماً عن المدرسة الأخرى، وليس ذلك فحسب، بل إن أتباع وجهة النظر الشاملة يختلفون هم الآخرون تجاه تفاصيلها.

وفى الحقيقة، فإنه بالرغم من تدوين الرواية المقرائية فى أجيال متأخرة، وبناءاً على اتجاهات تاريخية مختلفة، فإننا لا نستطيع المبالغة إلى حد الرفض الكامل للموثوقية التاريخية والكفر الكامل بالاحتلال العسكرى لأرض كنعان بواسطة بنى إسرائيل، مثلما اتجهت إلى ذلك بعض الدراسات. إن الرأى الشائع بين هذا النوع من الدراسات، والذى تزعمته مدرسة ألت - نوط، والتى تفترض أن الدخول إلى ارض كنعان قد تم منذ البداية بالطريق السلمى، هذا الرأى يقلب الرواية المقرائية رأساعلى عقب، حيث أنها تنظر إلى الاستيلاء على مدن كنعان، (إذا كان هذا العمل قد قام به أصلا بنو إسرائيل وليست شعوب أخرى)، بإعتباره حلقة أخيرة فى عملية متواصلة من التسلل الهادئ لأسباط بنى إسرائيل إلى داخل أرض كنعان على طريقة دورات الرى الموسمية.

وعلى أى الحالات، فإننا يجب ان نعترف بأن الوصف المجرد والهادف، والذى تجلى فى الرواية«الرسمية» للاحتلال والاستيطان، لم يستطع الصمود فى وجه النقد، لأن مصادر التوراة مليئة بالفجوات الهائلة، وأيضا بالمتناقضات، التى سنتعرض لبعض منها.

لقد ذكرنا فى المقدمة، أنه قد ظهر من بين سطور الرويات المدونة الاتجاه الخاص بتنويج موسى ويشوع بتاج الأعمال البطولية وعمليات الاحتلال التى تعود إلى فترات مختلفة، والتى قامت بها أسباط أو جماعات. وعلى هذا النحو تم وصف احتلال شرق الأردن على يد موسى ومجموعة إسرائيل فى سفر العدد الإصحاح الحادى والعشرون، بينما تطل فى

الإصحاح ٣٢، الفقرات ٤٠ – ٤٣ قضايا احتلال منفصلة لأبناء مكير بن منشة وليائير الذى اعتبر هو الآخر إبنا لمنشة، ولنوبح، الذى يمثل مجموعة سبطية غير معروفة. ونفس الأمر بالنسبة ليشوع الذى نسبت له الرواية الرسمية عمليات احتلال حبرون ودبير، التى هى «قريات – سيفر» (يشوع ١٠: ٣٦ – ٣٩)، بينما نفهم من مقتطفات أخرى أن الذين سيطروا على هذه المناطق هم كالب وقناز الذين تم ضمهما بعد ذلك إلى سبط يهودا (يشوع ١٥: ١٣ – ١٩؛ والقضاة ١: ١٠ – ١٦).

ويبرز اتجاه العهد القديم لتتويج يشوع بالانتصار على معظم كنعان بصفة خاصة فى قائمة ملوك كنعان الإحدى والثلاثين المهزومين، والواردة فى سفر يشوع الإصحاح الثانى عشر. وفى مقابل مدن كثيرة ثم وصف احتلالها فى قصة حملات يشوع، لا نجد أى ذكر فى حروبه للاستيلاء على مدن أخرى وردت فى هذه القائمة، مثل عدو لام فى السهل، وتفوح، وحيفر، وترصة فى الجبل الأوسط ، وتعنك، ومجيدو فى وادى يزرعئيل. وبيت ايل، التى ترد فى القائمة، ثم احتلالها بناءاً على رواية أخرى «بعد موت يشوع» وعلى يد أسباط يوسف فقط (القضاة ١: ٢٢ – ٢٦).

وتظهر العقدة الكامنة فى الشهادة المقرائية بشكل أوضح حينما نفحص بطريقة منطقية مصير عدد من المدن مثل القدس وحرمه وحاصور، حيث وردت هذه المدن الثلاثة فى قائمة ملوك كنعان الذين هزمهم يشوع. لقد وردت بشأن الحرب ضد حرمة (تل المالح، شرق بئر سبع) معلومات متناقضة فى العهد القديم، حيث أنه، حسب إحدى الروايات، انتهت جملة عمليات الاحتلال التى قام بها بنو إسرائيل الذين حاولوا اقتحام أرض كنعان فى أيام موسى من الجنوب بالفشل الذريع (العدد ١٤: ٤٠ – ٤٥، التثنية ١: ٤٤)، وحسب رواية أخرى توجت بالنجاح (العدد ٢١: ١ – ٣)، بينما ترد رواية ثالثة تنسب احتلال حرمة إلى أيام مابعد موسى ويشوع وتنسبها إلى سبط يهودا

وشمعون فقط (القضاة ١: ١٧). وتبرز القصص الكثيرة بصفة خاصة، والتى تناقض بعضها مع بعضها، فيما هو وارد بشأن أورشليم فى أيام الاحتلال والاستيطان. فحسب واحدة من هذه الروايات، ترأس أدونى صادق، ملك أورشليم حلفا من ملوك الاموري ضد يشوع في صبعون ومنى بالهزيمة، ولكن مدينته لم تحتل (يشوع ١٠: ١ فصاعدا وقارن هذا بيشوع ١٢: ١٠).

وحسب رواية أخرى، نجد أن بنى يهودا الذين قاموا بعد موت يشوع بجملة احتلالات فى جبل إفرايم متجهين إلى الجنوب ، يحتلون أورشليم فى طريقهم ويحرقونها (القضاة ١: ٨). ورواية أخرى مختلفة تقول، أن بنو يهودا لم يستطيعوا أن يرثوا المقيمين فى أورشليم «أماالبيبوسيون الساكنون فى أورشليم فلم يقدر بنو يهودا على طردهم فسكن اليبوسيون مع بنى يهودا فى أورشليم إلى هذا اليوم» (يشوع ١٥: ٦٣). وهناك رواية أخرى تدور حول بنى بنيامين وليس عن سبط يهودا (القضاة ١:٢١). وأما فى قصة محظية جبعة، فإنها ترد باعتبارها مدينة يبوسية غريبة: «لا نميل إلى مدينة غريبة حيث ليس أحد من بنى إسرائيل هنا» (القضاة ١٩: ١٢). والواقع أن بنى إسرائيل لم يحتلوا أورشليم إلا فى عصر داود.

وإذا كنا استعرضنا حتى الآن بعض الصعوبات المتصلة بعمليات احتلال بعض المدن، فإن الأخطر من هذا عدة مرات هو اقتحام الصورة الشاملة سواء تلك الخاصة باحتلال شرق الأردن أو الخاصة باحتلال الضفة الغربية لنهر الأردن والواردة فى الروايات الضالة. إن الرواية الرسمية بشأن حملات إسرائيل فى الطرف الجنوبى من أرض كنعان وفى شرق الأردن تؤكد مرة أخرى، أن بنى إسرائيل اضطروا إلى الدوران حول أدوم ومؤاب وعمون، لأن هذه الممالك منعتهم من المرور الحر فى داخل أراضيها . إذن، لقد وضع بنو إسرائيل أمام اختيار استخدام القوة أو الدوران حول مناطق واسعة لكى يصلوا إلى وسط شرق الأردن ومن هناك إلى فلسطين الغربية. وقد تم هذا

الاختيار استناد إلى المنهج التاريخى المقرائى، بناءاً على أمر من الرب بألا يحاربوا الشعوب التى كانت تمت لها بصلة القربى (العدد ٢٠: ١٤ - ٢١؛ ٢١: ٤، ١١ - ٢٠؛ التثنية ٢: ١ - ٣، ٩: ١٣ - ١٩؛ وقارن أيضا القضاة: ١١ - ١٧ - ١٩).

وفى مقابل هذا يظهر التحليل الدقيق لقائمة المحطات فى طريق «حملات بنى إسرائيل الذين خرجوا من ارض مصر» والواردة فى سفر العدد (٣٣: ٣٧ - ٤٩) أن الطريق مر من جبل هور «الذى فى طرف أرض أدوم حتي آيل شطيم في عربات مؤاب في قلب أرض أدوم ومؤاب». وفى هذا المصدر لا نجد أى ذكر لمقاومة أدوم ومؤاب لمرور بنى إسرائيل وللصدام العسكرى مع سيحون ملك الامورى. وبالنسبة للسيطرة على أرض كنعان غرب نهر الأردن يشكل الإصحاح الأول فى سفر القضاة رواية «ضالة»، سواء نظرنا إليها بإعتبارها رواية أخرى عن نفس عملية الاحتلال، أو سواء وردت من أجل وصف استمرار تاريخ إسرائيل «بعد موت يشوع» حسبما ورد فى عنوان هذا الإصحاح. وقد تناولنا من قبل بعض التعقيدات التى يثيرها هذا الإصحاح مثل ذكر احتلال اورشليم وحبرون ودبير وبيت إيل وحرمة. إن الوارد فى هذا الإصحاح يحكى من جديد عن احتلال لأقسام تم احتلالها فى أيام يشوع، وأيضاً فى أيام موسى (احتلال حرمة)، وفى مقابل هذا ترد فى نهايته قائمة تفصيلية لمناطق كنعانية ظلت بمثابة «نويات وراثية» فى تخوم الأسباط المختلفة. ولكن المثير للدهشة حقاً، هو انه فى موجهة ما هو و ارد فى سفر يشوع، تظهر هنا عمليات احتلال بسيطة تمت بشكل منفرد ومنفصل. وفى وسط هذه الاحتلالات يوجد سبط يهودا الذى يتحرك فى حملة احتلالاته من مدينة بازاق، وخربة ابزيك شمال شرق شكيم، جنوب القدس ونحو جبال يهودا والسهل حتى حرمه محل حدود النقب. وينسب هنا أيضا إلى يهودا احتلال غزة وأشقلون وعقرون التى يرد ذكرها فى رواية سفر يشوع فى تخوم

«الأرض الباقية» (يشوع ١٣: ١ – ٦) خارج منطقة الدخول الإسرائيلية (نسخة الترجمة السبعينية القضاة ترفض احتلال مدن بلست). اذن فإن الإصحاح الأول من سفر القضاة يقدم صورة مختلفة تماماً عن سفر يشوع بشأن مراحل السيطرة على ارض كنعان الغربية، سواء فى التفاصيل أو فى الخطوط العامة.

وعلى هذا الأساس فإن نص الوثيقة المقرائية المعقدة، وعلى النحو الذى استعرضناه يحول بيننا وبين قبول التتابُع السردى، على النحو الوارد فى العهد القديم فى أسفار العدد ويشوع والقضاة، كعرض تاريخى موثوق به وتسلسل تاريخى منطقي لعملية الاحتلال والاستيطان، وبناءً على ذلك لا يكون أمامنا من خيار إلا النظر إلى الروايات المختلفة، بما فيها من متناقضات وهمية أو حقيقية، بإعتبارها مجرد روايات أدبية، ثمرة اتجاهات تدوين مختلفة لنفس القصص، أو نحاول ان نعثر فيها على وقائع لأحداث تاريخية معقدة ومتنوعة.

البرهان الأثرى

نظراً للطابع الإشكالى للرواية الشفوية، أو على وجه الدقة، للرواية المقرائية، اكتسبت الأدلة الخارجية قدراً من الأهمية فى إطار القضية المطروحة على بساط البحث، وقد تضمنت هذه الأدلة المصادر الابيجرافية والمكتشفات الاثرية. ولعل اهم هذه الادلة الخارجية التى تعد بالضرورة بمثابة نقطة محورية فى كل محاولة لاسترجاع صورة الغزو العبرانى، هو الايماء إلى إسرائيل فى النصب التذكارى الذى يخلد انتصارات الفرعون مرنبتاح فى السنة الخامسة من حكمه، وفيه يفتخر بانتصاراته التى آحرزها فى أرض كنعان عام ١٢٣٠ ق.م تقريباً وفقاً لتقديرات المبكرين، أو ١٢٢٠ ق.م بناء على تقديرات المتأخرين. وتوجد بعض النقوش الأخرى التى لها ثمة علاقة بقضيتنا، حيث برزت بعض الكتابات المنسوبة للفراعنة سيتى الأول ورمسيس الثانى ومرنبتاح وذلك بالاضافة لكتابات أخرى سنوالى ذكرها تباعاً. أما الآن فسوف نركز على اسهامات المادة الاثرية التى تم اكتشافها سواء فى تلال فلسطين أو الحفائر العلمية والاكتشافات التى تمت عن طريق المصادفة والدراسات الاثرية التى أجريت فى بقاع مختلفة. أما قضية التية فى صحراء التيه، ووادى العرابا وجنوب شرقى نهر الأردن فقد ارتبطت بالنتيجة المتخلفة عن الدراسات الاثرية التى أجراها ن. جليك فى هذه البقاع اعتباراً من ثلاثينيات القرن العشرين، إذ تبين أنه بعد دمار الاستيطان الثابت فى شرق الاردن جنوبى اليرموك فى القرن الـ ١٩ ق.م ظلت المنطقة خربة (بإستثناء بعض المناطق القليلة فحسب) مئات من السنين حتى عاد إليها السكان فى نهاية القرن الـ ١٤ ومطلع القرن الـ ١٣ ق. م . ويعنى ذلك انه يمكن إرجاع بداية ظهور مملكة الأدوميين ومملكة الموابيين والعمونيين إلى النصف الأول من القرن الـ ١٣ . ووفقاً لذلك أيضاً يمكن تحديد موعد حملات بنى إسرائيل التى وصلت إلينا فى روايتين متناقضتين كما ذكرنا سالفا، الأولى تتحدث عن حملة داخل المناطق قبل تبلور مملكتى آدوم وموآب وتحكى الأخرى عن

مـحـاولة تطويق المملكتين وتروى عن مـحـاولة ترمى إلى التسلل إلى داخل حدودها لكنها منيت بالفشل بسبب منعتها. ويعول هذا الطرح فى المقام الأول على اكتشاف شبكة هائلة من الحصون الحدودية التى تحيط بمملكة العمونيين من الغرب والجنوب ونجد ان بعضها مستطيل أو مربع الشكل (طراز القصر) أو بعضـهـا دائرى الشكل ويعرف بإسم (رجـوم الملفـوف). ويبـدو ان هذه المنظومة من الحصون التى شيدت فى العصر الحديدى الأول هى المقصودة فى النص المقرائى عندما دار الحديث عن فشل بنى إسرائيل فى الاستيلاء على هذه المنطقة «بسبب منعة حدود العمونيين» (عدد ٢١: ٢٤).

وقد أجريت سلسلة من الدراسات غرب فلسطين على سلسلة من المواقع بجنوب ووسط وشمـال البـلاد كـان النص المقـرائى قـد اشـار إلى ان بنى إسـرائيل قـد احـتلوها. ويمكن أن نجـد فى أغلب هـذه الدر اسـات براهين ساطعة تؤيد النص المقرائى الذى يشير إلى حصار هذه المناطق فى أواخر العصر البرونزى المتأخر. وعلى الرغم من ذلك، فإن نتائج الدراسات فى كثير من الحـالات تفجـر العـديد من المعـضلات. وتبرز حدة خطر هذه المعضلات عندما يتعلق الامر بمسألة احتلال «عاى»، حيث يحتل تصوير هذه العملية العسكرية موقعاً بارزاً فى سفر يشوع (يشوع ٧ – ٨). وكان يجب تحديد موقع هذه المدينة فى بيت أون الواقعة على بعد ٢ كم شرقى بيت إيل (يشوع ٧: ٢) ويلاحظ أن إسمها شأنه شأن الاسم «عاى» يشير إلى مكان خرب. بيد ان الحفـائر هناك اثبتت أن هذا الموقع كان خـرباً قبل قـدوم الغـزاة من بنى إسرائيل بحـوالى ١٠٠٠ عام، وإلى الآن لم يجد البـاحثون إجابة شافية على هذه المعضلة التى حاول البعض تجاوزها بأساليب وطرق غير مقنعة. وربما صـدق البـاحث الذى قـال: «إن مـقـدار الصـعـوبة الكامن فى مـحـاولة حل اشـكالية إحتلال عـاى لايقل عن معضـلة احتـلالها فى الأزمنـة الغابـرة».

وينطبق الامـر نفسـه على النتـائج الأثرية فى أريحـا والتى لا تتـواءم مطلقاً مع القصة الواردة فى المقرا بشـأن احتلالها، إذ ثبت من خـلال الحفائر

التى أجريت فى الآونة الأخيرة أن أسوار أريحا الشهيرة التى تعد لب القصة المقرائية، يعود تاريخها إلى العصر البرونزى الاوسط.اعتباراً من النصف الأول من الألف الثانى ق.م). والقصة بالفعل ليست ملفقة كلية، نظراً لانه فى القرن الرابع عشر، وربما فى القرن الثالث عشر ق.م، استقر إستيطان سكنى محدود وفقير نسبيا فى هذه المنطقة قام بنو إسرائيل بتدميره. ويمكن ان نفترض إن القصة الشعبية المقرائية استلهمت أحداثها من وحى أنقاض وأطلال حصون عظيمة موغلة فى القدم. كما ان الحفائر التى أجريت مؤخراً فى «الجيب» (جبعون) تثير الكثير من الدهشة والاستغراب، إذ لم تكتشف أدلة أو آثار تفيد إعمار هذه الاماكن اعتباراً من القرن الـ ١٣ ق.م. بيد ان القبور التى اكتشفت بالقرب من المدينة تدل على ان ثمة حياة وسكان رفرفرا على هذه المنطقة فى هذا العصر. وربما يجوز لنا أن نخمن ان بعض الجوالة القادمين من منطقة مجاورة قد استوطنوها، بما يتمشى مع ادعاءات الجبعونيين، قبل يشوع، على الرغم من ان المقرا ترى أن ماحدث مجرد خدعة. وعلى أية حال، فإن الفقرة الواردة «لأن جبعون مدينة عظيمة كإحدى المدن الملكية» (يشوع ١٠ - ١٢)، هى تدخل، بكل تأكيد، من قبل محرر متأخر معاصر للفترة التى عادت فيها جبعون لتصبح مركزاً هاماً فى عصر مملكة يهودا.

وفى مقابل هذه النماذج الثلاثة التى تعكس عدم التلاقى بين المقرا والمكتشفات الاثرية، والتى من الملاحظ أنها تتركز جميعها حول الروايات المرتبطة ببداية حملات يشوع على القطاع الاوسط من البلاد، فإن الادلة الاثرية تتوائم بشدة مع بقية القصة المقرائية، حيث ثبت إن مجموعة المدن «قرية سيفرً "ودَبير" (أم ناتارا بتل بيت مرسم، لكن الاقرب للصحة هو القول بأنها خربة ربود الواقعة بباطن الجبل) ولخيش وعجلون (يبدو أنها تل الحاسى غربى لخيش) التى تنسب المقرا إلى يشوع احتلالها عسكريا) (يشوع ١٠: ٤١ فماعداً) قد تم تدميرها تماماً فى الثلث الأخير من القرن

الـ ١٣ ق.م. وقد أوليت أهمية كبرى للحقيقة القائلة بأن حاصور الواقعة بشمال فلسطين التى تبالغ الرواية المقرائية فى تصوير الدمار الذى أنزل بها، قد تقوضت تماماً فى نفس الحقبة الزمنية. وليس هذا فحسب بل إن الحفائر الاثرية فى هذا المكان ألقت باضواء ساطعة على ملاحظة المؤرخ المقرائى «لأن حاصور كانت قبلاً رأس جميع تلك الممالك» (يشوع ١١: ١٠). وقد تبين انه أسفل التل الذى نهضت أعلاه المدينة المرتفعة الحصينة تمددت مدينة سفلى فوق مساحة هائلة تبلغ ٧٠٠ دونما، وتعد من أضخم المدن الفلسطينية التى اكتشفت حتى الآن. ولا يمكن أن نحدد حتى اليوم، بنفس الدقة زمن حصار بيت إيل، لكن مما لاشك فيه أنها تقوضت فى القرن الـ ١٣ ق.م.

وعلى صعيد آخر تتجلى الحقيقة القائلة بأن الحفائر فى نابلس (شيخيم) التى استؤنف العمل فيها فى السنوات الأخيرة، لم يكتشف بها آية آثار تفيد تقوضها فى نهاية العصر البرونزى، بل إن الاستيطان فيها استمر دون انقطاع حتى نهاية القرن الـ ١٢ ق. م ، بيد ان هذه النتائج تتوائم مع القصة المقرائية باستثناء بعض الاصداء المشوشة التى تتحدث عن احتلال قديم لنابلس حدث فى عصر الآباء – قضية دينا – (تك ٣٤)، ومباركة يعقوب ليوسف (تك ٤٨: ٢٢)، ولم تترامى إلينا أيه معلومات تشير إلى حدوث سيطرة إسرائيلية على المكان بالقوة قبل عصر القضاة. أضف إلى ذلك أن يشوع يظهر فى نابلس دون أية عوائق ويقيم فى وسط المدينة احتفالاً شعبياً بمناسبة شعائر العهد مع إله إسرائيل (يشوع ٢٤) وازدادت أهمية المكان بدخوله فى نطاق الاماكن المقدسة حيث اكتشف به معبد ومذبح وأنصاب، وهو الامر الذى يعنى ان نابلس كانت بمثابة مركزاً دينياً رئيسياً اعتباراً من العصر البرونزى الاوسط، ويبدو ان هذا هو سبب هذه الهالة من القداسة التى تكسو ذكرى هذه المكان فى أذهان بنى إسرائيل. ومصير نابلس أثناء الاحتلال العسكرى هو بمثابة نموذج شاذ فى اللوحة الاثرية العامة التى تشير، كما سبق وأوضحنا، إلى الدمار والخراب. فعلى أنقاض المدن

الكنعانية نهضت مدن جديدة بعد فترة قصرت أو طالت مثل: دبير وبيت إيل، وهذه المدن التى كانت فى الغالب مدنا غير محصنة كانت فقيرة الموارد ومتدهورة مقارنة بالمدن القديمة. وأبرز النماذج التى تمدنا بها نتائج الحفائر هى نتائجها فى حاصور، التى تؤكد ان المدينة السفلى العظيمة لم تقم لها قائمة بعد خرابها أبداً. أما فى التل نفسه فقد تبين انه كان هناك استيطانا مؤقتا قد نشأ فوقه فى حقبة زمنية لاحقة. ومما لاشك فيه، ان هذه البلدان الجديدة التى كانت تختلف كثيراً فى حضاراتها المادية عن المدن الكنعانية هى ذات المدن التى قام بنو إسرائيل والاسباط الذين انضموا إليهم بتأسيس نفسها. والدليل على ذلك هو الاستمرارية الحضارية التى قائم فيها منذ ذلك الحين وحتى عصر الملكية. بالاضافة إلى ذلك فإن الدرس الاثرى يشير إلى انه فى أواخر القرن الـ ١٣ والقرن الـ ١٢ ق.م بدأت عملية استيطانية مكثفة من قبل بنى إسرائيل لهذه المناطق التى لم تستوطن من قبل. وعلى هذا النحو نهضت مدن كثيرة على أراضى بكر جنوبى جبل إفرايم والمنطقة التى استولى عليها سبط بنيامين. وقد أزاحت منطقة جلعاد الستار عن سلسلة من المستوطنات الصغيرة، ولدى خراب المدن الكنعانية وإقامة المستوطنات الاسرائيلية فى أخرايات القرن الـ ١٣ ق.م انتهى العصر البرونزى المتأخر وأطل العصر الحديدى.

استرجاع أساليب الاحتلال العسكرى

بعد تحليل جملة المصادر التى بين أيدينا، التى تتناول قضية الاحتلال العسكرى يتضح ان عملية غزو فلسطين كانت بمثابة مسيرة معقدة وتدريجية نفذت بشكل مرحلي. ويبدو هذا الاستنتاج منطقياً إزاء شرق الاردن، بيد أن نفس الأمر لا ينطبق على غرب فلسطين؛ فحتى البرهان الأثرى الذى يؤكد - كما سبق وأشرنا - ان كثيرا من المدن الكنعانية قد تقوضت فى الثلث الأخير من القرن الـ ١٣ ق.م ليس من شأنه - حتى الآن - أن يشير إلى عملية احتلال عسكرى غير قاطعة. ولعله تبسيط مناف للعقل أن نظن أن جميع المدن التى كانت مصيرها الدمار قد تم تخريبها فى فترة واحدة فعلاً (وكذلك يبدو ان أريحا قد خُرِّبت فى حقبة أكثر قدما). والحقيقة ان أغلب الباحثين يعتقدون ان بنى إسرائيل تسللوا إلى فلسطين على هيئة موجات، لكن تناقضت أراؤهم بشأن عدد مرات التسلل وزمنها والطرق التى سلكتها، وتحديد الاسباط التى شاركت فى كل موجة منها. ومن الناحية الأخرى، هناك أهمية بالغة لتقسيم أسباط بنى إسرائيل إلى اثنى عشر سبطا بناء على الانتماء للوالدتين ليئة وراحيل وجار يتبهما زلفا وبلهة. وشجرة الأنساب هذه، التى ليس لها تفسير منطقى أو جذور فى الواقع التاريخى المتأخر كما تنعكس فى إرث الاسباط، هى إذن مقدمة للوضع الذى أسفر عن التلاحم النهائى للاسباط.

وبناء على هذه الفرضية ينبغى ان نرى فى بؤرة عملية تسلل بنى إسرائيل مرحلتين رئيسيتين، ترتبط الأولى بسمو الرابطة السبطية التى تنتسب إلى ليئة والأخرى فى أسباط راحيل. أما الاسباط التى تنمتى للجاريتين وهما: جاد وأشير من جهة، ودان ونفتالى من الجهة الأخرى، فقد درجوا على ان يعتبروهم أسباطا منضمة ذات مكانة أدنى فى التحالف الاسرائيلى، وقد غزوا فلسطين بطرقهم الخاصة. ويرى الباحثون المنتمون إلى

العصور السابقة وغالبية الباحثين المعاصرين أن دخول أسباط ليئة سابق على دخول اسباط راحيل ومعهم كل الحق. ويمثل رؤية هذه المدرسة فى الدراسات الإسرائيلية الباحث ش. يابين الذى يفترض حدوث عدد من الموجات الغازية: تسلل ابناء آشير ونفتالى إلى الجليل مع نهاية القرن الـ ١٤ ق.م ثم دخول اسباط ليئة حوالى سنة ١٣٠٠ ثم دخول اسباط راحيل بعد مرور جيل واحد تقريباً على دخول أسباط ليئة. وفى الفترة الأخيرة ازداد تشعب الآراء خاصة بعد صدور نظرية أولبرايت التى يرى فيها أن دخول أبناء يوسف سابق على دخول أسباط ليئة. وبالمناسبة فإن هناك إشارات فى روايات الحكماء تفيد قدم ظهور أبناء يوسف فى فلسطين، حيث ورد أن أبناء افرايم خرجوا من مصر قبل سائر الاسباط بسنوات طوال (انظر الترجوم الارامى للمزامير (٧٨ - ٩)، وراشى نفس الموضع، وقارن مع مخيلتا رابى يشمعئيل مسيخيت «فيهى بشلواح»، الاصحاح الاول، انظر أيضاً أقوال الحكماء ومفسرى القرون الوسطى حول ماورد أعلاه، واخبار الايام الأول ٢٢:٧) ونتيجة هذا المنهج الاخير اختبر ب. مازار محاولة استعادة تفصيلية لعملية الاحتلال العسكرى، وسنورد هنا الخطوط العريضة لهذه المحاولة نظراً لانها قادرة على تفسير كثير من المعطيات الغامضة مما ورد فى المصادر، دون الحاجة لمنظومة معقدة من التخمينات والتكهنات.

لقد حددت هذه الفرضية واحة قادش برنيع كقاعدة تنطلق منها موجتى الهجرة لاسباط راحيل وليئة. وقد صعدت أول مجموعة بقيادة يشوع فى النصف الأول من القرن ١٣ ق. م نحو وديان موآب داخل المناطق التى بحوزة أدوم وموآب (عدد ٤٣) التى لم تصبح ممالك بعد، ومن هناك عبروا نهر الاردن ثم احتلوا أريحا وصعدوا إلى منطقة الجبل المركزى وبجوار جبعون تورطوا فى قتال مع تحالف الملوك الأموريين واستولوا على المناطق المتاخمة

للمدينة من الشمال والغرب. ومن هناك انتشروا فى منطقة جبل افرايم بل وتسلل بعضهم نحو الشمال بإتجاه حصة نفتالى، وفى فترة أكثر تأخراً تسللوا إلى شرق الاردن وشمال جلعاد وأرض باشان. أما سلسلة الغزوات الأخرى التى اشتركت فيها اسباط ليئة فقد اضطرت أن تدور حول مملكتى موآب وآدوم فاصطدمات فى طريقها بالملكة الامورية التى يحكمها سيحون وعاصمته حشبون. وقد استمرت هذه الدولة الاجنبية الواقعة بين عمون وموآب فترة قصيرة فحسب قبل دخول بنى إسرئيل إذ ان تأسيسها، وفقاً لهذا الطرح مرتبط بنتائج المعركة فى قادش بين رمسيس الثانى والحيثيين وعندئذ تسلل الحيثيون مع حلفائهم الاموريين لمنطقة دمشق ويبدو ان الأخيرين واصلوا حملتهم العسكرية جنوباً.

وفى أعقاب هزيمة سيحون فى يهصة واصل بنو اسرائيل تقدمهم شمالاً نحو المملكة الامورية التى يحكمها يعزير (عدد ٢١: ٢١ فصاعداً) واستولت أسباط جاد ورؤ بين على جنوب ووسط شرقى الاردن من أرنون وحتى يبوق. ومن المحتمل ان بقية الحملة العسكرية لموجة الهجرة الثانية فى اتجاه غرب فلسطين هى التى تتجلى فى القصة التى حفظها لنا سفر القضاة الاصحاح الأول. وبناء على ذلك عبر بنوا إسرائيل بقيادة يهودا نهر الأردن على مسافة بعيدة من شمالى أريحا فاحتلوا بازق عند جبال منشة وتحركوا جنوباً نحو جبال يهودا وغور يهودا مضرمين النار فى أورشليم أثناء مرورهم بها. وفى نفس الفترة تقريباً (الربع الأخير من القرن الثالث عشر ق.م) تم احتلال مدن الجبل الجنوبى وحدود النقب وحبرون ودبيروهارام حيث قامت أسباط قريبة من يهودا بغزوها، وهى أسباط الكلبى والقنيزى والقينى الذين تسللوا بين جهة الجنوب. وسياق سفر يشوع (١٠: ٢٨ – ٤٩) يلحق بقصة احتلال جنوب فلسطين قصة عن

احتلال مدن تقع عند سفح الجبل، وتخوم غور يهوذا: مقيدة ولبنة، ولخيش، وعجلون. أما الحرب مع الكنعانيين فى شمال فلسطين والتى يرد ذكرها فى سفر يشوع (١١: ١ - ١٥) وسفر القضاة (حرب دبورة وباراق قض ٤ - ٥)، فهى ثمرة مبادرة مشتركة بين أسباط لبئة ويسساكر وزبولون الذين تسللوا من جبل إفرايم بإتجاه الشمال واتحدوا مع اسباط يوسف الذين ازدادوا وتعاظموا فى ذلك الوقت.

والطرح المذكور أعلاه، شأنه شأن كل محاولات استعادة صورة الغزو العسكرى والاستيطان، ظل مجرد احتمال حيث أن أسلوب ونتائج النقاش فى قضيتنا تخلع رداء وترتدى آخر وفقاً للثقل الذى توليه للمصادر المقرائية والمعلومات المختلفة التى بحوزتنا. ولذلك فمن المفيد أن تعالج قصة الاحتلال العسكرى بأسلوب نمطى، أى بطرح الرؤى العامة والرئيسية التى تتبدى فى هذه المسألة دون الانسياق وراء محاولات استرجاع التسلسل الدقيق لمراحل الاحتلال العسكرى بصورة نظرية وعملية.

ولذلك سنركز فيما يلى على عملية غزو فلسطين على ضوء الرؤية العسكرية. لكن قبل ذلك سنشير إلى عدد من النقاط الرئيسية المستنتجة من القصة المقرائية والتى لا يمكن إغفالها فى أى محاولة لاسترجاع واستعادة صورة ماحدث.

لقد اتضح انه تعذر على بنى إسرائيل الخارجين من مصر أن يدخلوا إلى أرض كنعان عنوة عن طريق أقصر الطرق المتاحة وهو الطريق الجنوبى سواء بسبب السلطات المصرية بحراً أو من جراء التحصينات الكنعانية المحكمة التى اغلقت مداخل فلسطين عند سفوح الجبال مثل هاراما. لذا اضطر بنو إسرائيل ان يدوروا دوارات واسعة عن طريق نهر الأردن وهنا يكتسب ما جاء فى المقراعن الصدام بين بنى إسرائيل وسيحون ملك

الأموريين بعدما نصبوا خيامهم فى ارضه واستولوا عليها أهمية بالغة على الصعيد السياسى والعسكرى وعلى الصعيد «الكرونولوجى».

وتدعم الملاحظة الواردة فى المقرا حول سيحون الذى حارب أول ملوك مؤآب واستولى على كل مافى يده من أراض حتى آرنون» (عدد ٢١: ٢٦) نظرية تواكب قدوم بنى إسرائيل أو فريق منهم مع نشأة مملكة مؤآب التى يمكن تحديد زمن نشأتها، كما سبق أن ذكرنا، بالنصف الاول من القرن الـ ١٣ ق.م. واذا وافقنا على الفرضية المذكورة سلفاً القائلة بأن مملكة سيحون شيدت بعد معركة قادش، فينبغى إذن أن ندقق أكثر فى مسألة تحديد زمن وقوع الاحداث المذكورة. وعلى أية حال يبدو أن المنطقة الخصيبة الواقعة بين أرنون ويبوق كانت تؤول السيطرة عليها فى النصف الأول من القرن الـ ١٣ ق.م من يد لأخرى. ففى البداية سيطرت مملكة مؤآب على الجزء الجنوبى وتقريبا سيطرت مملكة عمون على الجزء الشمالى، ثم قام سيحون بإحتلالها، وأخيراً استولى عليه بنو إسرائيل. ويمكننا أن نضيف العنصر المصرى إلى صراع القوى الذى دار فى هذه المنطقة خلال هذه الحقبة الزمنية، والدليل على ذلك حملة رمسيس الثانى على أراضى مؤآب حتى أنه غزا مدنا تقع شمالى آرنون. أما فيما يتعلق بإحتلال غرب فلسطين، فنجد فى بؤرة الأحداث صدامين حاسمين مع الكنعانيين ارتبط بنتائجها مصير استيطان بنى إسرائيل فى فلسطين، حدث الصدام الأول فى الجنوب بجوار جبعون والأخر فى الجليل الأعلى. وقد كشف خضوع المدن الحيوية الأربعة المتحالفة» جبعون، الكفيرة، بئيروت وقرية يعاريم أمام قوات بنى إسرائيل، الجناح الشمالى الغربى لملكة أورشليم الأمر الذى يتماثل مع الملابسات الشهيرة التى يرجع زمنها إلى فترة تل العمارنة التى عرّضت المدن الكنعانية الغربية للخطر وتمخضت عن رد الفعل العسكرى الحازم من قبل أدونى صادق ملك أورشليم

الذى تزعم أربعة حلفاء كنعانيين: حبرون ويرموت ولخيش وعجلون وقادهم فى عملية عسكرية مضادة ضد جبعون التى استغاثت فهب جيش بنى إسرائيل لنجدة محميته. وحقق بنو إسرائيل انتصاراً باهراً ففتح هذا الأنتصار أمامهم الطريق للسيطرة على سفوح الجبل الغربية (يشوع ١٠).
كما حققوا انتصاراً آخر فى حربهم ضد الحلف الكنعانى الشمالى بزعامة ملك حاصور، وفيها برّ بنو إسرائيل أعداءهم فى القتال عند مياه ماروم الواقعة شرقى الجليل الأعلى (ومن المحتمل ان مدينة مياه ماروم نفسها كانت خربة منذ ان احتلها رمسيس الثانى) ثم دمروا حاصور مركز القوة الكنعانية. (يشوع ١١: ١ - ١٥).

غزو فلسطين فى الميزان العسكرى

على الرغم من موافقتنا على قدر كبير من الرواية المقرائية التى تحكى عن سيطرة بنى إسرائيل على فلسطين بقوة السلاح، و على الرغم من أن هذه الرواية تعضدها براهين أثرية ، إلا أننا حتى الأن فى حاجة ماسة للعثور على اجابة للسؤال : كيف استطاع بنو اسرائيل أن يحتلوا فلسطين عسكريا؟ إن الامر حقاً يثير الدهشة والاستغراب معا. فكيف تمكنت أسباط بنى إسرائيل الصاعدين من البرية مفتقدينَ إلى الخبرة و الدراية العسكرية اللازمة لهم و يعانون من نقص الموارد والعتاد اللازمين ، أن يتغلبوا على أعدائهم الكنعانيين أصحاب التاريخ العسكرى الطويل والمعرفة التكنولوجية الراقية والمتطورة، الذين يشيدون القلاع المحصنة، التى وصفها بنو إسرائيل بقولهم «مدناً عظيمة محصنة إلى السماء» (تثنية ١ – ٢٨). إن الجدير بالذكر هو ان هذا الاستغراب ليس وليد اللحظة بل تنبه إليه القدماء أمثال الأديب الهلينستى ديمتريوس الذى عاش فى القرن الـ ٣ ق.م حين طرح السؤال: من أين حصل بنو إسرائيل على السلاح إبان صعودهم إلى فلسطين. وقد هون الأمرعلى نفسه بنفس اجابة يوسف بن متتياهو (تاريخ اليهود ٢/١٦:٦): إنهم بكل تأكيد قد تزودوا بسلاح المصريين الذين غرقوا فى البحر الأحمر.

يبدو إن نجاح بنى إسرائيل رغم أنف التفوق العسكرى الكنعانى راجع لأسباب مختلفة، استطاعت ان تمهد الطريق أمام غزو سريع نسبياً، على الاقل فى المناطق الجبلية من فلسطين، وهذه الاسباب هى: ضمور أرض كنعان من جراء نظام الحكم المصرى الاستعمارى المستبد، والحالة الامنية المزعزعة التى تجات بوضوح من خلال رسائل تل العمارنة وبرديات انستاسى الأول بالاضافة إلى النزاعات والصراعات الداخلية بين حكام المدن الكنعانية أنفسهم، وهى تلك الصراعات التى تفاقمت إثر تدخلات السلطات المصرية التى انتهجت سياسة «فرق تسد» فتركوا كنعان إبان دخول أسباط

بنى إسرائيل متشر ذمة تعانى مدنها من آثار العزلة السياسية، فى مقابل الحماس الدينى والقومى المتأجج فى نفوس بنى إسرائيل وتطلعهم لاحتلال أراضى جديدة موعودة، بينما وقف المواطن الكنعانى خاوياً من الوعى القومى، ولذا لم يحتشد ولم يقف وقفة رجل واحد فى وجه تسلل الاسباط. أما الحلفان الكنعانيان فقد شملا منذ البداية قسما ضئيلاً من أرض كنعان، كما كان الحلف الجنوبى موجه ضد الجبعونيم فحسب، ولم يهب أحد لمساعدة ونجدة أريحا أو عاى ساعة الخطر. وحتى مساعدة ملك جيزر لمدينة لخيش المحاصرة (يشوع ١٠: ١٣) لم تأت على مايبدو إلا بدافع من السلطات المصرية التى فرضت اتفاقية دفاع مشترك بين المدينتين اللتان تعتبران بمثابة مركزين هامين من مراكز الإدارة المصرية فى الثلث الأخير من القرن الـ ١٣ ق.م، كما نتبين ذلك من الوثائق المصرية.

ويمكن أن نشير إلى عنصر آخر من العناصر التى يسرت عملية السيطرة على أرض كنعان، وهو عدم التجانس العرقى الواضح فى تركيبة السكان الكنعانيين وهو. الأمر الذى تشير إليه المصادر المقرائية. وقد أفلح بنو إسرائيل فى الاستفادة من ذلك التناقض الطبيعى بين الجماعات العرقية المختلفة التى استوطنت أرض كنعان. ومن أبرز الامثلة على ذلك اتفاقية السلام المنفردة التى أبرموها مع الجبعونيم المحسوبين على التركيبة العرقية الحوية (يشوع ٧:٩) وكانوا يختلفون عن الكنعانيين حتى في نظامهم السياسى والإجتماعى، وكانوا يؤثرون النظام الابوى، حيث تبوأ الزعامة فى مدنهم شيوخاً لا ملوكاً. ويجدر الاشارة فى هذا السياق إلى أن سكان نابلس أيضاً، أو على الاقل جزء منهم انتسبوا إلى الحويين (تك ٤٤ - ٢) واستندت قيادتهم السياسية فى فترة استيطان بنى إسرائيل على الزعامة الجماعية «لاصحاب شكيم»، ولم تعتمد النظام الملكى. وقد آلت السيطرة على هذه المدينة أيضاً لبنى إسرائيل دون الدخول فى حروب. و لعل المعلومات

الواردة بشأن التعايش الذى نشأ بين بنى إسرائيل فى أورشليم والسكان اليبوسيين (يشوع ١٥:٩٣، قض ١:٢١) تضرب بجذورها فى العلاقات السلمية التى نشأت بين بني إسرائيل والسكان اليبوسيين. ومن المحتمل أن هذه العلاقات أيضاً نهضت على أسس عرقية شمالية (أى الحيثيين او الحوريم، (لاحظ ان الاسم الأخير تترجمة أحياناً الترجمة السبعينية إلى حوييم) عرفت طريقها إلى المدينة فى الفترة التى قطن بها بنو إسرائيل، وربما قبل ذلك. ومع ذلك فإن اهم العناصر التى ساعدت فى التغلب على الكنعانيين كانت الأساليب القتالية الفريدة التى استخدمها بنو إسرائيل فى فترة الغزو والاستيطان إلى جانب الفطنة البالغة التى اتسم بها المقاتلون، التى تبرز بوضوح من بين سطور ماورد فى المقرا . فقد اتضح ان بنى إسرائيل كان لديهم جهازا إستخباريا للتجسس متطور، كما نستخلص من إرسال موسى للاثنى عشر جاسوساً، ليقوموا بإستقصاء أخبار فلسطين،وهو الامر الذى يستدعى فى أذهاننا اساليب وطرق المخابرات العسكرية والاقتصادية والديموغرافية (عدد ١٣ - ١٨: ٢٠). كما تصور لنا النصوص المقرانية عملية ارسال الجواسيس إلى أريحا وعاى عشية الهجوم عليهما حتى يجمعوا معلومات عن خطط الاعداء، وكيف فشلت هذه العملية الاستخبارية فى الوقوف على القدرة الدفاعية لمدينة عاى مما تسبب فى الهزيمة بادئ الأمر: «اصعدوا وتجسسوا الأرض، فصعد الرجال وتجسسوا عاى ثم رجعوا إلى يشوع وقالوا له لايصعد كل الشعب بل يصعد ألفى رجل أو ثلاثة آلاف رجل ويضربوا على، لاتكلف كل الشعب إلى هناك لانهم قليلون» يشوع ٧:٣).

وقداهتم بنو إسرائيل، على سبيل المثال، بحل بعض المشاكل اللوجستية مثل توريدات الغذاء والمهمات ونحو ذلك، كما يظهر من أوامر يشوع، قبل عبور نهر الاردن، بخصوص إعداد مؤونة للشعب

(يشوع ١ -١٠:١١) ولنا أن نلاحظ وجود إعتبارات لوجستية فى تحديد موعد الحملة فى فصل الربيع، العاشر من نيسان، يشوع ٤ - ١٩) حيث تنضج المحاصيل فى وديان أريحا:«وأكلوا من غلة الارض فى الغد بعد الفصح... فأكلوا من محصول أرض كنعان فى تلك السنة» (يشوع ٥:١٠- ١١) ولنقل كما هو مألوف فى الجيوش الغازية. (قارن أفعال المديانيين فى أيام جدعون) قام اقتصاد بنى إسرائيل على نهب المحاصيل الكنعانية من المدن التى تركها أهلها، فأضحت مصدراً هاماً لامداد الغزاه بالمؤن والمهمات (يشوع ٨ :٢٧، ١١: ١٤). ونلاحظ كذلك أسساً استراتيجية ولو جستية فى تقاليد الاحتلال الرسمية، التى تمنح مكانة مميزة للجلجال، أول الاماكن التى نزل بما بنو إسرائيل بعد عبور نهر الأردن. حيث كانوا يعودون إليها فى كل مرة بعد انتهاء معاركهم بجنوب البلاد (يشوع ١٠: ١٥ - ٤٣). وقد دفعت هذه الحقيقة المذهلة الكثيرين إلى الافتراض بإن هذه التقاليد هى ثمرة قصص خاصة مروية عن سبط بنيامين، وأن هذه القصص انتجت حول مقر العبادة الكائن بالجلجال، ولكن الجلجال من الناحية العسكرية كانت أيضا تمثل رأس جسر وقاعدة حيوية للتسلل من عبر الاردن إلى غرب فلسطين، وكانت المنطقة الأمنة التى بوسعهم الانسحاب إليها بعد إنتهاء غاراتهم بعيدة المدى، وذلك حتى يحرصوا على الصلات مع العمق الاسرائيلى الواقع بشرق نهر الاردن.

وقد واجه بنو إسرائيل فى حروبهم ضد الكنعانيين مشكلة عسكرية مزدوجة، فمن جهة اعتمد الاعداء على مدن محصنة منيعة، كانت بمثابة حبات الجوز غير القابلة للكسر حتى أمام الجيوش المصرية الجرارة، ومن جهة أخرى أدار الكنعانيون جيشاً محترفاً عالى الكفاءة يمثل سلاح المركبات يده الطولى التى بزّت أسلحة المشاة «لدى بنى إسرائيل». ويتضح من التحليل الجيد لمسار المعارك منذ بدء فترة الغزو وحتى بداية عصر الملكية أن

بني إسرائيل قد تغلبوا بصورة عملية على هذه العناصر بانتهاج أسلوب قتالى خاص هو «الانقضاض العسكرى غير المباشر، أى أن المحاربين من بنى إسرائيل سعوا جاهدين ألا ينقضوا على المدن الكنعانية انقضاضاً مباشراً وتحاشوا قدر الامكان المواجهة مع العدو - وخاصة سلاح المركبات - فى ساحة قتال وفى صدام مباشر وصريح، بل اعتمدوا تكتيكا قائم على الدهاء والحيلة والخداع.

أما النموذج الوحيد للحصار الصريح الذى ضربه بنو إسرائيل على مدينة كنعانية فهو أريحا. ومع ذلك فإن النصوص المقرائية لاتصف لنا معارك حصار، وإنما تصور كيف سقطت المدينة إثر تدخل قوى خارقة للطبيعة. أما بيت إيل وحتى اورشليم فى عصر داود فقد قيل بوضوح انهم استولوا عليهما بأساليب الخداع وليس من خلال صدام مباشر (قض ١: ٢٢ - ٢٥). أما غزو عاى ومرتفعات بنيامين التى تهدمت من جراء الحرب التى نشبت بين أسباط بنى إسرائيل أنفسها، فقد حفظت لنا النصوص المقرائية تصويراً تفصيليا لمكائد وحيل بنى إسرائيل، إذ إحتلت المدينتان الأخيرتان بعملية تمويه حيث مثّل فريق من بنى إسرائيل الفرار من العدو حتى يبعدوا القوات المدافعة عن المدينة وحينئذ يتمكن الكمين من التسلل إلى المدينة المكشوفة فى يسر وسهولة (يشوع ٨، قض ٢٠: ٣٩ فصاعداً). والمدهش ان ثمة محاولات فاشلة فعلاً قد سبقت عملية احتلال عاى ومرتفعات بنيامين أيضاً حيث انتهت هذه المحاولات بفرار حقيقى. ويبدو ان هذه الحقيقة ذاتها هى التى استغلت على الفور لاخراج تمثيلية الفشل المزعوم بعد تعويد الاعداء على عملية متكررة حتى خملت يقظة الاعداء فانقضوا عليهم بغتة. وهناك حالات أخرى سقطت فيها الحصون الكنعانية فى أيدى بنى إسرائيل بعد هزيمة الاعداء فى معركة حاسمة فى ساحة الوغى، ومن ذلك على سبيل المثال، سقوط بعض القلاع بجنوب فلسطين فى أعقاب معارك جبعون وسقوط مدينة حاصور بعد معركة مياه ميروم .

والطريف أنه في هذه المعارك، شأنها شأن معارك أخرى، حقق بنو إسرائيل النصر على الجيوش الكنعانية بفضل عمليات تخطيط وأساليب قتال من الطراز الأول مثل فيها عنصر المفاجأة المبدأ الرئيسي. ففي معركة جبعون صعد بنو إسرائيل من الجلجال لمسافة تبلغ حوالي ٣٠ كم وساروا نحو ١ كيلو متر في رحلة ليلية شاقة، وذلك حتى يستغلوا عنصري الظلام الدامس والمفاجأة كما ينبغي. « فأتى إليهم يشوع بغتة، صاعداً الليل كله من الجلجال» (يشوع ١٠: ٩). ويبدو ان القتال بدأ مع أول خيوط الفجر هو الامر الذي يمكن استنتاجه من كلمات القصيدة المقتبسة من «سيفرهياشار» - «ياشمس حومي على جبعون وياقمر على وادي أيلون» - (يشوع ١٠: ١٢) وتستند هذه القصيدة على واقع طبوغرافي: حيث أنه في الصباح فحسب يظهر القمر وكأنه يسبح نحو الغرب في وادي أيلون كما تشرق الشمس من جهة الشرق أعلى جبعون. وبعد ان مني العدو بالهزيمة مع شروق الشمس شرعت قوات بني إسرائيل في مطاردة فلول الجيش الهاربة على طريق مرتفعات بيت حورون.

والجدير بالذكر ان هناك معلومات ترجع إلى فترات أقدم زمنياً تشير إلى عمليات عسكرية مشابهة وإلى رحلات ليلية وإلى شن قتال عند بزوغ الفجر، مثلما حدث في معركة جدعون مع المديانيين. ومن أبرز نماذج القتال الليلي تلك المعركة التي ضرب فيها أبيمالك الحصار على (قض ٩: ١٤) وحروب شاؤل مع بني عمون والبلسيتيني (صموئيل ١١: ١١ - ١٤، ٣٧)، وقارن أيضاً غارة إبراهيم على العدو الذي أوقع أخيه لوط في الاسر (تك ١٤: ١٥).

ويتجلى عنصر المفاجأة ايضا في معركة أخرى كبرى منسوبة إلى يشوع. وهي معركة مياه ماروم، التي استعان فيها الكنعانيون بسلاح المركبات (يشوع ١١: ٧، ولاحظ أيضاً اللفظ: «بغتة» الوارد في هذه

الفقرات). ومن المعلوم أن سلاح المركبات الكنعانى مثّل مشكلة حقيقية فى حرب دبورة وباراق مع سيسرا الذى كان بحوزته، بناء على ماجاء فى المقرا ٩٠٠ مركبة حديدية. وقد حفظت لنا المقراو صفا تفصيلياً لهذه القصة. لكن الحقيقة ان القتال نفسه تم تصويره بإيجاز شديد حتى أنه صار غير واضح المعالم. ومع ذلك فمن بين السطور نرى بوضوح خطة العملية العسكرية «البنى إسرائيلية» التى اهتمت فى المقام الأول باتلاف وتحييد سلاح المركبات وتم لهم ذلك على مايبنو تأسيساً على اعتبارات طبوغرافية ومناخية، ويبدو ان قادة بنى إسرائيل أجلوا الهجوم على الكنعانيين حتى حلول موسم الامطار التى حولت أراضى الوديان إلى مستنقعات وحرمت المركبات الكنعانية من قدرتها على الحركة. ومن هناجاء، التأكيد على الامطار الغريزة عند وصف معجزات إله إسرائيل فى مطلع قصيدة دبورة (قض ٥:٤ – ٥) والغيث الشديد ضمن فقرات المزمور الذى يتناول حرب دبورة (مزامير ٩٨: ١٠)، والتصوير الشعرى للوديان ونهر قيشون (قض ٥: ٢١) والحقيقة التى تؤكد أن سيسرا نفسه اضطرأن يغادر مركبته التى غاصت بكل تأكيد فى الوحل وأسلم ساقيه للريح حتى ينجو بحياته.

استيطان الأسباط ونتائجة

على الرغم من اساليب القتال الفاعلة، لم ينجح بنو إسرائيل فى التغلب تماما على السكان المحليين إلا فى المناطق الجبلية من فلسطين، أما فى السهول فلم يتمكنوا من السيطرة، بسبب فاعلية السلاح الكنعانى المحورى هناك، وهو سلاح المركبات. وتؤكد المقرا نفسها هذا الامر عند الحديث عن مسألة استيطان أبناء يوسف (يشوع ١٧: ١٥ - ١٨)، ومرة ثانية عند الحديث عن سبط يهوذا. «فملك الجبل ولكن لم يطرد سكان الوادى لأن لهم مركبات حديدية» (قض ١: ١٩). وتعكس مقولة بنهدد ملك آرام أثناء حربة مع أحاب مسألة تفوق بنى إسرائيل فى المناطق الجبلية ووهنهم فى السهول وأن ذلك دام حتى فى العصور التى تلت دخولهم إلى البلاد: «إن آلههتم آلهه جبال لذلك قووا علينا، ولكن إذا حاربناهم فى السهل فإننا نقوى عليهم» (ملوك أول ٢٠: ٢٣) بناء على ماتقدم ثبقت جيوب كنعانية كثيرة فى نطاق الاستيطان السبطى، خاصة فى وادى يرزعئيل، أصبح بعضنا منها بمرور الو قت يشكل عبئا على بنى إسرائيل (أنظر قائمة مثالب الاحتلال العسكرى قض ١: ٢١- ٣٥، يشوع ١٥: ١٠). أما بنو إسرائيل الذين تسللوا إلى الوديان فقد عانوا الويلات من استعباد الكنعانيين لهم. كما نستخلص من مباركة يعقوب لسبط يساكر الذى أقام بشرق وادى يزر عنيل ووادى بيت شان»، فأحنى كتفه للحمل وصار للجزية عبداً؟» (تك ٤٩: ١٥) وتشير الفاظ الحمل بالعبرية «سيبل» والجزية «مس» إلى أعمال السخرة خاصة فى حقل الزراعة، حيث وردت بنفس الالفاظ تماماً فى رسائل مارى «سبل» والعمارنة «مسا»، ولعل اللفظين يصفان كيف كان الاستعباد نظرياً وعملياً.

ويتضح مما سبق أن استيطان بنى إسرائيل تركز فى البداية فى القطاعات الجبلية من فلسطين، تلك القطاعات التى كانت تكاد تخلو من السكان الكنعانيين. وعلى أية حال فإنهم تمتعوا هناك بنوع من السيادة،

حيث قاموا بتمهيد الاراضى فى المناطق الجبلية الخالية من أجل الاستيطان وذلك عن طريق قطع أشجار الغابات. كما يُفهم من نصيحة يشوع لأبناء يوسف المتعطشين لمنطقة تصلح للسكن: «بل يكون لك الجبل لأنه وعر فتقطعه وتكون لك مخارجه» (يشوع ١٧: ١٤ - ١٨). وقد أدى قطع الاشجار وإقامة تجمعات سكنية فى منطاق لم تكن آهلة بالسكان من قبل إلى تغيير جوهرى فى المنظر الطبيعى الفلسطينى والتى ارتسمت فى الاذهان قبل مجئ بنى إسرائيل على أنها أرض الغابات، ويبرز ذلك بصفة خاصة فى المصادر المصرية. وقد استند بنو إسرائيل فى تمهيد المناطق الجبلية للسكنى إلى الخبرة والدراية التكنولوجية التي اكتسبوها، مثل استخدام الآبار المنحوتة لتخزين مياه الامطار (قارن ماورد فى المشنا«مسيخيت أفوت» ٨/٢ عن البئر الجيرى الذى لايسرب المياه) وخلق الظروف المواتية لتمهيد مناطق أخرى. أما الاضافة التكنولوجية الهامة التى حملوها معهم من بلاد الشمال ويبدو اثرها ملحوظاً فى القرن الـ ١١ ق.م فحسب، فهى تصنيع المركبات الحديدية ذات الفائدة التى لا تبارى فى تطوير الزراعات الجبلية وقطع الغابات. و قد تفوقت بوضوح على الألات النحاسية و البرونزية التى كانت تستخدم قبل ذلك .

و هكذا انفتحت أمام استيطان بنى إسرائيل مناطق فسيحة، سواء فى شرق الاردن و بخاصة منطقة عجلون شمال نهر يبوك أو فى غرب فلسطين. ففى البداية نشأت عملية استيطان مكثف فى المنطقة التى استولى عليها سبط بنيامين وفى المناطق الجبلية المتاخمة لها من الشمال والجنوب. ويُفهم أيضا من شهادات مختلفة فى المقراومن الاكتشافات الاثرية أن بنى إسرائيل أعادوا بناء كثير من المدن الكنعانية الخربة مثل عاى وبيت إيل ومتسفا، بيد انهم اهتموا أساساً بتشييد مستوطنات جديدة مثل تلال بنيامين، جيبع، مكمش راما، عناتوت وعزاموت. ويبدو ان القطاع الاوسط بالجبل المركزى كان نواة الاستيطان الدولى لغالبية اسباط بنى إسرائيل، ولكن فى مرحلة

متأخرة جداً. ولدى تزايد أعداد السكان هاجرت أسباط بأكملها، أو عشائر تشعبت من السبط الام، إلى مناطق أنصبة السبط. ومن هذه الناحية ويمكن أن نعتبر أن عملية استيطان بنى إسرائيل فى حالات كثيرة كانت بمثابة عملية انتشار طردى من الجبل المركزى باتجاه السهول والمناطق المحيطة داخل فلسطين على ضفتى الأردن، وهو الانتشار الذى كان من أسبابه الضغوط الديموغرافية وعدم القدرة على الاستقرار فى المنطقة الاولى.

وقد كان مصير سبط دان هو النموذج التفصيلى الوحيد الذى حفظته لنا المقرا عن ترحال سبط من أسباط بنى إسرائيل وعن الظروف التاريخية التى أحاطت بهذا الترحال (قض ١٧ – ١٨)، وهو النموذج الذى يضع أيدينا على مغزى هذه القصة برمتها، حيث لم يتمكن سبط دان ان يضرب بجذور راسخة فى السفوح الغربية من القطاع الجبلى الاوسط، نظراً للضغوط الهائلة التى جابهها سواء من الاموريين غرباً (قض ١: ٣٤) أو من أسباط بنى إسرائيل شرقاً، فاضطر قسم من السبط أن يهاجر عله يستطيع أن يستولى على منطقة جديدة، وظل القسم الآخر يقيم فى الجنوب دون أرض ثابتة تحت قدميه. وهو الامر الذى تطلعنا عليه قصص شمشون. وتعكس حملة سبط دان العسكرية كما وردت فى المقر نفس أحوال اسباط أخرى كانت بمثابة لوحة مصغرة لقصة الخروج من مصر والغزو العسكرى لفلسطين. إن سبط حال يسبق حملاته بجواسيس ينفذون عمليات استخباراتية ويستقصون عن طبيعة البلاد التى يستعدون للاستيلاء عليها. وقد أرسلوا هذه المرة خمسة رجال شجعان من منطقتى صُرعة واشتاؤل، وهناك تمكنوا من العثور على موقع مناسب للاستيطان وهو منطقة لايش بالطرف الشمالى الشرقى من فلسطين، إذ أن المناطق المؤدية إلى هذا المكان كانت بالطبع مستوطنة بالفعل من قبل أسباط بنى إسرائيل، بالاضافة إلى أن لايش والمناطق المجاورة لها كانت قابلة للغزو بناء على وجهة نظر الجواسيس

«الارض واسعة الاطراف... والشعب الذى فيها يعيش فى طمأنينة كعادة الصيدونيم... وهم بعيدون عن الصيد ونيين وليس لهم أمر مع انسانٍ. (قض ١٨: ٧ - ١٠) أى أن لايش الواقعة فى النطاق التابع للساحل الفينيقى معزولة تماماً من جراء بعدها عن حماتها ويسهل احتلالها. وبالفعل وتؤكد الحفائر والدراسات الاثرية التى أجريت مؤخراً فى تل دان (تل القاضى) بالفعل ان المدينة قد خربت فى العصر الحديدى القديم.

وقد كان عدد المقاتلين الذين أعدهم سبط دان نموذجياً بالنسبة لهذا النوع من الحملات العسكرية « ست مئة رجل متسلح بعدة الحرب » (قض: ١٨: ١١) أى ما يعادل كتيبة كاملة . و يلاحظ التشابه مع عدد الخارجين من مصر ٠٠٠ ر ٦٠٠ رجل يحملون السيف . و يبدو ان هذا الرقم الفولكورى الغرض منه هو الاشارة لضخامة الجيش فحسب و هناك سمة أخرى خاصة بالحملات العسكرية تبرز بوضوح فى ترحال سبط دان، و هى الانصياع للكاهن و طلب مشورة الاله : « فقالوا له إسأل الله لنعلم هل ينجح طريقنا الذى نحن فيه سائرون» (قض ١٨: ٥) وهناك مايماثل ذلك فى قصة الخروج فى تصرف اليعازر الكاهن الذى يسأل عن حكم الاوريم »: (أدوات عبادة لاستلهام الوحى)حسب قوله يخرجون، وحسب قوله يدخلون هو وكل بنى إسرائيل معه كل الجماعة» (عدد ٢٧: ٢١ فصاعداً) ونظرا لانه بعد احتلال فلسطين وطّن بنو إسرائيل خيمة الاجتماع فى شيلوه بعد أن كانوا يحملونها معهم أينما حلوا، فإن بنى دان فعلوا نفس الشئ فى مقرهم الجديد فأقاموا تمثال ميخا الذى أخذوه معهم فى طريقهم وقاموا كذلك بتغيير اسم المدينة من لايش إلى دان بعد تحريم المكان واعادة إعماره. وهناك تقابلات كثيرة مع عملية احتلال المدن الكنعانية مثل تغيير أسماء قرية أربع إلى حبرون وقرية سيفر إلى دَبير وصفاة إلى حُرمة ولوز إلى بيت إيل (سفر قضاة الاصحاح الأول، ولكن الجديد بالذكر حقاً هو تغيير أسماء بعض

الاماكن بشرق الاردن وتسميتها بإسم العشائر السبطية التى احتلتها (يائير ونويح) (عدد ٣٢، ٤١ – ٤٢).

ومن وحى مصير سبط دان يمكن أن نتوقع اسباط أخرى وتشعبهم وترحالهم وإن كان ذلك تم بصورة غير مباشرة، لأن المقرا اكتفت بتقديم الصورة النهائية للاستيطان السبطى كما تبلور فى نهاية مسيرة تطور تاريخى طويل (يشوع ١٣ – ١٩). لكن مما لاشك فيه أن هذه اللوحة المتبلورة قد سبقتها سلسلة ديناميكية متشعبة من التحركات السبطية التى يبدو أثرها ملحوظاً بناء على الايماءات الواردة فى النصوص المقرائية، وعن ذلك أنه عند وصف مناطق استيطان الاسباط، نجد ثمة أصداء لهذه الاحداث متناثرة ذات اليمين وذات اليسار. بيد أن هناك أهمية بالغة من هذه الناحية لقوائم الانساب السبطية التى حافظت عليها المقرا، وللشهادات الثلاثة التى تصف مكانة وشمائل أسباط بنى إسرائيل وبركة يعقوب (تك ٤٩) وبركة موسى (التثنية ٣٣) وقصيدة دبورة (قض ٥) وسنتخذ مما ورد عن زبولون فى بركة يعقوب كنموذج: «زبولون عند ساحل البحر يسكن وهو عند ساحل السفن وجانبه عند صيدون» (تك ٤٩ – ١٣) وهو ما يتناقض مع وصف حدود هذا السبط فى سفر يشوع (١٩:١٠– ١٥) حيث وفقا لهذه الحدود الأخيرة

تقلص السبط فى غرب الجليل السفلى ولم ينتشر حتى ساحل البحر وهو الامر الذى يعنى ان بركة يعقوب تعكس انتشاراً عظيما حققه السبط فى موقف تاريخى معين (من المحتمل فى أعقاب حرب دبورة) إلا أن إرثه أخذ يتقلص وينكمش فى مقابل تعاظم نفوذ سبط أشير.

سبل الأستيطان فى مرآة قوائم الانساب السبطية

تعد لفائف الانساب السبطية عنصر ابالغ الاهمية فى عملية الكشف عن آلية الاستيطان السبطى (خاصة اللفائف التى يشتمل عليها سفر أخبار العام الاول ٢ – ٩) التى ليس لها مثيل فى مصادر الشرق القديم، ولم يظهر لها مثيل، إلا عند ظهور الاسلام بين القبائل العربية. وتطلعنا هذه الوثائق بأسلوب تخطيطى على الهيكل الداخلى للسبط، ومع ذلك فإنها تعكس أيضا المسيرات المعقدة لصعود وهبوط الأسباط المختلفة بداخله، وتشعبها واندماجها مجدداً وانتقال الفرع الفلانى من أحد الاطر السبطية إلى إطار آخر، ورحلات الترحال – التى تكون احياناً بعيدة المدى – من قطاع لآخر. والحقيقة إن خطوط سير شجرة الانساب السبطية لايتسم دائما بالوضوح الكافى، بيد أننا نستطيع أن نعثر على ثمة مفاتيح توقفنا على نوايا مؤلفيها وذلك من خلال المنهج الذى سلكوه فى تاليف هذه القوائم، مثل إستخدام مفاهيم مستمدة من الهيكل الاسرى بمعناها الضيق والتركيز على العلاقات الناجمة عنها، وإذا كان الامر على مايبدو لايعدو عن كونه رموزاً. ومن ثم فإن المنطق يقول انه عندما تتحدث هذه القوائم عن الزواج أو المصاهرة فالمراد هنا رسم العلاقات بين العشائر السبطية من خلال صورة تخطيطية (سكيما). وعندما يدور الحديث عن منزل العائلة فى «معليت باخور»، فإن المؤلف يقصد الاشارة إلى مسقط رأس أقوى العشائر فى السبط. أما البنات فتمثلن بيوت الاباء او التجمعات السكنية التابعة للمركز الرئيسى وتتمتع بحمايته مثل العبارة الشهيرة «مدينة وبناته». أما الزواج من محظية فيرد عادة ليرمز إلى العلاقات مع أصول عرقية غريبة أو من طبقات دنيا. (قارن أخبار الايام الأول ٧: ١٤)، أما الانتهاء إلى محظية أو جارية فيحتمل إنه يشير إلى هجرة أبناء العائلة من مسقط رأسهم إلى قطاعات حدودية مثلما درجوا فى العائلات القديمة ان يطردوا أبناء الإماء والمحظيات. (قارن مع القصص الواردة عن هاجر

وإسماعيل ومصير أبناء إبراهيم من المحظيات تك ٢٥:٦، و ما ورد عن يفتاح ، قض ١١:١-٢) و لعلنا قد نجد فيما سبق ثمة تفسير لا وضاع الاسباط الاسرائيلية التى تنتسب إلى الجوارى حيث سكن أربعتهم: جاد ونفتالى ودان وأشير عند الحدود الشمالية والشرقية المتاخمة للبقاع التى استوطنها بنو إسرائيل، وفى حوزتنا براهين قاطعة تؤكد أن السبطين الآخيرين هاجرا من وسط فلسطين.

وقد نحتاج إلى قوائم الانساب نظراً لانها تعكس هجرة العشائر السبطية من حدود وتخوم الجبل المركزى بإتجاه الحدود، تلك الظاهرة التى يؤكدها ضمنيا ذكر أسماء عائلات وأسر متحدة الالقاب فى أسباط مختلفة. ومن أبرز الأمثلة لذلك مانجده فى شجرة أنساب سبط أشير (أخبار الايام الأول ٣٠ فصاعداً) الذى يرتبط عدد وفير من فروعه بمنطقة الجبل المركزى مثل عائلات بريعة ويفلط وشوعال وشيليش أو شيليشة، التى تسمى بأسمائهم عائلات وقطاعات حدودية تقع بين مناطق سبطى افرايم وبنيامين (يشوع ١٦، صموئيل الأول ٤٩؛ ١٣ - ١٧). وبناء على ماتقدم يجوز لنا ان نفترض أن هذه العائلات، على غرار بنو دان، لم يفلحوا فى الاستيطان فى نطاقات استيطانهم الأولى إذ انسحقت بين أسباط بنى إسرائيل. وقد قطعت عشائر منهم مسافات هائلة نحو غرب الجليل، حيث انضوت تحت لواء سبط أشير. أضف إلى ذلك إن أغلب العائلات فى سبط أشير تنتسب إلى «حيبر» الذى يبدو انه مجرد اسم يرمز إلى الرابطة التى تؤلف بين بعض العائلات التى واصلت الارتحال سوياً، ويؤكد ذلك معنى هذا اللفظ فى وثائق مارى (وقارن حيبر هقينى الذى اعتزل قايين وارتحل إلى وادى يزرعئيل). اذن يشتمل «حيبر بن بريعة الوارد فى انساب أشير كافة العائلات التى تنتهى إلى أسرة بريعة والتى ارتحلت شمالاً، وذلك من أجل تمييزها عن الفروع التى تبقت فى الجنوب وانضوت تحت لواء سبط افرايم وسبط بنيامين (أخبار الايام الأول ٧: ٢٣، ١٣:٨).

أما فيما يتعلق بسبط يساكر ومنشة فتوجد براهين تفيد أن بعض عائلاتهم اللاتى سكن منذ البداية فى منطقة الجبل الاوسط، ارتحلوا شمالاً إلى الوديان والجليل السفلى فى مجموعة القضاة الصغار: «تولدع بن فوأة بن دودو رجل يساكر، الذى يمثل هو وأبيه الإسر الرئيسية فى أنساب هذا السبط» (اخبار الايام الأول ١:٧)، وقارن هناك إبنا آخر ليساكر هو شمرون، المرتبط على مايبدو بالاسم المقرائى شامير أو بـ «شيمير، صاحب جبل شوجرون) قد اقام فى فترة متأخرة من عصر القضاة بجبل افرايم. ويمكننا ان نعثر على دليل لتدفق أبناء سبط منشة شمالاً من خلال وصف الحدود الشمالية لهذا السبط الذى استحال تحديدها بدقة إلا بخطوط عامة فحسب: (ووصل إلى أشير شمالاً وإلى يساكر جهة الشرق، وكان لمنسى فى يساكر وفى أشير بيت شان وقراها) (يشوع ١٧: ١٠ - ١١). وتحصى هذه الفقرات سلسلة من الجيوب الخاضعة لمنسى فى داخل حدود الاسباط المجاورة له من الشمال. ويحق لنا ان نفترض ان عفرا كانت إحدى هذه الجيوب فى نطاق حدود يساكر، وعفرا هى مسقط رأس جدعون الذى ينتسب إلى أسرة أبيعيزر من سبط منسى (قض ١٥:٦).

كانت المناطق المترامية الاطراف الواقعة شرق نهر الأردن تعد مخرجا رئيسيا لاستيعاب فائض السكان الذى ينوء به الجبل الاوسط. خاصة المنطقة الواقعة شمالى نهر يبوك، التى كانت فقيرة فى عدد السكان، كما سبق أن ذكرنا . وفى الحقيقة يمكن ان نستخلص من قوائم الانساب ومن رموز أخرى واردة فى المقرا انه كانت هناك حركة هجرة واسعة صادرة عن كافة الأسباط القاطنة بالجبل إلى نهر الأردن، وكان سبط منسى فى مقدمة هذه الاسباط، حتي ان الرواية المقرائية تتحدث عن «نصف سبط منسى» الذى يستوطن الجلعاد الشمالى حتى شرق الباشان. وأغلب نصف سبط منسى المشرقى هم لاريب من أبناء مكير الذين يرد ذكرهم فى قصية دبورة كعشيرة سبطية

مستقلة في جبل افرايم. (قض ٥: ١٤). أما في سائر اشجار الانساب فإننا نجد أن مكير هو أبوجلعاد وابن منسى (يشوع ١٧: ١، أخبار الايام الأول ١٤:٧) ويتضح ان مكير أو على وجه الدقة نصف أبناء مكير (يشوع ١٣: ٣١) ارتحلوا شرقا واحتلوا مناطق في الجلعاد والباشان (قارن عدد ٢٢: ٢٩، يشوع ١٧: ٢) وبمرور الوقت تم ادخالهم في النطاق السبطي الاوسع لبني منسى، وهي الحقيقة التي تتجلى أيضا في الروايات الواردة عن ولادهم على ركبتي يوسف (تك ٥٠: ٢٣). بيد ان الكثيرين عن أبناء افريم ارتحلوا إلى الجلعاد كما نفهم من وجود «وعر إفرايم» الذى إختص به أباشالوم. ونفس المنطقة (صموئيل الثاني ١٨: ٩) تفسر الحرب الأهلية في عصر يفتاح.

وقد كان وضع سبط بنيامين، على وجه الخصوص، حيث انحشر في «إرثة» الجبلي الضئيل بين أبناء يوسف وأبناء يهوذا وكان حده من الغرب السكان الغرباء. ولذلك فإنه لاغرابة إذا كان قد وجد متنفسا لفائض سكانه في شرقي نهر الاردن بالذات. وتضم المقرا شهادات كثيرة عن العلاقات الوثيقة التى ربطت بين سبطي بنيامين وبين شمال الجلعاد مثل الحكايات عن المحظية في الراما وتخليص شاءول ليابيش الجلعاد. وتتجلى هذه العلاقات أيضاً في قوائم الانساب، التي تذكر عائلات ذوات أسماء متطابقة (شوبيم وحوبيم) في شجرة أنساب بنيامين ومكير بن منسى (أخبار الايام الأول ٧: ١٢ ومن جهة أخرى فقرة ١٥). وعلى ذلك يمكننا، تعويلاً على الصياغة المقرائية فيما يتعلق بمنسي ومكير، أن نتحدث عن شئ أشبه «بنصف سبط بنيامينً الذى استوطن شرق الأردن. وبالفعل قد نجد أصداء لهذا الانتشار تنبعث مما ماجاء في نبوءة النبي عوبديا بشأن استيلاء سبط بنيامين على الجلعاد (عوبديا ١: ١٩) وينطبق نفس الامر على سبط يهوذا الذي قيل عن احدى عائلاته الرئيسية: «وبعد دخل حصرو ن على بنت مكير أبي جلعاد واتخذها وهو إبن ستين..

فولدت له سجوب وأنجب سجوب. يائيرً (أخبار الايام الأول ٢: ٢١ - ٢٢)، اذن يمكننا ان نقول ان فروعا من عائلة حصرون المتشعبة التى تنتسب إلى سبطى يهودا او رؤوبين (أخبار الأيام الأول ٥:٣)، قد هاجرت إلى الجلعاد، وهناك اختلطوا بعائلات مكير أستوعبت بداخلها أصولا أخرى، أقارب لبنى إسرائيل، استوطنت نفس المكان.

ويشير النموذج الأخير إلى ظاهرة ذائعة بوضوح فى قوائم الانساب، وهى إحتواء أصول عرقية غريبة بين ظهرانى أسباط بنى إسرائيل، سواء فى صورة امتزاج أو ذوبان إثنى حقيقى أو مجرد ضم تجمعات سكنية قديمة داخل الاطارات السبطية، مثل مدينة شكيم التى يرد ذكرها كأحد الابناء فى شجرة أنساب منسى، ومن المهم أن ننقب وننبش خلف مثل هذه العمليات الاستيطانية خاصة فيما. يتعلق بسبط يهوذا، الذى صوّرت منطقة استيطانه بأسلوب تفصيلى بالغ (يشوع ١٥) وتمخضت عن هذا السبط قوائم أنساب غنية (أخبار الأيام الثانى ٢:١ - ٢٣) بسبب الاهتمام الخاص الذى أولاه مدونى المقرا لهذا السبط. وهذه القوائم توضح التشريح المعقد للهيكل السبطى الذى يعتبر نتيجة انتشار السبط فى جنوب فلسطين فى تخوم الجبل وغور يهوذا وحدود النقب، حيث كان يوجد بالفعل استيطان أجنبى تليد كنعانى وحورى بالاضافة إلى بعض القبائل التى استوطنت هذا المكان منذ فترة قريبة شأنها شأن أسباط بنى إسرائيل. وتتجلى هذه التشكيلة العجيبة من الأصول العرقية الغريبة فى مستهل قائمة الانساب التى تورد بالتفصيل أحفاد يهودا من امرأة كنعانية (نفس المرجع ٢:٣ وقارن قضية يهوذا وتامار تك ٣٨). لكن هذا الامر على وجه الخصوص يخرج من سياق قوائم الانساب التى تشتمل بوفرة على اسماء كنعانية وحورية، يمكن تحديدها إن وجهت اليهادراسة علمية دقيقة. وقد تم، فى اطار سبط يهوذا على وجه الخصوص، إحتواء أسباط تربطه بها صلة دم، كانت قد تجولت فى فترة الغزو بمنطقة الحدود الجنوبية

مثل القيني والقنيزي واليرحمئيلي، ومنهم من توغلوا شمالاً بإتجاه حبرون وبيت لحم مثل بنو كليب الذين شكلوا أساسا مهماً في الهيكل النهائي لسبط يهوذا.

ولعل هيكل سبط يهودا، شأنه أسباط أخرى، يشير إلى ميل هذا السبط إلى الامتزاج بسهولة مع أصول عرقية غريبة، في مقابل أسباط أخرى أو بعض عشائرها كانت تتزمت في الحفاظ على نقاء السبط، واستوعبت الاصول العرقية الأخرى بصعوبة بالغة. وقد ساد في مجتمع بني إسرائيل الابوي في البداية مبدأ التزاوج الداخلي بين أبناء وبنات السبط، ويتجلى هذا الامر في الروايات عن حرص الآباء البطاركة على مصاهرة الاقرباء، لكن بمرور الوقت تراجع هذا المبدأ، خاصة بين الاسباط الذين إحتكوا في أماكن استيطانهم بتجمعات كبيرة من السكان الاجانب وانتشرت بين عدد منهم عادة التزواج من خارج السبط. وبالاضافة إلى سبط يهودا يبرز الميل إلى الاختلاط الإثني، على وجه الخصوص، لدى سبط شمعون، الذي اتصل بالسكان الكنعانيين أثناء ترحالهم قرب حدود فلسطين علاوة على التقائهم بالقبائل الجوالة في برية الجنوب. فأول أحفاد شمعون الرئيسيين كان ينتسب إلى إمرأة كنعانية، (تك ٤٦ : ١٠) كما ان مبشم ومشمع تتماثل أسماؤهم مع أسماء بني إسماعيل. (أخبار الايام الأول ٤:٢٥، تك ٢٥: ١٣ - ١٤). ونلاحظ في المقرا إشارة تؤكد الميل إلى التزاوج من خارج السبط في قصة بعل فغور التي تصور علاقة البغاء بين بني شمعون وبنات مديان (عدد ٢٥: ٦ فصاعداً).

وسنختتم الحديث عن مسيرات الاستيطان السبطي، كما تتضح من خلال قوائم الانساب، بملحوظة ذات مغزى تظهر في هذه القوائم فيما يتعلق بتبادل البكورية بين أسباط بني إسرائيل، وهو الأمر الذي يفيد تغير مكانة الاسباط بالنسبة لعموم الأمة: «وبنو رأوبين بكر اسرائيل لأنه هو البكر ولأجل تدنيسه فراش أبيه أُعطيت بكوريته لبني يوسف بن إسرائيل فلم ينسب بكراً

لأن يهودا اعتز على اخوته ومنه الرئيس أما آلبكورية فليوسف». (أخبار الايام الأول ٥: ١ - ٢). وتدلل هذه الفقرة على انحطاط مكانة سبط رأوبين، الذى كان يحتفظ بحقه فى البكورية منذ البداية. (قارن تك ٤٩: ٣ -٤، وتث ٣٣: ٦) وتعاظم سبط يوسف وأخيراً تعاظم وازدياد ثقل سبط يهودا. أما بالنسبة

للثقل المتزايد الذى بدأ يحوزه سبط افرايم بين ظهرانى بنى يوسف فى فترة الاستيطان فتدلل عليه الروايات عن نقل البكورية من منسى إلى افرايم فى مباركة يعقوب لاحفاده (تك ٤٨: ١٣ - ٢٠).

عصر القضاة

حكم القضاة:

يقوم الاستعراض التاريخي لعصر القضاة، بالضرورة، على مجموعة القصص الواردة فى سفر القضاة، بالإضافة إلى الإشارات القليلة الواردة فى المصادر المقرائية الأخرى، التى تنطوى على معلومات إضافية تتعلق بالفترة موضوع الحديث. ويقوم الأطار البراجماتي – التاريخى، الذى تقاطرت فيه قصص القضاة، على وجهة النظر المؤمنة بدورة التاريخ، وهى رؤية إسرائيلية، فى عمومها. ووفقاً للأولى تبدو أحداث هذه الفترة مثل حلقات متكررة من وقوع اليهود فى العبادات الوثنية، واستعباد الأغراب لهم، والصراخ ليهوه من أجل الخلاص وافتدائهم بيد مُخلّص، يهبهم فترة هدوء مديدة. وقد فرضت وجهة النظر هذه على السفر ظهور القضاة وفقاً لتسلسل تاريخى. أما الرؤية الإسرائيلية، التى ربطت أحداث هذه الحقبة ومجال أعمال القاضى بخلفية قومية إقليمية فإنها تنطوى على قدر كبير من المبالغة، على الرغم من أن عدداً من الاسباط قد تضرر فعلياً من الضغوط الاجنبية، بوجه عام، واقتضت عملية التحرر من نير المستعبد وجود ثمة تعاون بين مجموعة من الأسباط.

وقد صُوِّر نظام حكم القضاة، عن حق، بناءً على نظرية الأنظمة الحاكمة لعالم الإجتماع ماكس ويبر، على أنه زعامة كاريزماتية شخصية، وذلك للتمييز بينه وبين السلطة الابوية – السبطية، التى تبوأها شيوخ القبائل ورؤساء العائلات، من ناحية، وبين السلطة الكاريزماتية المؤسسية التى ظهرت بعد ذلك فى عصر الملكية، من ناحية أخرى. وتنبع السلطة الكاريزماتية من الإيمان بأن الشخص صاحب الكاريزما يتمتع بحظوة خاصة يسبغها عليه الإله، ويتجلى الأمر فى التجليات الدينية المختلفة والروح البطولية التى تنبض بداخلهم. وتمتاز الزعامة الكاريزماتية بأنها عفوية وذاتية، دون أية ارتباطات

بالأنساب أو المكانة الإجتماعية، ولا تنتقل بالوراثة. ويؤدى التطلع إلى ظهور مخلص فى أوقات الضيق والازمات إلى احتشاد الشعب حوله حال ظهوره، بطريقة حرة، ومن خلال صحوة دينية قومية، اذن فإن النظام السياسى فى عصر القضاة اتسم بالضعف، إذ كانت النظم الإجتماعية الثابتة والحياة اليومية تتجمع فى أيدى رؤساء العائلات ومؤسسة الشيوخ. إلا أن الصلاحية البطريريكية - السبطية ذاتها أخذت تضعف أثناء عصر القضاة، نتيجة استقرار أسباط بنى إسرائيل على الأرض وتكيفهم مع ظروف التجمعات السكانية الحضرية من أهل كنعان، الذى أسفر، بقدر أو بآخر، عن الميل إلى تفضيل المبدأ الإقليمى على مبدأ قرابة الدم.

وقد كان القضاة الكاريزماتيون الكبار، الذين قرروا مصير الشعب بأعمالهم البطولية، وفقاً لترتيبهم فى سفر القضاة. عُتنيئل وإيهود، وعلى مايبدو أيضاً شمجر بن عناة، الذى لم تحتفظ المقرا من قصته سوى بفقرة واحدة، (قض ٣: ٣١) وجدعون، والثنائى دبورة وباراق ويفتاح وشمشون، وإن كان الأخير عمل بصورة فردية. ولكن سفر القضاة يورد أيضا نموذجا آخر من القضاة، وهم القضاة الصغار الذين لم ينسب لهم أعمال بطولة فعلوها من أجل إسرائيل، وإنما على مايبدو انهم كانوا من ذوى الحسب فى الاسباط، وهم تولاع بن فُواة (رجل يساكر) ويائير الجلعادى وإبصان من بيت لحم (ربما المقصود مكان بين ظهرانى سبط زبرلون) وأيلون الزبولونى وعبدو ن البرعتونى من جبل إفرايم. (قض ١٠: ١ - ١٢/٥: ٨ - ١٥).

وهناك رأى رائج بين الباحثين يرى أن القضاة الصغار شغلوا منصب عموم إسرائيلى ثابت ومتواصل، ولم يكونوا قضاة مُخَلِصين وإنما قضاة فعليون، تعهدوا برعاية القانون فى الفترة التى سبقت عصر الملكية. ويفترضون أيضا أن المحرر المتأخر الذى دوّن سفر القضاة أعد قصص القضاة المُخَلِصين على شاكلة قصص القضاة الصغار، أى أنه حوّل

الشخصيات الكاريزماتية إلى قضاة حاكمين. وينبغى ألا نقبل مثل هذه الافتراضات، وخاصة الزعم بأن مسألة القضاء لدى الزعماء الكاريزماتيين هى إضافة متأخرة. جاءت لتزاحم نظرية المُخَلِص، التى تمثل الرافد الأساسى القديم. ويتضح من مصادر خارج المقرا، أن مصطلح قاض هو مصطلح قديم ويفيد معنى الحاكم والوالى. وقد جاءت وثائق مارى لتفيدنا أن لفظ «قاضى» استخدم فى الربع الأول من الألف الثانى لتشير إلى صاحب منصب فى الهيكل السبطى، وأن صلاحيات صاحب هذه المنصب تختلف تماما عن إصدار الاحكام القضائية، ويرد مصطلح «قاضى» فى الكتابات الفينيقية أيضا بمعنى حاكم وخاصة فى اللهجة البونية، وربما ورد بهذا المعنى أيضا فى الوثائق الاوجاريتية.

وبناء على ماتقدم فإن اللفظ «شوفيط»، سواء لدى القضاة الكبار أو الصغار، لايعدو عن كونه إشارة إلى زعامة الشعب، التى تشتمل تلقائياً على صلاحية التحكيم والحسم فى القضايا، إلى جانب تخليص الشعب وتحريره من سيطرة الاعداء. ويبدو أن الفارق الكبير، البادى لنا من خلال القصص الواردة، بين القاض المُخَلِص والقاض الصغير ناجم فى الاساس عن طبيعة المصدر الأدبى الذى يصف كل من النموذجين، حيث رويت أعمال القضاة الكبار من واقع القصص الشعبى، أما المعلومات عن القضاة الصغار فقد استمدت من تواريخ عائلية، تشمل تفصيلات عن أصول القاضى، ومكانه وفترة حكمه، وموقع قبره، وعدد أحفاده... الخ.

ومن الممكن والمحتمل أن القضاة الصغار كانوا أيضا زعماء وقادة عسكريون. ولكن لم يحتفظ سفر القضاة بحكايات عن بطولاتهم، ويمكن أن نستخلص ذلك من قصة يائير الجلعادى الذى يصور فى رواية خارج سفر القضاة على أنه فاتح شرق نهر الأردن (انظر عدد ٣٢: ٤١. وقارن أخبار الايام الأول ٢: ٢٢). ومن جهة أخرى نجد بعض السمات المميزة للقضاة

الصغار لدى القضاة المُخَلِصين مثل يفتاح الذى ترد فى نهاية قصته بعض التفاصيل التى تميز قصص القضاة الصغار (قض ١٢:٧)، وكذلك لدى دبورة التى اشتهرت قبل حرب التحرير بأنها قاضية بنى إسرائيل فيما بين الراما وبين بيت إيل (قض ٤: ٤ – ٥). ويظهر الترابط بين صنفى القضاة بصورة واضحة فى شخصية يشوع الذى كان مخلصاً لبنى إسرائيل كان يقضى ويحكم بين الاسباط. مثلما حدث عند ماطالب بنو يوسف بتوسيع حدود إرثهم (يشوع ١٧: ١٤ فصاعداً).

وعلى الرغم من كافة المآخذ، فإن قصص سفر القضاة ذات قيمة بالغة، بوصفها مصدراً للتعرف علي نمط الحياة فى عصر القضاة وعلى الظواهر التاريخية التى تميز هذا العصر. وهناك أيضاً لفيفة (مجيلاه) «روث» التى تعد شاهداً على الواقع الذى ساد إبان حكم القضاة (روث ١:١) . وليس هذا فحسب بل إن كل قصة من قصص القضاة المُخَلِصين تجسد صراعا مع عدو من طراز خاص، مختلف، سعى إلى عرقلة خطوات بنى إسرائيل، وتسلط الأضواء على المشاكل الخاصة التى رافقت كل صدام من هذه الصدامات: فتحف قصة دبيورة الصراع مع الكنعانيين، أصحاب الأرض الأصليين، وتمثل قصة جدعون نموذجا للصراع مع القبائل الجوالة، قبائل الصحراء (مغيرى الصحراء). وتقدم قصص إيهود ويفتاح نموذجا للحروب مع شعب الحدود المرابط بشرق الأردن، الموابيين والعمونيين، وتسلط مجموعة قصص شمشون الاضواء على القوة الفلسطينية الآخذة فى التعاظم داخل البلاد.

حرب دبورة وباراق:

لقد أدى إزدياد قوة بنى إسرائيل، وإزدياد عددهم وتغير وجه البلاد نتيجة لهذه الأمور، إلى المساس بأصحاب البلاد الاصليين الذين طردوا من أجزاء كبيرة من أراضيهم مما دفعهم إلى أكبر صدام عسكرى ومصيرى واجه بنى إسرائيل فى عصر القضاة، وهو حرب دبورة وباراق مع الكنعانيين. وقد كانت هذه الحرب كسائر حروب إسرائيل في عصر القضاة حربا دفاعية فرضت على بنى إسرائيل من الكنعانيين الذين فيما يبدو، حاولوا المحاولة الشاملة الاخيرة فى شمال البلاد لاعادة الامور إلى نصابها.

وتضع حرب دبورة الباحثين أمام صعوبات تاريخية وتأريخية خطيرة للغاية ترجع إلى الرواية المزدوجة، الادبية والغنائية، عن هذه الحرب (القضاة الاصحاح الرابع والخامس) وعلاقتها بحرب مياه ماروم وتخريب حاصور التى فى سفر يشوع.

لقد وقعت حرب دبورة فى القرن ١٢ ق.م، وليس فى مرحلة أقدم من هذا. والدليل على هذا ورود اسم شمجر فى نشيد دبورة، والذى هو ليس إلا شمجر بن عنارة الذى أنزل هزيمة بكتيبة فلسطينية مكونة من ستمائة رجل. وشمجر بن عنارة، سواء كان إسرائيليا أو كان من أصل كنعاني، كما يدل اسمه على ذلك، يعتبر من وجهة النظر الإسرائيلية بمثابة مُخَلِص بفضل انتصاره على الفلسطينين. ولكن مثل هذا الصدام والذى وقع، حسبما يبدو، فى شمال البلاد، من الصعب افتراض حدوثه قبل بداية القرن الثانى عشر ق.م، حينما اقترب الفلسطينيون من حدود البلاد، وكانت حرب دبورة بعد هذا الحدث. ويدل على وقوع حرب دبورة فى تاريخ متأخر نسبيا ورود إسم سبط دان فى نشيد دبورة بين جلعاد وآشير، أى بعد أن تمكن السبط من الهجرة

إلى منطقة في الشمال. وفي هذا الخصوص لابد من الاشارة إلى الرأى القائل بأن مكان المعارك كان هو «تعنك التى على مياه مجدو» (قضاه ٥: ١٩) ولم يكن المركز الرئيسى لها هو مجدو نفسها، وهناك من يستنتج من ذلك، أن مجدو كانت خربة في ذلك الوقت. وعلى هذا الاساس يمكن تحديد زمن حرب دبورة على أنها وقعت في الفترة بين الخراب الكبير للمدينة السابعة لمجدو وتأسيس المدينة السادسة، أى حوالى ١١٢٥ ق.م.

وهذا التاريخ يناسب نتائج الحفريات التى تمت مؤخراً فى تعنك، (والتى ضربت المدينة الكنعانية وفقا لها فى بداية القرن الثانى عشر ق. م، وهو التخريب الذى يحتمل أن بنى إسرائيل هم الذين قاوا به) وبإستعادة قصة دبورة لابد من الارتكاز على الوصف الادبى المتأخر وكذلك على نشيد دبورة، والذى يعتبر مصدراً أقدم بلاشك، وربما كان معاصرا للاحداث. ويرى البعض أن هذين المصدرين متناقضين، بينما يرى البعض الآخر أنهما يكملان كل منهما الآخر. والفروق الاساسية بين المصدرين، أى عدد الاسباط التى قامت بدور فى المعارك والمعلومات الطبوغرافية لميدان المعركة، لاتعكس فيما يبدو إلا مراحل مختلفة من نفس الحرب. وبناءً على هذا فقد قام بالجهد الاساسى فى هذه الحرب أسباط نفتالى وزبولون، اللذين ذكرا فى كل من القصة والنشيد. ان المقاتلين العشرة آلاف الذين وضعتهم هذه الاسباط تحت إمرة باراق بن ابينوعم والذى ينتمى إلى سبط نفتالى، قد تمت قيادتهم إلى جبل تابور. وتابور تتميز بميزات عسكرية كبيرة وبإمكانية استطلاع لمسافات بعيدة وقدرة على متابعة تحركات العدو، وتنظيم القوات الاسرائيلية خارج نطاق اصابة المركبات الكنعانية وتجعل المبادرة الهجومية فى يد القيادة الإسرائيلية.

وقد وصل بنو إسرائيل إلى الحد الاقصى من التضامن القومى ضد الاعداء فى عصر القضاة: من بنيامين في الجنوب وحتى نفتالى فى الشمال. وقد كانت القبائل التي أقامت فى المناطق الجبلية، أو فى سهولها هى التى

أخذت زمام المبادرة للحرب، لانها كانت أقل تعرضا لضغط الكنعانيين وكانوا أكثر صلاحية للصدام، أما أسباط الوادى، والذين كانوا مرغمين على الاقامة فى اماكنهم مع الخضوع لاستعباد الكنعانيين، وكانوا المستفيدين الاساسيين من هزيمة العدو، فلم يكن فى إمكانهم أن يبدأوا الصراع ضد الكنعانيين. وعلى ضوء هذا الانتصار قويت مكانة بنى إسرائيل فى وادى يزرعئيل وتم تأمين التتابع الاقليمى بين أسباط الجليل وأسباط الوسط.

حرب جدعون ضد قبائل الصحراء:

لقد ساهم انتصار بنى إسرائيل على الكنعانيين، فيما يبدو، فى تقريب أخطار جديدة على الاستيطان فى شمال البلاد. لقد هزت هزيمة الكنعانيين القوة الدفاعية الكنعانية فى المنطقة الشمالية والحالة الامنية وكشفت البلاد أمام الغارات من الخارج، وعلى الأخص من القبائل الصحراوية. وقد كانت هجمات القبائل الصحراوية على المناطق المزروعة وعلى المناطق الأهلة بالسكان ظاهرة تاريخية تتكرر بإستمرار فى فترات الضعف السياسى والعسكرى، على النحو الذى حدث فى أيام الاستيطان الإسرائيلى. ولم تتوقف مثل هذه الهجمات إلا بعد استتباب الأمور والحكم فى عهد داود. واقتراب قصة جدعون من قصة دبورة فى سفر القضاة استناداً إلى هذه الظاهرة فيها منطق تاريخى داخلى.

لقد تدافع البدو الجوالون بجموعهم من حدود الصحراء وهم يشكلون تضامنا من عدة قبائل فى شكل اتحادات ضعيفة إلى حد ما، وكانوا يقومون كل بتصفية الآخر، مثل مديان، ويشمعئيل، والهاجريون والعماليق، وكان المنتصر منهم يفرض نفسه على الائتلاف الاتحادى كله. وقد كان المديانيون على رأس موجة القبائل التى قامت بغزو أرض كنعان الغربية فى عصر جدعون ووصلوا إلى ذروة قوتهم فى القرن ١٢ ق.م، وكان برفقتهم العمالقة بنو المشرق (القضاه ٦:٣، ٧، ١٢)وقد كانت منطقة تجمع المديانيين هى

حدود شرق الاردن الجنوبية، ومن هنا علاقاتهم الخاصة بالمؤابيين وبمملكة سيحون الأموري. ولكن طرق تجوالهم امتدت على مساحات شاسعة حتى مصر في الغرب، ووديان الفرات في الشمال، وصلت فروع قبائلهم إلى سبأ في جنوب الجزيرة العربية. قد كانت هذه الجولات طويلة المدى، وكان الازدهار الذي حظيت به هذه القبائل، هو ثمرة استئناس الجمل وتربيته وتكاثره بمدى واسع، وهو الأمر الذي بدأ في القرن ١٢ ق.م. ومنذ ذلك الحين أصبح الجمل هو الركيزة الاقتصادية الاساسية للحياة في الصحارى العربية، واستخدم كذلك في الاغراض القتالية.

وقد كان هدف غزوة بني مديان في أيام جدعون، والتي حدثت حسبما يبدو في مطلع القرن ١٢ ق.م، هو وادي بيت شان ووادي يزرعئيل، وفيما ورائها السهول الخصبة الممتدة على طول الساحل. وقد تمكنوا من التسلل بعمق حتى غزة (قضاة ٦:٤)، بسبب سقوط عواصم المملكة الكنعانية، وبخاصة التابعة للسلطة المصرية، في «طريق البحر» في النصف الثاني من القرن ١٢ ق.م. وحسب عادة القبائل الصحراوية فإن جيوش المديانيين كانت تتحرك بنسائها وأطفالها في شهور الصيف، في وقت نضج المحاصيل، ويقومون بالسلب والنهب والتدمير للمحاصيل، ولذلك فقد أضير الاستيطان الاسرائيلي الزراعي بصفة خاصة.

وقد اضطر بنو إسرائيل في مواجهة هذا الأمر إلى إعداد «الكهوف التي في الجبال والمغاير والحصون» (قضاة ٦:٢) من أجل انقاذ أنفسهم ومحاصيلهم، ولكي يقوموا بأعمالهم في ظروف الطوارئ مثلما فعل جدعون عندما «خبط الحنطة في المعصرة لكي يهر بها من المديانيين» (قضاه ٦:١١). ومما يشير إلى عدم شيوع الأمن في هذه الفترة تلك الاكتشافات الاثرية والتي تشير إلى وجود عدد كبير من المغارات في مناطق المدن من أجل تخزين المحاصيل.

وقد قاد الحرب هذه المرة جدعون بنى يوآش الابيعزرى من سبط منسى، وقد سبقت هذه الحرب كسابقاتها عملية يقظة قومية دينية. ويصف العهد القديم بالتفصيل الاصلاح الدينى الذى قام به جدعون، والقضاء على عبادة البعل والسارية فى موطنه عفرة، وذلك على غرار ما فعل شاؤول عشية حملتة ضد الفلسطينيين. وقد استدعى للحرب ضد المديانيين بالاضافة إلى منسى كل من أشير وزبولون ونفتالى وفى مرحلة متأخرة بنى إفرايم.

ويشير تخطيط العملية العسكرية وتنفيذها الناجح، إلى أن جدعون استغل بالكامل عناصر المفاجأة والحرب النفسية، مما أشاع الربكة فى معسكر المديانيين وأرغمهم على الهرب فزعين مع الفجر إلى وادى الاردن. وقد ظل هذا النصر رمزاً للأجيال عند بنى إسرائيل ووصف بأنه «يوم مديان» (سفر اشعيا ٩:٤). ولكن جدعون حاول، من ناحية، قطع طرق انسحاب العدو فى منطقة الاردن بواسطة قوات بنى افرايم، ومن ناحية أخرى قام بعملية مطاردة طويلة وراءهم. وقد فاجأ قواعد المديانيين فى قَرقُر التى فى وادى سيرحان، وسقط فى يده كذلك ملكا مديان زبح وصلمناع. وفى طريق عودته عاقب، أمراء سكُّوت وشيوخها، أى القيادة المسئولية عن إدارة المدينة، وشدد العقوبة على فنوئيل، حيث قتل سكانها وأحرق حصنها وذلك لأن سكان هاتين المدينتين رفضوا تقديم المساعدة لكتيبته فى أثناء المطاردة خوفاً من انتقام المديانيين.

الارهاصات الاولى لاقامة الملكية فى أواخر فترة جدعون وقصة ابيمالك:

إن الميل لجعل نظام الزعامة الكارزمية مستقراً ومنحه صفة الدوام والاستمرارية، هو من الظواهر الموجودة فى تاريخ الانظمة التى من هذا النوع، وقد أثيرت فى بداية عصر القضاة فكرة الحكم الملكى وأدت إلى

المحاولات الاولى من اجل تحقيقه، وهى المحاولات التى أدت إلى جدل واختلافات بين بنى إسرائيل.

فعلى غرار ماحدث مع شاؤول، حيث عرض عليه الملك، حسب احدى الروايات الواردة فى العهد القديم فى إثر انتصاره على بنى عمون (صموئيل الاول ١١) فإنه قبل ذلك بعدة أجيال توجه «رجال إسرائيل» إلى جدعون وطلبوا تنصيبه ملكا عليهم، بعد أن عاد مكللا بالنصر على بنى مديان. ولكن جدعون رفض هذا العرض بقولته المشهورة «لن أتسلط أنا عليكم ولايتسلط ابنى عليكم، الرب يتسلط عليكم» (قضاة ٨: ٢٣)، وهى الجملة التى تعكس وجهة النظر بشأن تسلط الرب. وسواء كان هذا القول قد قاله جدعون بالفعل أو قد وضع على لسانه، فإنه، على أية حال، ليست ثمرة تدوين ثيوقراطى متأخر، بل انعكاس مخلص للاتجاهات التى كانت سائدة بين بنى إسرائيل فى عصر القضاة، حيث كانوا يستمدون وحيهم من الايمان بحرية الفرد.

وهناك دليل أقوى على وجهة النظر المعادية للملكية فى تلك الفترة الزمنية نجده فى قصة يوثام، التى تعرض الملكية بإعتبارها موسسة ظالمة جائرة، لا فائدة لها ولا غاية. وبالاضافة إلى هذا، يشير عرض الملكية على جدعون ويوثام، إلى أن الرغبة فى تحويل الزعامة الكارزمية إلى نظام حكم ثابت ودائم قد ضربت بجذورها لدى قطاع من بنى إسرائيل، ولكن المعارضة كانت أقوى لدى قطاعات أخرى من بينهم. و ينطبق نفس الشئ على اتجاهات السلطة عند يفتاح وشيوخ جلعاد، الذين استجابوا لطلبه بأن يحظى بمكانة «رجل لكل المقيمين فى جلعاد» أى حاكم أعلى يواصل تقوية صلاحياته فى أيام السلم والحرب.

وبالرغم من رفض جدعون عرض الملكية، فإنه قد حظى بإحترام كبير بفضل عملية الخلاص التى قام بها وركز فى يديه صلاحيات واسعة، سواء فى مجال الحكم أو فى مجال الدين (اقامة الإ يفود وتحويل عفرة إلى مركز

للعبادة). ولكنه لم يعط رأيه فى مسألة وراثة السلطة، ومن هنا نشأ نزاع دموى بين ابنائه الكثيرون بعد أن مات «فى شيبة صالحة». وقد كان أبيمالك ثمرة زواج جدعون من إبنة أحد نبلاء شكيم، وكان بمثابة زواج دبيلوماسى، حيث استغل روابطه الاسرية من ناحية أمه من أجل إبعاد إخوته والاستيلاء على السلطة فى شكيم. وقد أيد «أهل شكيم»، أى القيادة الروحية للمدينة، تنصيب أبيمالك ملكا، وذلك لمصالح اقتصادية ونهجا على الايمان بالتقاليد القديمة المتصلة بنظام الحكم الملكى الذى كان متبعاً فى المدن الكنعانية. وقد كانت الحسابات خاطئة، لأن أبيمالك الذى فرض سلطانه على جبل إفرايم بمساعدة كتيبة من المرتزقة «رجال بطالين طائشين»، قد تخلى عن شكيم كمقرله وأصبح قوة سياسية واقتصادية منافسة لنبلاء المدينة. وقد كان هذا هو سبب النزاعات والاحتكاكات بين أبيمالك والطبقة الحاكمة فى المدينة، بينما كان جعل بن عابد يدعو إلى الثورة ويستغل التوتر الإجتماعى، وربما العرقى، الذى ساد بين طبقات السكان المختلفة فى المدينة. ويبدو أن جعل قد دبر مؤامرة مع الطبقة النبيلة القديمة فى المنطقة والتى تنتسب إلى «حمور أبى شكيم» (قضاه ٩: ٢٩) وكانت محسوبة حسبما يبدو، ضمن الاستيطان الحوى (راجع سفر التكوين ٣٤: ٢)، ضد سائر الاستيطان الكنعانى وعلى الأخص ضد العناصر المخلصة لابيمالك والذين كان على رأسهم زبول «حاكم المدينة». وقد قضى ابيمالك على التمرد فى شكيم بقسوة ودمر المدينة تدميراً كاملاً، كانت علامته أن زرع الملح مكانها.

وقد أكدت الحفريات فى شكيم بوضوح تخريب المدينة فى نهاية القرن ١٢ ق.م وأوضحت إلى حد كبير ماهو وارد فى قصة أبيمالك. وقد اتضح ان شكيم قد قسمت إلى مدينة سفلى وإلى قلعة، كانت مبنية على قطعة أرض هى المشار إليها فى القضاه ٩: ٦ (سكان القلعة). وقد اكتشفت هناك سلسلة من التحصينات المتداخلة يرتفع فى مدخلها برجين. ويبدو أن هذا ليس إلا

«برج شكيم» الذى يتبعه «برج بيت إيل بريت» حيث تحصن هناك سكان شكيم، بعد احتلال المدينة السفلى. وقد دارت سلسلة مشابهة من المعارك حول مدينة تابامى، التى تمردت هى الأخرى على سلطة أبيمالك. وقد انسحب السكان من هناك أيضاً بعد احتلال المدينة السفلى إلى «مجدل عوز» ، أى إلى منطقة الحصن والهيكل المقدس، وتحصنوا فى الجزء الاعلى من المبنى، على «سطح البرج (قضاه ٩: ٥١)، ولكنى ابيمالك لقى حتفه هناك، حينما اقترب من السور بأن رمت عليه إمرأه قطعة من رحى، وقد أصبحت هذه الحادثة عبرة ودرسا بعد ذلك فى محاصرة الحصون وغزوها.

إذن لقد كان نظام الحكم فى فترة ابيمالك بمثابة ملكية قاصرة على مدينة، وحكم قبلى على جزء من بنى إسرائيل، وهى محاولة باءت بالفشل بعد ثلاث سنوات. وعلاوة على ذلك، فإنه حيث أن نظام الحكم هذا قد استمد وحيه من الايديولوجية الملكية الكنعانية ودعمه الاستيطان الكنعانى، وسبقه حمام دم بين بنى إسرائيل،فلا غرابة فى أن الرواية المقرائية قد رفضته من اساسه. إن الرواية المقرائية نظرت إلى ابيمالك على أنه ليس ملكا وليس قاضيا بل رجلاً ظالما، واشارت إلى أنه «ترأس ابيمالك على إسرائيل ثلاث سنين» (القضاه ٩: ٢٢). إذن، فإن هذه الملكية التى لم تقم بالقوة الكارزمية، مثل ملكية شاؤول وداود، وكانت تفتقد إلى الاساس الشرعى فى التقاليد الاسرائيلية، وكانت بمثابة تجربة فاشلة. ولم تكن الساعة قد حانت بعد لقيام حكم ملكى فى إسرائيل.

الصدام مع شعوب شرقى نهر الأردن
(قصة إيهود ويفتاح)

ظهرت آثار حالة التوتر التى خيمت على العلاقات بين بنى إسرائيل وجيرانهم، نتيجة تزايد وتنامي استيطان بنى إسرائيل، ظهرت آثارها أيضاً فى شرقى نهر الأردن. وقد اختلف الأمر عما كان عليه فى غرب فلسطين، حيث واجه بنو إسرائيل أصحاب الأرض الاصليين، أما هنا فقد جابهوا شعوباً أقارب لهم من حيث المنشأ، شعوب مالبثت أن استوطنت وبنفس الطريقة التى سلكها بنو إسرائيل. لقد وقع الصدام بين بنى إسرائيل والمؤابيين والعمونيين. ويرى كثير من الباحثين أن كوشان رشعاتيم، أول من استعبد بنى إسرائيل حسب ماورد فى سفر القضاة، الذى ألحق به عوتنيئل بن قناز الهزيمة، هو ملك أدوم وليس ملك أرام نهاريم. ويطالبون بتعديل صيغة المقرا بهذا الشأن، بيد أن هذا الاعتقاد لايتمشى مع العقل (انظر صموئيل الثانى ٣١/٢). وحتى فى شرق الأردن بالمنطقة الواقعة شمالى يبوق، حيث امتدت مناطق فسيحة فقيرة بالسكان، لم يتسبب انتشار الأصول البنى إسرائيلية والارامية فى اندلاع حروب حقيقية.

وفى المقابل، بالقطاع الفلسطينى الزاهر الواقع بين يبوق شمالاً وأرنون جنوباً، والذى يمتاز بظروف طبيعية جيدة للغاية، سرعان مابلغت الزيادة السكانية نقطة التشبع. وقد أدى نطاق الحياة المحدود من الاساس نظراً لمثول الصحراء شرقا ونهر الأردن من ناحية الغرب، إلى تأزم العلاقات بين أسباط بنى إسرائيل المحلية وبين المؤابيين والعمونيين من ناحية، وبين الدول الحدودية ذاتها من ناحية أخرى، كما أسفرت الظروف السياسية الجغرافية للمنطقة عن اندلاع صراع عنيف بين القوى المختلفة التى تبلورت هناك. ونشأ مما يمكن وصفه بمسيرة إيقاعية من بروز شعوب وممالك واضمحلال أخرى، إذ أن تعاظم نفوذ إحدى القوى كان مرهوناً بالضرورة باضمحلال وتدهور

القوى الأخرى. وضمور الحيز الذى يمكن لعناصر الجوار الآخر أن تنمو وتزدهر فيه.

ويمكننا ان نحيط علماً بمسألة تأرجح القوى فى المنطقة بصورة غير مباشرة من خلال جمع بعض المعلومات والإشارات المتناثرة فى المصادر «التاناخية». ومن ذلك على سبيل المثال، تسبب تعاظم نفوذ المؤابيين فى عصر الملك عجلون فى إضعاف أسباط بنى إسرائيل المجاورين له من جهة، ومملكة العمونيين، من جهة أخرى، وبين بنى إسرائيل المجاورين له من جهة، ومملكة عمون من جهة ثانية. ويمكننا أن نستدل على مكانة عمون المتدنية إزاء موآب من خلال الحقيقة التى تفيد أن عمون اضطرت أن ترسل إمدادات لمعاونة موآب فى حربها ضد بنى إسرائيل (قض ٣:١٣). كما ان اشتراك العمالقة فى حرب موآب تدل على سيطرة المؤابيين على الحدود الصحراوية. بيد أن اضمحلال المؤابيين بعد انتصار ايهود قاد بالطبع إلى تدعيم مكانة الجيران الثلاثة – إسرائيل وعمون وأدوم. ويبدو أن انتصار القاضى إيهود فتح الباب أمام تيار متزايد من الاعراق البنى إسرائيلية القادمة من غربى نهر الأردن إلى موآب وأمام علاقات أسرية مع المؤابين، كما نستنتج من لفيفة «مجيلاة» روث وقوائم أنساب يهودا او بنيامين (قارن أخبار الايام الأول ٤: ٢٢، ٨:٨). وتتردد أصداد لتعاظم النفوذ العمونى من خلال تبادل الرسل بين يفتاح وملك بنى عمون (قض ١١: ١٢ فصاعداً) والتى يظهر فيها أن الأخير قد تسيد على الأراضى المؤابية، أو على الاقل قطاعاتها الشمالية، واعتبر نفسه مخولاً بالمطالبة بالحقوق الاقليمية لهذه الدولة من بنى إسرائيل.

أما بصدد أدوم فقد تبقت معلومة ذات مغزى فى قائمة ملوك ادوم هزم بناء عليها، ملكها هداد بن بداد الاسباط المديانية فى بلاد موآب (تك ٣٦:٣٥) وهذه المعلومة تفيد أنه تعذر على موآب نفسها أن تصد قبائل الصحراء المغيرة، ناهيك عن سيطرة أدوم على موآب ذاتها. وقد حكم هذا الملك الأدومى قبل ظهور شاؤل وداود بحوالى خمسة أجيال، أى حوالى ١١٠٠ق.م تقريباً ، أى قبل عصر يفتاح. ويتضح من ذلك أنه فى هذه الفترة تقزمت السيادة

المؤابية على يدى شاول. وفى مقابل ذلك تعوزنا المعلومات الكرونولوجية الكافية لكى نحدد فترة الازدهار المؤابى فى عهد الملك عجلون ويجب إدراج قصة إيهود، بالتأكيد فى القرن الثانى عشر ق.م.

وقد ارتبط ازدياد نفوذ موآب كعنصر سياسى هام بإنتشارها شمالاً نحو أرنون ووديان موآب. ومن هنا أخذت موآب فى عهد الملك عجلون تبسط سلطانها على الضفة الغربية للأردن واستعبدت منطقة بنيامين وأخذ إيهود بن جرا على عاتقه المبادرة بشن حرب التحرير الخاصة ببنى إسرائيل، وإيهود هو أحد افراد أسرة من أشراف سبط بنيامين ظلت معروفة حتى عصر داود. (تك ٤٦ : ٢١، صموئيل الثانى ١٦ : ٥). وقد لعب إيهود من قبل دوراً محورياً فى سبطه، حين ترأس الوفد الذى قدم القربان لملك موآب كعادة رؤساء الشعوب المستعبدة التى تدفع الجزية لسادتها.

ويبرز الطابع الشعبى لقصة إيهود فى الايجاز المتبع فى تصوير الحرب بين بنى إسرائيل وموآب، فى مقابل الاسهاب الزائدة عن الحد عند تصوير البطولات الشخصية لايهود واغتياله لعجلون (قض ١٢:٣ فصاعداً) وعلى الرغم من ان المعطيات الطبوغرافية لا تتيح تتبع سير الاحداث فيمكننا أن ندرك بوضوح طبيعة الحيلة التى اتبعها المُخَلِص الإسرائيلى، حيث بنى ايهود خطته على كونه أعسرا أى قادر على استعمال السلاح بيده اليسرى، شأنه شأن سائر أبناء سبطه (قارن قض ٢٠: ١٦). وقد استطاع أن يخلع قلب ملك موآب وحراس قصره بطريقته فى ربط سيفه الصغير على فخذه الايمن، على غير المألوف، واشهاره فى حركة غير متوقعة مستخدماً يده اليسرى. وقد أسفرت وفاة ملك موآب عن ارتباك ساد فى جيشه وتم طردهم من أراضى غرب فلسطين. وأثناء انسحابه تكبد خسائر فادحة فى مخاضات نهر الأردن التى كانت تحت سيطرة بنى إسرائيل، وفقاً للاسلوب الاستراتيجى الموثوق به الذى اتبعه بنو إسرائيل أكثر من مره فى عصر القضاة.

يفتاح الجلعادى

بعد انتصار بنى إسرائيل على مؤاب لم تعد مواب مصدر خطر عليهم طوال عصر القضاة. وبالفعل فإن سفر القضاة يصف فترة إيهود بإنها فترة هدوء لمدة ثمانين عاماً، أى لمدة جيلين، وهى فترة سلام أطول من أى فترة حظوا بها بعد أى مخلص آخر من بين القضاة.

وقد ورث المؤابيون فى شرق الأردن فى بداية القرن الحادى عشر ق.م عنصر آخر بدأ فى مضايقة الاستيطان الإسرائيلى فى بداية عصر القضاة، وهم العمونيين، حيث حدث تصاعد قوة العمونيين فى اعقاب تدهور مؤاب، وازدادت بشكل ملموس فى اعقاب هزيمة المديانيين على يد جدعون وعلى يد هداد بن بداد، ملك مؤاب فى عام ١١٠٠ ق.م تقريباً. لقد كانت مملكة عمون التى تقع على اطراف الصحراء تعانى أكثر من أى مملكة أخرى من هجمات بدو الصحراء؛ وما أن توقف هذا الخطر حتى أتيح لها أن تقوم بالاشراف الفعال على تجارة القوافل. التى كانت التجارة عاملاً رئيسياً فى الازدهار الاقتصادى غير العادى الذى نعمت به عمون، وذلك لأنها كانت تسيطر على مفترق الطرق، وبصورة خاصة على قطاع من الطريق الرئيسى الذى كان يربطها بسوريا وبشبه الجزيرة العربية.

ومع ازدياد قوة عمون انتشرت إلى الغرب، بعيداً عن حدود مجالاتها الصغيرة إلى ذلك القطاع الخصب من البقاع، المحاط بمنطقة يبوق وإلى أرض جلعاد. ولكن عمون لم تكتف بالسيطرة على خط نهر الأردن وتطلعت إلى فرض سيادتها فيما وراء ذلك الخط على منطقة إفرايم وبنيامين وكذلك يهودا. والمؤرخ «المقرائى» يجعل هذا الهجوم الكبير القادم من الشرق موازيا للضغط المتزايد للفلسطينيين من الغرب (القضاه ١٠: ٧ – ٩)، وهو توازى يتناسب مع الواقع التاريخى فى النصف الأول من القرن الحادى عشر ق. م. ولم يتأخر رد بنى إسرائيل على هذه الهجمة حينما أصبح الخطر قريبا من

جانب عمون على استيطانهم الكثيف فى أرض جلعاد. وقد اضطر شيوخ جلعاد فى لحظة الطوارئ هذه إلى التوجه إلى يفتاح، الذى كان قد طرد من قبل من أرض ابيه لأنه كان ابن إمرأه زانية، وذلك لأنه كانت تحت إمرته قوة مدرية، وهو الأمر الذى أتاك ليفتاح أن يقود حربه ضدهم. وقد تمكن يفتاح بفضل هذا الجيش الخاص وبعد مساومة شاقة مع شيوخ جلعاد من أن يحصل على مكانة كل من «القائد»(قاتسين) و «الرئيس» (روش)، أى من يحكم فى أيام الحرب والسلم معا.

ومن هذه الناحية كان تولى يفتاح للسلطة مشابها لما حدث مع جدعون وأبيمالك وداود ورزون بن اليداع فى دمشق، حيث كانوا جميعاً من قادة العصابات المدرية.

وقد كان مركز حشد الجيش الإسرائيلى هو مصفاة، وهى المركز الدينى والسياسى لسكان جلعاد، والتى أخذت مكانة مقدسة فى قصص الآباء (تكوين ٣١:٤٨)، وعسكر بنو عمون فى مواجهتهم فى مدينة جلعاد. وقد امتنع جلعاد فى البداية عن استعمال القوة وبدأ فى التفاوض مع ملك بنى عمون، وهى المفاوضات التى أوردها العهد القديم. وبالرغم من أن صياغة المفاوضات تدل على علامات تحرير للنص متأخرة، إلا أن هذه الصياغة تعتبر مصدراً تاريخياً هاماً يعكس بحق مطالب كل من الطرفين ودعاواهم بالنسبة لملكية المنطقة المتنازع عليها الواقعة بين نهر يبوق وبين أرنون. لقد كانت حجة يفتاح حجة مزدوجة، وهى أن بنى إسرائيل احتلوا هذه المنطقة من سيحون ملك الأمورى وليس من عمون ومؤاب، وأنهم لذلك لهم حق قوى على المنطقة إستناداً إلى اقامتهم هناك لمدة ثلاثمائة عام. أما العمونيين فقد أقاموا حجتهم على أساس أنهم هم اصحاب هذه المنطقة الاصليين قبل إحتلال الأمورى.

وبعد أن فشلت المفاوضات هاجم يفتاح خط التحصينات على الحدود الغربية لملكة عمون، ولكن يفتاح لم ينجح فى اقتحام عاصمة عمون ولم يستطع أن ينزل ضربة قاصمة ببنى عمون، وقد استطاعوا أن ينتعشوا بعد فترة زمنية ليست كبيرة، وبعد مرور حوالى خمسين عاماً، عشية مملكة شاؤول حيث أغاروا على المنطقة الشمالية وسيطروا على يابيش جلعاد.

الحروب الاهلية فى عصر القضاة:

مع نهاية حرب يفتاح مع بنى عمون حدث حدث مأساوى فى تاريخ إسرائيل، وهو الصدام الدموى القاسى بين بنى جلعاد وبنى افرايم. وكان سبب النزاع هو رغبة بنى افرايم فى السيطرة على الاستيطان الإسرائيلى شرق الأردن، وهم مدعومون من العناصر الافرايمية الكثيرة التى هاجرت إلى جلعاد حيث أن «أنتم منفلتوا إفرايم بين جلعاد ومنسى» (قضاه ١٢:٤). وقد تجمع بنو إفرايم فى مدينة صافون المعروفة من خلال رسائل تل العمارنة، وبإعتبارها واحدة من مدن سبط جاد وتقع غالباًبفى تل السعيدية فى وادى الاردن الشرقى. وقد حاولوا الصعود من هناك إلى مصفاة، حيث مقر يفتاح. وما أن حلت بهم الهزيمة حتى سعوا للهرب إلى مقرهم فى الضفة الغربية من نهر الأردن، ولكنهم ذبحوا بجموعهم فى معابر النهر. وفى هذا الخصوص يورد العهد القديم كيفية تمييز بنى افرايم وفق نطق كلمة «شبولت» على أنها «سبولت» (قضاه ١٢: ٦).

وتوجد هناك شهادة فريدة من نوعها على التوحد اللغوى لبنى افرايم، والذى يشير، حسبما يبدو، إلى التغييرات الموجودة فى اللهجات التى كانت شائعة بوجة عام فى لغة أسباط بنى إسرائيل. وقد ظلت أصداء هذا الحدث تتردد لمئات السنين بعد ذلك فى أقوال هوشع (سفر هوشع ٦:٨).

لقد كان سبب النزاع بين الاسباط فى أيام يفتاح هو ادعاء بنى افرايم بأنه لم يشركهم معه فى الحرب ضد العدو. وينسب ادعاء مشابه لبنى افرايم

في فترة جدعون بعد انتصاره على المديانيين؛ ولكن جدعون نجح في مصالحتهم عن طريق اشراكهم في مطاردة العدو المنسحب، وهو الأمر الذي جعلهم يحظون بإنتصار عسكرى محترم (قضاه ٢٤:٧، ٢:٨). وكما أن هذه الحوادث قد وقعت بسبب عدم إشراك احد الاسباط في حرب الخلاص، حيث أن هذا السبط يخسر بذلك لحظة مناسبة لكي يحظى بالتمجيد العسكرى وبثمار الانتصار، فقد حدثت صدامات اخرى لسبب عكس هذا، أى بسبب رفض المدن والاسباط من بنى إسرائيل مساعدة إخوانهم، حينما طلب منهم أن يقدموا هذه المساعدة. وقد رأينا فيما سبق كيف انتقم جدعون من سكان سكُوت وفنوئيل لأنهم لم يتسجيبوا لمطلبه بإعالة رجاله أثناء مطاردته للمديانيين. والمثال الآخر الأوضح عن عدم استجابة أسباط اسرائيل للمساهمة في المعركة يرجع إلى فترة حرب دبورة ضد الكنعانيين، حيث استنكرت دبورة في نشيدها سبط رأوبين، وبنى جلعاد ودان وأشير، وبصفة خاصة مدينة ميروز لأنهم «لم يتقدموا لمعونة الرب ولمعونة الرب بين الجبابرة» (قضاه ٥: ٢٣). وقد نشبت النزاعات بين الاسباط، إلى حد كبير، بسبب انعدام التضامن، وكذلك بسبب العداء الصريح الذى ساد بين الاسباط المقيمة على ضفتى نهر الأردن. ويشهد سفر القضاة على أن أى من حروب الخلاص لم تؤد إلى تعاون أسباط فلسطين الغربية وشرق الأردن، أى من كان السبب في ذلك. ومن المحتمل أنه بسبب انعدام الاحساس بالتضامن كان من الضرورى أن تؤكد الرواية المقرائية، مرارا وتكرارا، على التزام نصف اسباط شرق الاردن بالسير أمام الجيش في احتلال فلسطين الغربية. وينعكس التوتر بين قسمى بنى إسرائيل أيضا في الرواية الواردة في سفر يشوع الاصحاح الثانى والعشرين بشأن اقامة مذبح بواسطة أسباط شرق الأردن. ولكن سائر أسباط إسرائيل اعتبرت هذه العملية بمثابة تحد لهيكل شيلو وكادوا أن يهاجموهم. وقد خف غضبهم فقط بعد أن حددت مهمة المذبح على أنها رمز لوحدة الشعب وأنها ليست أداة عبادية تدعو للشقاق.

وبالاضافة إلى عدم التضامن الذى ساد بين أسباط فلسطين الغربية وبين أسباط شرق الاردن كان القوة المحركة لمعظم الصدامات هو سبط افرايم، الذى كان يخشى من فقدان المكانة الزعامية على سائر اسباط اسرائيل. ولذلك دخل فى نزاعات مع الاسباط التى كانت تقيم حوله بمجرد أن صعد نجمه فى أعقاب انتصار جدعون وهو من سبط منسى ويفتاح الجلعادى. وعلاوة على ذلك، كان سبط افرايم هو القوة المحركة التى تزعمت أسباط اسرائيل في الحرب ضد بنيامين بسبب حادثة المحظية فى جبعة، وهو الصدام الذى شمل اسباط بنى إسرائيل كلها وكان أكبر وأقسى صدام حدث عبر تاريخ بنى إسرائيل كله. وبالرغم من أن سبب هذه الحرب الأهلية كان هو الجريمة التى وقعت فى أرض بنيامين، فإن هذا فى حقيقة الأمر كان نتيجة للتنافس على الزعامة على أسباط بنى إسرائيل.

وقصة المحظية فى جبعة، الواردة فى القصص الملحقة بسفر القصاة (القضاه ١٩ - ٢١)، تقوم على روايات تاريخية قديمة، حسبما تدل على ذلك أقوال النبى هوشع عن «أيام جبعة» (هوشع ٥: ٨، ٩:٩)، وإن كان كثيرون قد شكوا فى صحتها، بسبب الطابع القصصى الغالب عليها.

ومن الناحية التاريخية حدثت هذه القصة فى الفترة الزمنية مابين يفتاح، وكإستمرار لعلاقات العداء بين إفرايم وسكان جلعاد، وبين بداية عصر شاؤول، أى بعد ذلك بحوالى خمسون عاماً. وتتضح فى قصة محظية جبعة علاقات الود التى كانت بين بنيامين ويابيش جلعاد، والتى كانت الوحيدة من بين كل إسرائيل التى رفضت المساهمة فى حملة الابادة ضد بنيامين، وعوقبت بسبب هذا بقسوة بالغة. ولن ندهش إذن أنه حينما هوجم سكان يابيش جلعاد بواسطة بنى عمون فى أيام شاؤول، توجهوا لطلب المساعدة من سبط بنيامين ولم يتوجهوا إلى افرايم الأقرب لهم، وكان شاؤول الذى ينتمى لسبط بنيامين هو الذى أنقذهم فى لحظة الضائقة.

وقصة محظية جبعة تثير الاهتمام من ناحية طرق تجميع أسباط بنى إسرائيل، وأنظمتهم الإجتماعية والعسكرية، وكذلك التفاصيل الخاصة بالنواحى الدينية، مثل معلومة أن بيت ايل كانت مركزاً دينياً (قضاه ٢٠: ٢٧). وتعكس القصة كذلك صورة «الديموقراطية البدائية» الاسرائيلية والتى كانت عناصرها الرئيسية هى الطائفة والجمعية العامة، التى تتمتع بصلاحيات عليا فى إصدار الأحكام وإعلان التعبئة للجيش، كما توجد أهمية لموضوع أن عشر المقاتلين قسرا كانوا يؤمرون بالخروج رلى الحرب بينما تتحمل بيوت آبائهم أمر إعالتهم إقتصاديا. والأهمية المميزة لقصة محظية جبعة هى في كونها نموذجا وحيدا فى عصر القضاة لعملية ضمت حلفا من كل اسباط بنى إسرائيل (فيما عدا السبط المعاقب)، بينما لم يقم بقيادة هذه العملية قاض أو ملك، أو رئيس بل قادتها المؤسسات الممثلة للاسباط.

الصراعات مع الفلسطينيين

ظهور شعوب البحر ودمار المدن الساحلية:

يمثل اقتحام الفلسطينيين (البلست) لشاطئ فلسطين حلقة ضمن الانقضاض الهائل من قبل شعوب البحر على الحوض الشرقي للبحر المتوسط والبلدان المجاورة، وقد تمخض هذا الاقتحام عن هزات دولية هائلة. فقرابة سنة ١٢٠٠ ق.م أفل نجم الامبراطورية الحيثية، بعد أن سيطرت على المنطقة لمئات من السنين، واقتربت مصر من عتبة الدمار، وتقوضت مدن ساحلية وموانى جمة على طول الساحل السورى والفلسطينى. وفى شبه القارة اليونانية وجزرها إنهار عالم الحضارة الموكينية (جزيرة كريت) الفاخر وبعد فترة احتضار قصيرة تلاشى واختفى تماما.

وفى نفس الفترة طرأت تحولات هائلة على الخريطة الاثنية (العرقية) فى الشرق، فى أعقاب الانتشار الاثنونجرافى (العرقى) الجديد فى أسيا الصغرى، وتدفق السكان من هناك إلى سوريا وربما جنوبها أيضا واستيطان أعراق جديدة قادمة من الغرب فى قبرص وفلسطين (بالاضافة إلى الفلسطينين).

وعلى صعيد آخر، حدثت هجرة الأسباط الدروية إلى اليونان وتم غزو ايطاليا على يد أعراق هندو أوربية. والحقيقة، هي أنه من الصعب أن نحدد ماإذا كان بإمكاننا نسبة هذه الأحداث المتلاحقة إلى عنصر تاريخى واحد. لكن لاريب فى أن شعوب البحر لعبت دوراً رئيسياً فى هذه الأحداث، وتسببوا فى سلسلة من العمليات المتوالية شملت ثلاث قارات.

لقد اقتحمت الموجة الأولى من شعوب البحر الباب الغربى لمصر فى العام الخامس لحكم مرنبتاح (٢٢٠) ق م تقريباً). صحيح أن مرنبتاح أفلح فى صد هجوم شعوب البحر، بيد أن مجموعات أخرى انقضت على طول

الساحل الشرقى للبحر المتوسط بهمة زائدة فى عهد رعمسيس الثالث، فاحتلت قبرص وتسللت لأراضى أمورو وتشاهى الواقعة داخل حدود سوريا وفلسطين. وبلغت الحرب التى اندلعت بين المصريين وشعوب البحر براً وبحراً ذروتها حوالى العام الثامن لحكم رعمسيس وخلدت فى نقوشه. وأهم مايعنينا هو ورود ذكر الفلسطينين فى هذا السياق، حيث وردت أول إشارة لهم فى ذكرى حروب رعمسيس بالسنة الخامسة لحكمة. وترد هذه الاشارات بوجه عام فى النقوش على رأس قوائم شعوب البحر، مما يعد دليلاً على مكانتهم وثقلهم البالغ بين هذه الشعوب. وهذا هو أقدم ذكر لهم خارج «المقرا»، وقد يعد التاريخ الأول لظهورهم فى فلسطين (سنة ١١٩٠ أو ١١٧٥ ق.م جسب التسلسل الزمنى صعوداً أو هبوطاً).

ومع ذلك، فمع مرور الأيام التصق اسمهم بهذه البقعة من المنطقة، حتى صار إسمها فلسطين. وقد كان شعب التكر الذى استوطن شمال الشاطئ الفلسطينى من أقرب أقربائه حسب شهادة الرحالة المصرى وان - آمون، حيث يذكر هذه المعلومات بعد مائة عام تقريباً من أيام مملكة التكر فى المدينة الساحلية دور الواقعة بساحل الكرمل ويذكر اساطيلهم التى احترفت القرصنة على طول الساحل الفينيقى، وهناك احتمال شبه مؤكد انهم استوطنوا قبالته فى قبرص.

وتدل على الدمار الذى حلّ بالبلدان المطلة على الحوض الشرقى للبحرث المتوسط آثار ذلك الخراب التى تكشفت خاصة فى ا لتجمعات السكانية الكائنة بجوار السواحل، حيث تثبت الحفائر والدراسات التى أجريت على طول الساحل السورى والساحل الفلسطينى فعليا أن العديد من المدن الساحلية فى تلك الآونة تعرضت للهلاك والدمار، ومنها مدن لم تقم لها قائمة بعد ذلك أبداً، وهى على آية حال، ليست كالمراكز الهامة مثل الاخ

وأوجاريت فى الشمال، ومنها مدن انتفضت وأفاقت من الدمار الذى حل بها بعد فترة وجيزة، مثل يافا وتل مور واشدود واشقلون على الساحل الفلسطيني. وهناك رواية متأخرة حافظ عليها المؤرخ البيزنطى يوستين عن دمار مدن الساحل الفينيقى تفيد أن ملك أشقلون انتصر - يقصد بالطبع حاكم فلسطيني - على سكان صيدا، وأن الاخيرين منذ أن تقوضت مدينتهم «اسسوا مدينة صور قبل عام واحد من احتلال طروادة أى أن صور أيضا تخربت فى هذه الفترة وأعاد إعمارها الصيدونيون. وتنعكس هذه القصة أيضاً من خلال روايات يوسف بن متتياهو.

ونستخلص من الرسائل الدرامية المتبادلة مع ملك أوجاريت عشية دمار المدينة، معلومة عن النكسة الآخذة فى الدنو والاقتراب وتتمثل فى شعوب البحر. ففى احدى الخطابات يخبره ملك قبرص عن اقتراب سفن العدو (الذى لم يذكر إسمه صراحة) ويستحثه أن يتأهب للقاء الغزاة. ويعلن ملك أوجاريت ربما فى رسالة الرد، «إن سبعة من سفن العدو قد وصلت وعلى وشك إهلاكه. وإذا رأيت سفناً أخرى تابعة للعدو فلتخطرنا». ويتضح من رسالة أخرى إن جزءا من أسطول أوجاريت قد تقوض بفعل الاعداء. وفى خطاب آخر يكتب ملك الحيثيين عن العدو الذى تسلل إلى بلاده ويناشد ملك أوجاريت أن يمده بالغذاء نظراً للمجاعة العارمة التى نزلت ببلاده. ومن الصعب أن نحدد بدقة الزمن الذى تم فيه تدمير أوجاريت ومدن الساحل الشرقى الأخرى. ويحتمل أنها تخربت فى الربع الأخير من القرن الثالث عشر ق.م. خلال الغارة الاولى التى شنتها شعوب البحر فى عهد الفرعون مرنبتاح. لكن من المحتمل أمكانية تأخير الدمار إلى جيل آخر. وعلى أية حال، يتضح أنه قد سبقت عملية الانقضاض الكبير فى عهد رعمسيس الثالث غارات على الساحل السورى والفلسطيني.

حقاً لقد نجح رعمسيس الثالث فى صد هذا الانقضاض عن بلاده وإغلاق الطريق أمام تسلل شعوب البحر إلى مصر نفسها، لكنه لم يستطع

أن يمنع استقرارهم الجماعى فى فلسطين. ويبدو أنه فى إطار سعى فرعون لابعاد الخطر عن مصر لم يملك الا أن يوافق على استيطان شعوب البحر فى أرض كنعان، وفى مقدمتهم الفلسطينيين، ويجعلهم اداة طيعة فى يد السلطات المصرية، أى على مسار الساحل الجنوبى، فى وادى مرج بن عامر ووادى بيت شان، وبالاضافة إلى ذلك فقد اكتشفت أدلة أثرية ترجع للقرن ١٢ ق.م تشير إلى أن الفلسطينين أصبحوا حاميات فى بعض المراكز مثل الفرعا، التى هى شروحان بشمال النقب، وفى بيت شان. وقد استعانت السلطات المصرية فى أرض كنعان بالطبع بالفلسطينيين وبشعوب البحر الآخرين كقوات مأجورة لقمع الثورات المحلية، وهى الظاهرة المعروفة فى مصر أيضاً. ولدى أفول نجم الحكم المصرى فى فلسطين أصبح الفلسطينيون هم ورثة هذا الحكم بعد صراعهم مع بنى إسرائيل.

الفلسطينيون – أصولهم وثقافتهم المادية:

وفقا للشهادات المقرائية، القائمة لاريب على الروايات الفلسطينية، فقد جاء الفلسطينيون من كفتور وهى جزيرة كريت، حسب ماجاء على لسان النبى عاموس (٧:٩). وعلى شاكلة الذكريات التى ترسبت لدى الادباء اليونانيين المتأخرين عن هجرة شعوب على صلة بشعوب البحر ومن ضمنهم، الفلسطينيين. ترسبت لدى عاموس أصداء لهجرة الفلسطينيين بعد ٤٠٠ سنة من استيطانهم. ويحتمل أن النبى أحاط علماً بقصة هجرة الفلسطينين، ووصف رحلة تجوالهم فى فلسطين، كما اهتم بنو إسرائيل بقصة خروجهم من مصر.

وحتى النبى إرميا يعتبر الفلسطينين «بقايا جزيرة كفتور» (إرميا ٤:٤٧) وتشير نصوص أخرى إلى قرابتهم للكفتوريين (تك ١٤:١٠/ تث ٢٣:٢). وتذكر أسفار أخرى الفلسطينيين فى مقابل سكان كريت (حزقيال ٢٥: ١٦. صفنيا ٥:٢). ويدل جيش المرتزقة الموالى لدواد عن ارتباطهم

بالكريتيين:«الكريتى والبلتى»، ويبدو ان المقصود «البسلتيم» ولكن اللفظ يحيط به كثير من الغموض، ويقودنا المساس بهذا الأمر للقطاع المسمى جنوب الكريتى الممتد بجوار الحدود الفلسطينية. وهناك دليل غير مباشر يفيد ان أصول الفلسطينيين تعود إلى جزيرة كريت وعبارة عن إناء فخارى من منتصف الالف الثانى ق.م تم العثور عليه فى كريت» قرص بياسطوس. ويصف أحد رموز الكتابة التصويرية التى لم تحل شفرتها بعد، ويتكرر كثيرا فى اللوحة، رأس رجل مكلل بقبعة من الريش، وهى القبعة التى تميز الفلسطينيين.

وتتوائم روايات المقرا مع المدرسة الإيجية فى دراسة أصول الفلسطينيين. والتى وفقا لها، قدم الفلسطينيون وشعوب البحر بوجه عام من جزر بحر إيجة واليونان. وفى المقابل تبرز المدرسة الاناضولية التى تحدد أن مسقط رأسهم هو الساحل الغربى والجنوبى لقارة آسيا الصغرى. وتستند هذه النظرية ضمنيا على روايات مستقرة فى ملاحم يونانية. جاء فيها، أن أبطالا مثل فرسياوس وموبسوس، الذين يرتبطون، بشكل أو بآخر، بآسيا الصغرى، قد حاربا فى مدن الساحل الفلسطينى، حيث حارب الأول ضد وحش مخيف فى بحر يافا وقام الثانى بغزو أشقلون. لكن هذه النظرية تتغذى فى المقام الأول على كتابات الادباء الكلاسيكيين المتأخرين الذين يذكرون، على سبيل المثال، روايات عن أبناء ليديا التى خرج الفلسطينون من بلادهم ويوردون وصفا لعادات الكاريين التى تتماثل مع عادات الفلسطينين. أما النظريات المتعارضة بشأن أصول شعوب البحر فيمكن تسويتها بناء على الروايات الكلاسيكية التى تزعم أن شعوب غرب آسيا الصغرى أنفسهم (مثل الليكيون والكاريون) جاءوا من جزيرة كريت على حسب ماجاء لدى هيرودوت، بيد أن الوزن التاريخى للروايات الواردة فى الأدب الكلاسيكى لا يتمتع بقدر كبير من الثقة. ويبدو ان هذا التمييز الجغرافى تفاقم بين

المدرستين المذكورتين وأضحى مصطنعاً ومستفحلاً بدرجة بالغة، لأنه بالنسبة لشعوب البحر، لا تمثل سواحل آسيا الصغرى واليونان مع جزر بحر ايجة إلا عالما عضويا واحدا يقوم على علاقات وثيقة بين مختلف السواحل. وبناءً على ذلك كانت بؤر إنطلاقات شعوب البحر والفلسطينين بوجه عام هى كل من جزر بحر إيجة وسواحل آسيا الصغرى .

وقد حارت الدراسات التاريخية والمقارنة فى مسألة النسب العرقى للفلسطينين. وهناك عدد قليل من الكلمات وأسماء الاعلام الفلسطينية الواردة فى المقرا يمكن ان تشكل مدخلا لمحاولة تحديد هويتهم الاثنية واللغوية. ومن أبرز المفردات الفلسطينية وهى «سيرن» (لم ترد فى المقرا سوى فى صيغة الجمع «سرانيم» و «سيرنى») التى تشير إلى حكام المدن الفلسطينية. تتماشى فى شكلها ومدلولها مع كلمة يونانية. قديمة وهناك كلمات أخرى ذات أصل فلسطينى مثل «كوبا ع» (قبعة) و «أرجاز» (حقيبة) وهى كلمات لها مايقابلها فى اللغات الهندو - أوربية. وأشهر أسماء الاعلام الفلسطينية الواردة فى المقرا الاسمان جليات والملك أخيش (أنكوس فى الترجمة السبعينية) وهناك من ضاهى بين إسم الأول وإسم ملك ليديا إلياتس (صورته القديمة «فالفتا») والثانى مع الاسم السومرى أنخيسس المذكور فى ملحمة الالياذة، وهو احد أحفاد الاسباط الايرلية. وفى الآونة الأخيرة تم تحديد والتعرف على ثلاثة أسماء لحكام فلسطينيين وردوا فى لفيفة وان - آمون المصرية كأسماء تميز شعوب غرب آسيا الصغرى، درجت ألسنتهم على نطقها بلكنة هندارويية مختلفة بألفاظ اناضولية قديمة. ويتضح من كل هذه الأمور ان الفلسطينيين وكذلك سائر شعوب البحر، محسوبون على أسرة الشعوب الهندأوربية، بيد أن نسبتهم الدقيقة لاتزال موضع شكوك. فهناك من ينسبهم للأسباط اللوفية وآخرون يرون أنهم من نسل الاسباط الايرلية (ووجدوا دليلاً على رأيهم فى مدينة تسمى بلستى ونهر يدعى بليستينوس فى إيرليا الواقعة فى شبه جزيرة البلقان. وهناك من يجنحون إلى اعتبارهم

أحفاد البلسجيين المذكورين فى المصادر التى تتناول الفترة اليونانية القديمة على أنهم شعب يسكن باليونان وفى جزر بحر إيجة واستوطن كذلك سواحل آسيا الصغرى. بيد ان الرأيين الاخيرين ليسا متناقضان بالضرورة بسبب وجود ثمة رابطة بين البلجسيين والشعوب الايرلية.

وتدل حضارة الفلسطينيين المادية التى تم أكشافها فى عدة مناطق بفلسطين عن العلاقات الوثيقة التى ربطت الفلسطينين بالحوض الشرقى للبحر المتوسط، إذ تتباين هذه الثقافة عن حضارة الكنعانيين تبايناً تاماً. كما ان هناك خلفية مشتركة تربط بين الفلسطينيين ومسقط رأسهم. وتبرز هذه العلاقات على وجه الخصوص فى الخزف الفلسطينى الذى يعد استمرارا مباشراً للأوانى الخزفية الموكينية المتأخرة (أواخر القرن الـ ١٣ ق.م) التى اكشفت بادئ ذى بدء فى قبرص وكذلك فى كريت ورودوس وشواطئ الاناضول وأثيكا فى القارة اليونانية. وهذه الأوانى الفخارية الفلسطينية تتسم بزخارف ذات لونين، تتركب من رموز حسابية وتصوير للحيوانات وبخاصة الطيور. وبالاضافة للأدوات التى تستخدم فى الحياة اليومية اكتشفت أوانى الشعائر الدينية الفلسطينية، التى ليست إلا محاكاة للطراز الموكينى المتأخر. ومن المكتشفات الأخرى التى تميز الفلسطينيين توابيت الموتى المصنوعة من الفخار على هيئة إنسان واكتشفت فى تل الفرعا فى لاخيش وفى بيت شان. وتتشابه زخارف الرءوس التى نقشت على أغطية التوابيت بشدة مع أنماط الجنود الفلسطينين فى النقوش المصرية التى تعود لعصر رعمسيس الثالث بقبعاتهم المتسعة المكللة بالريش.

وتمنحنا نقوش رعمسيس الثالث فكرة واضحة تماما عن ملامح وسلاح الفلسطينيين، وقد نقشها فنان بارع وصف محاربين من شعوب البحر من بينهم الفلسطينيين، فأبرز تفاصيل ملابسهم وأسلحتهم وسفنهم الحربية، وعجلاتهم ومركباتهم الحربية التى استخدموها فى معاركهم البرية. ويختلف

ذلك فى بعض التفاصيل عن التصوير والوصف «المقرائى» الكلاسيكى للمحارب الفلسطينى، خاصة فيها يتعلق بجليات (صموئيل الأول ١٧: ٤ - ٧). لكن بضم المصدرين بعضهما إلى بعض، يتضح أن هؤلاء الاشخاص كانوا طوال القامة حليقى الذقن، على عكس الساميين، ويتسلحون بخيرة الاسلحة المتعارف عليها فى الحضارة الإيجية والابطال الهومريين (فى إلياذة هوميروس). فبناءً على وصف جليات كانوا يرتدون دروعا نحاسية ودروعا لوقاية الساقين، أما سلاحهم فى الهجوم فكان الرماح والسيوف الطويلة ذات النصل المستقيم. وقد وصف نصل سيف جليات بأنه مصنوع من الحديد (صموئيل الأول ١٧: ٧) وربما يمكننا أن نقول سيفه بدلاً من رمحه المذكور فى بقية القصة لكنه ناقص عن وصف سلاح جليات) الامر الذى يعد تجديداً فى أسلحة سكان البلاد. وقد كانت الادوات الحديدية من أهم الاستحداثات التكنولوچية التى حازها الفلسطينيون ومنحتهم تفوقاً على سائر السكان. وقد عثر على منشآت لصهر المعادن فى تجمعات الفلسطينيين السكنية اعتباراً من القرن الـ ١١ ق.فى تل كسيلا عند مصب اليرقون وفى بيت شيمش وفى تل چاما.

لقد كانت الحضارة الفلسطينية منذ البداية حضارة انتقائية، حيث استوعبت تأثيرات متنوعة التقطها الفلسطينيون أثناء ترحالهم، ومالت للتكيف السريع نسبيا مع الحضارة المحلية بفلسطين، حتى اندمجت فيها تماماً. وعلى هذا النحو أخذت صناعة الخزف الفلسطينى فى الاضمحلال حتى تلاشت فى النصف الثانى من القرن الـ ١١ ق.م. وقد كانت مسيرة الانصهار الفلسطينى فى نفائس الحضارة الروحية عاجلة جداً. ومن ذلك على سبيل المثال تغييرهم لدينهم ولغتهم بدين ولغة الكنعانيين، وآلهة الفلسطينيين المعروفة من المقرا هى آلهة كنعانية شهيرة مثل داجون. الذين أقاموا له معبداً فى غزة وآخر فى أشدود (قض ١٦، ١٣/ صموئيل الأول ٥: ١ - ٧) وفى بعل زبوب (وهناك من يدعوها بعل زبول) وقد انتشرت عبادة هذا الإله فى عقرون بصفة خاصة (ملوك ثانى ١:٢ فصاعداً).

الجزء الثانى

فترة الهيكل الأول

تأليف

حييم تدمور

ترجمة وتعليق

دكتور رشاد عبد الله الشامي

★ عن كتاب «تاريخ شعب إسرائيل» (تولدوت عم يسرائيل) - الجزء الأول «تاريخ إسرائيل فى العصور القديمة» (تولدوت يسرائيل بيمى قيديم) - دار نشر «دفير»، تل أبيب - ١٩٦٩.

المملكة الموحدة

فترة النبى صموئيل:

تعتبر الفترة الواقعة بين دمار «شيلوه» وبين بداية الحروب ضد الفلسطينيين بقيادة شاؤول، هى فترة نشاط صموئيل النبى والقاضى. ومن الصعب الوقوف على خطوط واضحة مميزة لشخصية هذا الزعيم الدينى والسياسى من خلال المصادر. إذ يعتبر صموئيل من ناحية، بمثابة «رائى» أى متنبئ، يقوم بتقديم القرابين فى أماكن العبادة الرئيسية، وقد تتلمذ على يد أحد كهنة هيكل الرب فى شيلوه، ومن ناحية أخرى يعتبر قاضياً، كما عمل أبناؤه قضاة فى بئر سبع [صموئيل ٨:٢]. وقد قام صموئيل بدور رئيس فى زعامة بنى اسرائيل حتى فترة الملكية. وتركز نشاطه فى منطقة بنيامين وأفرايم، التى كانت خاضعة للفلسطينيين أنذاك. ولا يحتوى سفر صموئيل، الذى يحمل إسمه، على وصف متسلسل لأعماله. أما دوره الأساسى فقد قام به فى شيخوخته، عندما اقتربت فترة نشاطه من نهايتها، عندما طالبه الشعب بأن ينصب لهم ملكاً ليحكمهم مثل الأغيار [صموئيل ٨:٥]. ومن خلال أفعال وأقوال صموئيل ينعكس الصراع السياسى الذى كان دائراً أنذاك بشأن الحاجة لقيام مملكة، ووضعها وصلاحياتها سوء سلباً أو ايجاباً.

ويتضح وفقا لقصة سفر صموئيل الأول [٩ – ١٠] أن صموئيل هو الذى نصب شاؤول ملكاً، وهو أول ملك، على الرغم من معارضته الشديدة لفكرة الملكية فى البداية. كما أنه ساند الملك الجديد فى خطواته الأولى، ولكنه اختلف معه فى النهاية، وترك نشاطه السياسى، بل إنه هو نفسه الذى بشر بنهاية ملكية شاؤول واعتلاء داود العرش وفقا للقصة [صموئيل ١٦]. وفيما يبدو أن كاتب السفر قد تناول هذه القصص من وجهة نظر معادية لشاؤول ومناصرة لداوود، كما حاول بوصفه لشخصية صموئيل أن يخلق تواصلاً بين آخر القضاة وبين داود الذى كان مؤسسا لسلسلةٍ ممتدة من الملوك.

الملك شاؤول:

ترجع حالة اليقظة القومية التى أدت لتأسيس الملكية والتخلص من نير الفلسطينيين إلى نشاط أبناء الأنبياء، الذى يرد ذكره للمرة الأولى فى فترة صموئيل [صموئيل ١٥ - ١٠. ١١] وكان هؤلاء بمثابة مؤسسة دينية اجتماعية فاعلة ذات أهمية شديدة في الجماعة الإسرائيلية.

وتبدأ فترة حكم شاؤول [١٠٢٥ - ١٠٠٤ ق.م] بالصراع مع الفلسطينيين، كما تنتهى به. حيث تبدأ بهزيمة شاؤول الفلسطينيين بين منطقتى جبعة ومكميش، وذلك بأسلوب المباغته والحيلة،مثلما حدث فى فترة القضاة. ويعتبر ذلك بداية حرب إبادة ضد الفلسطينين القاطنين فى إقليم الجبل، فى منطقة بنيامين وأفرايم وقد وصفت تلك الحرب بأسلوب ملحمى باعتبارها حرب «يوم واحد»، وهوأسلوب أدبى يستخدمه المحرر القرائى عند وصفه للمعارك المصيرية مثل حرب يوشع فى جبعون. لقد تم عرض نهاية الحرب الأولى والحرب التالية لها بشكل موجز للغاية: «وأخذ شاؤل الملك على إسرائيل وحارب جميع أعدائه حواليه موأب وبنى عمون وأدوم وملوك صوبة والفلسطينيين وحيثما توجه غلب" [صموئيل الأول ١٤:٤٧]. ولا توجد معلومات عن بقية حروب شاوؤل باستثناء حرب عماليق [صموئيل الأول ١٥: ١ - ٩] والتى ذكرت لهدف أخر وهو إنكار ملكية شاوؤل، لأنه لم يطع صموئيل. وفى النهاية وحد شاوؤل معظم الأسباط، وأصبحت مدينة جبعة شاؤل مسقط رأسه هى مركز الحكم [وهى المعروفة باسم تل الفول، وتقع على بعدكم شمال القدس].

وكانت فترة حكم شاوؤل مرحلة انتقالية من الناحية الاجتماعية والسياسية، فلقد انتهت فترة حكم الأسباط البطاركة وخلت محلها ظواهر جديدة وصلت لذورة تطورها فى عهد داود وسليمان. وقد تميزت شخصية شاوؤل بعدة مميزات، فهو محارب شجاع، قريب من حركة النبوة، بعيد عن

أطماع الحكم، يتميز بلاط حكمه بالبساطة، بعكس بلاط حكام كنعان، كما أنه كانت لديه الجاذبية الشخصية (الكاريزما) وكأن روح الرب تملؤه، وكانت كل المميزات تنطوى على ما يشير إلى أنه حتى تنصيب هذا الملك الأول كان مازال المجتمع الإسرائيلى يعيش فى عصر القضاة بطابع حياته ومفاهيمه، مما يعد سبباً لاعتباره آخر القضاة وأول الملوك.

وقد كان المجال الذى أدخل فيه شاوؤل تجديدات عدة، هو التنظيم العسكرى، حيث لم تكن المهام التى أخذها على عاتقه تكفيها فرق المحاربين الذين يتم تجنيدهم استجابة لنداء الزعيم المُخلِّص وقت الطوارئ، والذين يعودون لأسباطهم وأماكن أنصبتهم بعد انتهاء الحرب، بل كانت الضرورة تستلزم جيشاً ثابتاً، لذا جمع شاوؤل «شباب اسرائيل» ونظمهم مئات وألاف. وعلى الرغم من ذلك، كان هذا التنظيم الجديد يعتمد على البنية التقليدية السبطية الإقليمية.

أما أهم التغييرات التى حدثت فى فترة شاوؤل فكانت فى المجال الاجتماعى، وهى ظهور طبقة جديدة فى المجتمع الإسرائيلى، وهى طبقة المقربين للملك. وبطبيعة الحال كانت تلك الطبقة من أسرة الملك، أى من سبط بنيامين. ولقد منحهم شاوؤل ملكيات من الأراضى التى تم احتلالها من الفلسطينيين أو من تلك التى سلبت من مدن الجبعونيين، الذين ظلوا فى حالة من الاستقلال الذاتى حتى عصره، إلا أنه أبادهم بقسوة [صموئيل الثانى٢١: ٥ - ٥].

وعلى الرغم من أن منح الأراضى للمقربين كانت عادة جديدة فى اسرائيل، إلا أنها كانت معروفة نسبيافى المدينة الكنعانية. وتشهد على ذلك الوثائق الأكدية التى وصلتنا من ملوك أوجاريت، والتى ترجع إلى القرنين ١٤، ١٣ ق.م. وتظهر فى تلك الوثائق بعض فقرات مشابهة «لقانون الملك» المدون

فى الإصحاح الثامن فى سفر صموئيل الأول الاصحاح الثامن، مثل حق الملك فى تجنيد رجال للجيش، وفرض العشور على الحقول. وكان من حقه أيضا إعفاء الوزراء من هذه الالتزامات، ومن التزامات أخرى ويشار لذلك فى تلك الوثائق بمصطلح فنى وهو "زَكو" بمعنى "جعل الإنسان نقياً،" أى "معفى ومتحرر". وكانت هناك معارضات شديدة لتلك التجديدات فى اسرائيل، وتجلت فى الهجوم العنيف ضد حكم الفرد، والذى وضعه المدون على لسان النبى [صموئيل الأول ٨: ١١] على صورة تحذير: «ويكون هذا هو قضاء الملك الذى يحكمكم». ويؤكد العرض المفصل لأعمال الملوك، وهو الاساس الذى استند إليه هذا الحكم مرارا، أن التعامل بالعنف والاستبداد واستغلال الفرد ومصادرة أملاكه على يد الحاكم، هو أحد العلامات المميزة لفترة الملكية. وينتهى العرض بإنذار خطير للغاية: «فتصرخون فى ذلك اليوم من وجه ملككم الذى اخترتموه لأنفسكم فلا يستجيب لكم الرب فى ذلك اليوم». [صموئيل الأول ٨:١٨]. وبمعنى أخر: بعد إعادة تشكيل التنظيم لن يجد منقذاً من الطغيان. وفى مقابل الظلم الملكى يعرض المدون المقرائى تواضع وتقوى الزعيم ذى الكاريرما كما يتضح من كلمات صموئيل: «وأنا قد سرت أمامكم منذ صباى إلى هذا اليوم. هأنذا فاشهدوا على قدام الرب وقدام مسيحه ثور منْ أخذت وحمار منْ أخذت .. ومن يد منْ أخذت فدية لأغض عينى عنه فأرد لكم» [صموئيل الأول١٢: ٢-٣]. ومن خلال مقارنة ماورد هنا مع الوثائق الأكدية السابق ذكرها يتضح الوصف الفعلى والخطورة الأيديولوجية «لقضاء الملك».

ولقد أدى ظهور طبقة أقارب الملك، أصحاب الضياع الجديدة، والتى كانت غريبة عن روح القضاة وعن زعامتهم التقليدية (الشيخ ورؤساء العائلات ذات الحسب والنسب)، إلى ازدياد المعارضة فى فترة حكم شاوول. كما

تميزت نهاية فترة حكمه بتفاقم الصراع بين الملك الذى ازداد طغيانه، وبين رؤساء العائلات الذين ترعرعوا فى ظل الزعامة التقليدية. ويظهر هذا الصراع فى القصة المقرائية فى صورة نفور شخصى بين شاوؤل وصموئيل. و يبدو أن قتل شاوؤل لكهنة نوب [صموئيل الأول ٢٢: ١٦-٢٠] كان ثمرة التناقضات بين هذين الاساسين الاجتماعيين. أما داود بن يس الشاب عدو شاوؤل فقد استطاع استغلال تلك التناقضات جيداً.

إن جزءاً كبيراً من قصص سفر صموئيل مخصص لوصف صعود داود فى بلاط شاوؤل. وعلى الرغم من أن هذه القصص قد تم تدوينها من خلال وجهة نظر معادية لشاوؤل، وتعلى من شأن داود من منطلق استعادة الماضى أو من خلال منطلق تبريرى، فإن شخصية شاوؤل تظهر فى نهاية أيامه كشخصية تراچيدية ممزقة. ويمكن الافتراض أن هذه القصص تعكس الصراع الداخلى على السلطة فى المملكة الإسرائيلية الشابة، ويحتمل أن هذا الصراع وما نتج عن من ضعف قد غرس داخل الفلسطينيين الإحساس بأن الوقت مناسب لتوجيه ضربة قاصمة لمملكة شاوؤل. وتصف المصادر حرب شاوؤل الأخيرة فى جلبواع بشكل غير مباشر، إذ يبدو أن الفلسطينين قد استخدموا مناورة جديدة، حيث وجهوا جيشهم لنقطة الضعف فى مملكة شاوؤل، وهى الأراضى الكنعانية التى ظلت فى حالة استقلال جزئى فى وادى يزرعئيل ووادى بيت شان. وربما هدفوا من ذلك إلى شطر المملكة إلى نصفين أو إجبار الملك على ترك الجبال والنزول للوادى وهناك يمكنهم الاستعانة بميزتهم العسكرية التى تعتمد على جنود المركبات. وبالفعل إضطر شاوؤل لقبول المعركة فى سفوح جبال جلبواع وانتهت المعركة بهزيمة جيش شاوؤل وموته هو وأبناؤه. واحتل الفسطينيون بيت شان، وعلى الرغم من عدم وجود معلومات عن دخولهم لمنطقة الجبل، إلا أنهم فرضوا سيطرتهم بالقوة العسكرية المنتصرة على جميع تخوم مملكة شاوؤل سابقا، وكانت نتيجة

الهزيمة أن إنشطرت المملكة إلى نصفين، فظل الجزء الخاص بشرق الأردن والجبل تحت سيطرة إيشبعل بن شاوؤل (إيشبوشت)، أما الجنوب فقد نصب عليه داود ملكا فى يهوداً.

تاريخ داوود (١٠٠٤ – ٩٦٥ ق.م)

حظى تاريخ داوود بوصف مفصل للغاية فى العهد القديم، مما يميزه عن باقى تواريخ شعب إسرائيل القديمة. وكانت أهم أسباب الاهتمام بتاريخ داوود أنه تميز بعدة سمات جعلت معاصرية يشعرون بأهميته، ومنها: تشكيل المملكة الموحدة، وحدودها الإقليمية، ووجود مؤسسات حكم شخصية. ويتضح من خلال ذلك سمو مكانه الأدباء الذين يدونون تاريخ الملك فى سجلات تاريخية، كما جرت العادة فى ممالك الشرق القديم الكبرى – ومن أبرز الأمثلة من هذا النوع، سفر صموئيل الثانى – الإصحاح الثامن. أما شئون المملكة التى كانت تحتاج لتدوين دقيق مثل إحصاء السكان [صموئيل الثانى:٢٤] فقد أثارت مشكلات بخصوص تفسير أنساب العائلات وأماكن أنصبة الاسباط، وأدى ذلك إلى تسجيل وثائق أنساب مفصلة وأوصاف موسعة لأنصبة. وقد تم حفظ هذه المادة التاريخية القيمة فى سفر أخبار الأيام الأول [١ –٩] وفى سفر يشوع. ولكن المصدر الرئيسى لوصف عصر داوود هو القصة البيوجرافية غير المباشرة التى تتناول تاريخ الملك منذ وصوله لبلاط شاؤول، والصراع الذى دار بينهما، وتركز بشكل خاص على قصة بتشبع، وموت أبنائه وتمرد أبشالوم [صموئيل الثانى١٠–٢٠].

وتشير تلك القصة البيوجرافية إلى كثير من المعلومات عن العلاقة بين الشخصيات المؤثرة، وعن طموحاتهم وسمات شخصياتهم، وكذلك عن الخلفية الاجتماعية للأحداث. ولا مثيل لهذا العمل التاريخى البيوجرافى فى أدب العالم القديم، فهو مكتوب بحس واقعى وموهبة أدبية تتيح للقارئ إمكانية

الشعور بالحياة الاجتماعية فى البلاط الملكى. ويتميز كاتب مجموعة القصص الخاصة بداوود بكونه تناول شخصية بطله وفقا لمعيار أخلاقى ثابت: وهو أن الملك وقع فى إلاثم فى قصة بتشبع، وأن كل المآسى الشخصية فى عائلتة مثل مقتل أمنون وتمرد أبشالوم، ماهى إلا عقاب له: «والآن لا يفارق السيف بيتك إلى الأبد» [صموئيل الثانى ١٢:١٠]. ويعتبر استخدام هذا المعيار الأخلاقى فى قصة ملك مؤسس لأسرة ملكية ومسيح للرب، أسلوبا شاذاً عن أسلوب الكتابة المعتاد فى تلك الفترة، سواء فى اسرائيل القديمة أو لدى باقى الشعوب، كما أن كتابة تاريخ داودد.تتسم بتجديد واضح يتناسب مع الطابع الثورى المتجدد لفترة حكمه.

فترة داوود:

تشهد المادة التاريخية على وجود أربع مرحل مميزة فى تاريخ داوود. تمثل المرحلة الأولى فترة الواقعة بين يس فى بلاط الملك شاوؤل وحتى زواجه من ميخال ابنة شاوؤل وهناك صيفتان تصفان تلك المرحلة: الأولى فى سفر صموئيل الأول:١٦ والتى تحكى عن «صبى يجيد العزف» ترك الرعى وجيئ به إلى بلاط شاوؤل وكان يعزف أمامه عندما تغمره الكآبة. ولقد أحبه شاوؤل وجعله حامل أدواته. أما الصيغة الثانية فى الإصحاح ١٧ . فيتعرف شاوؤل على داوود بعد أن قتل الأخير الرجل الفلسطينى فى وادى سوكو. وتشترك الصيغتان فى آن داوود كان، فى نهاية الأمر، قائداعسكريا محبوبا من الشعب وناجحا.

أما المرحلة الثانية فهى التى يختبئ فيها داوود بسبب حقد شاوؤل عليه ومحاولة قتله، فأخذ ينتقل من مكان لآخر فى القرى الحدودية لمنطقة يهودا. ثم تحول إلى قائد كتيبة تجمع حوله الأتباع الذين لفظهم المجتمع، « كل من وقع فى ضائقة، وكل من أحس بالمرارة، أصبح داوود قائداً لهم» وكان عدد أفراد

كتيبته فى البداية أربعمائة فرد وصل إلى ستمائة بعد ذلك. وكانت نواة الكتيبة هم «الثلاثين»، وهم مجموعة الأبطال الذين دونت أسماءهم فى قوائم تفسر أصولهم [صموئيل الأول ٢٣ - أخبار الأيام ١١]. وكان معظم هؤلاء الرجال من سبطى يهودا وبنيامين، أما الأقلية فكانت من الشعوب المجاورة. وتتشابه تلك الكتيبة مع فرق الأشقياء الذين لا يملكون أرضا ويستطيعون التحرك بخفة، ويمثل هؤلاء أركاناً هامشية فى المجتمع، يأتى ذكرهم عند يفتاح وأبيمالك.

وبسبب الطابع الاجتماعى لتلك الكتيبة، والتى تضم عناصر تشكل خطراً على نظام الحكم البطريركى، وبسبب كون داوود هو العدو الشخصى لشاؤول الملك، لم يستطع داوود وكتيبته أن يجدوا أية إمدادات حتى بين بنى يهودا، الذين كانوا مخلصين لشاؤول بعد أن أنقذهم من العماليق. لذا اضطر داوود للخروج إلى الصحراء حيث لم يجد راحته أيضاً. وبعد فترة، لم يتوان عن التعاون مع الفلسطينين، العدو التقليدى، وأصبح تحت حماية أخيش ملك جت وتسلم مدينة صقلاج التى تقع بالقرب من لاخيش، فى مداخل يهودا الجنوبية الغربية. وفى هذه المرحلة، التى تعتبر الثالثة، أصبح داوود بين المطرقة والسندان. فهو من ناحية مضطر لإثبات إخلاصه للفلسطينيين كعدو لإسرائيل، ومن ناحية أخرى كان يوثق علاقاته بشيوخ القبائل فى جنوب يهودا: الكلبى، واليرحمئيلى، والقينى، كما كان يغير على العماليق مثل شاؤول، باعتبارهم العدو التقليدى للرعاة فى جنوب البلاد، وذلك كى يكسب ود شيوخ القبائل.

وفى أثناء الأزمة السياسية الشديدة بعد هزيمة جلبواع، وبعد فقدان الشخصية المحورية، وهى الملك، ضعفت العلاقات بين يهودا وسائر أسباط الشمال، وأصبحت الفرصة سانحة لداوود كى يمتلك جزءاً من منطقة يهودا. وطبقا لما ورد فى صموئيل الثانى ٢:١) ذهب داوود مع زوجاته إلى حبرون

[الخليل]، «واستقروا فى مدن الخليل. وأصبح شيوخ يهودا، الذين أقام معهم داوود علاقات وثيقة أثناء إقامته فى صقلاج ، على ثقة بأنه يستطيع الدفاع عن جنوب يهودا بفضل قوة جيشه الخاص، لذا نصبوه ملكاً على يهودا، وبهذا عاد الوضع كما كان عليه فى عصر القضاة، حينما انفصلت يهودا عن باقى الأسباط.

ويعتبر تنصيب داوود ملكاً فى الخليل هو بداية المرحلة الرابعة والأخيرة من تاريخ داوود. وطبقا لما ورد فى صموئيل الثانى٢:١١، ٥:٥ أصبح داوود ملكا على منطقة يهودا من الخليل لمدة سبع سنوات ونصف. إلا أن تسلسل الأحداث فى هذه المرحلة لا يبدو واضحاً كما ينبغى. وتميزت فترة حكم داوود فى الخليل باشتعال حرب طاحنة بين جنود أفنير قائد جيش شاؤول، وبين جند داوود بقيادة يوآب. ؟ أما إيشبعل بن شاؤول فيبدو أنه قتل بعد أن حكم منطقة اسرائيل لمدة سنتين [صموئيل ٢:١٠]، ومع ذلك فقد مر بعض الوقت حتى أدركت قبائل الشمال مقتل حاكمهم، واعترفت بداوود ملكاً على إسرائيل (صموئيل الثانى: ٢:١٠). ومع هذا، فقد انقضت فترة، حتى اعترفت قبائل الشمال، الذين قتل ملكهم أن داوود هو القائد الوحيد القادر على محاربة الفلسطينيين، وقد أتاه شيوخ إسرائيل فى الخليل واقترحوا عليه أن يحكم اسرائيل كلها، واتخذ هذا الإختيار صورة عهد بينه وبينهم. وقد عقدوا هذا العهد أمام الرب، أى فى الهيكل المحلى فى الخليل، مما كان له أثر واضح على مجرى الأحداث فى اللحظات الحرجة من فترة حكم داوود. وقد ظل داوود حتى نهاية حياته ملكاً على يهودا واسرائيل، أى أنهما ظلا كيانان منفصلان داخل مملكة داوود، لكل منها ذاتيته المستقلة.

داوود ملكاً على اسرائيل:

منذ أن ملك داوود على اسرائيل كلها (١٠٠٤ ق.م). حتى واجهته ذات المهام التى واجهت شاؤول وهى تخليص البلاد من الفلسطينيين وتوحيدها.

ومن الصعب تحديد ترتيب حروب داوود مع الفلسطينيين ومراحل توحيد البلاد اعتماداً على المصادر. فقد احتفظت وثائق الأحداث التاريخية فقط بوصف حروبه مع الشعوب المجاورة. أما بداية حروبه مع الفلسطينيين فليست واضحة، ولكن يبدو أنها بدأت أثناء وجوده في الخليل، وازداد اشتعالها مع احتلال يبوس، وهي القدس. ومن خلال الأجزاء المتقطعة الموجودة في صموئيل الثاني ٥:١٧ - ٢٤ يتضح أن معظم المصادمات قد حدثت في منطقتي بيت لحم والقدس. واستطاع داوود، خلال معارك طاحنة خاطر فيها بنفسه أكثر من مرة، أن يطارد الفلسطينيين إلى ما وراء الجبل، وأن يدفع بهم حتى مشارف سهل يهودا. ويبدو أنه في نهاية تلك الحروب أبرمت المدن الفلسطينية الخمس عهداً مع داوود، ويفترض أنهم اعترفوا أيضاً بسيادته عليهم. وبالفعل، لم يهاجم الفلسطينيون يهودا ولا اقتحموا حدودها منذ عهد داوود وحتى وفاة عوزياهو. وعلى الرغم من العداء الطويل للفلسطينيين كانت هناك كتائب من الفلسطينيين، الكرتي والبلتي وقائد جند يدعى إيتي الجيتي يخدمون داوود ويدينون له بالولاء أثناء تمرد أبشالوم.

وبعد أن ضرب داوود الفلسطينيين اتجه لتصفية الجيوب الكنعانية الكبرى الباقية في البلاد مثل: مجدو، تعنك، بيت شان، أو دوار في سهل الشارون، كما وحد الأسباط الإسرائيلية تحت سيادة إدارية واحدة، واختار أورشليم (القدس) مركزاً لحكمه. وليس من الواضح. ماإذا كان داوود قد سيطر عليها بعد أن مكث سبع سنوات في الخليل، أم أنه فعل ذلك في بداية حكمه في الخليل. وعلى أية حال، فإن احتلال هذه الجيوب مهد الطريق لازدياد الصلة بين يهودا وبين بنيامين وأسباط الشمال. قد كانت منطقة القدس، باعتبارها منطقة محايدة لا تنتمي لأي سبط من الأسباط، ولكونها أصبحت ملكية خاصة للملك بحق احتلاله لها منطقة، ملائمة كي تكون عاصمة لملكة داوود. وبهذا أظهر داوود موقفا يتجاوز الانتماء السبطي (القبلي)

باعتباره ملكاً على يهودا واسرائيل معاً. وقد ساعد الوضع الطبوغرافي للقدس، والذى جعل منها قلعة تمثل حصنا طبيعياً، على ازدياد أمن الملك واستقرار موقفه. ولم يكتف داوود يجعل القدس مركزاً لقواده، بل نقل إليها تابوت العهد وأسرة الكهنة بنى أبيتار [أحفاد الكاهن عالى من شيلوه: صموئيل الأول ١٤:٣، ٢٢:٩ -٢٠]، وبهذا جعل منها أيضاً مركزاً روحانياً للعبادة.

وقد ساعد الوضع الدولى على حماية مملكة إسرائيل وتوسعها. حيث دخلت القوى العظمى فى فترة تدهور بعد أن كانت تتحكم فى مصائر دول شرق أسيا عشية احتلال البلاد. لقد فقدت مصر مكانتها، وزالت مملكة الحيثيين، ولم تكن أشور قد ظهرت بعد على مسرح التاريخ كقوة عظمى. وصارت معارك بنى اسرائيل الأساسية، بعد قهر الفلسطينيين، مع ممالك الأراميين فى سوريا وخاصة أرام صوبا. وقد كان صراع داوود مع تلك الممالك ذا أثرها حاسم فى تحديد مكانة مملكة داوود فى منظومة القوى الدولية فى عصره.

لم يكن داوود هو صاحب زمام المبادرة فى الحرب مع أرام، بل كانت تلك الحرب نتاج الخلاف بين اسرائيل وجيرانها عبر شرق الأردن. فقد طلب بنوعمون أثناء نزاعهم مع بنى اسرائيل المساعدة من أرام بيت رحوب وأرام صوبة ومن ملك معكة. واشتعلت الحرب الطاحنة بين اسرائيل والأراميين على ثلاث معارك حاسمة، كانت الأولى فى سهل ميديا، ودارت المعركة من الأمام والخلف، حيث التحم الجند مع عمون، بينما اشتبك «كل شباب إسرائيل» مع أرام. أما المعركة الثانية فكانت فى حالام التى فى باشان، بينما هاجم داوود فى المعركة الثالثة هدد عزر «أثناء انشغاله فى الحرب مع الأشوريين، وهزمه» واحتل أرام دمشق ووصل حتى نهر الفرات، ثم احتلت مؤاب بعد ذلك بفترة قصيرة، ومن بعدها أدوم. ولقد تجاوز ملك اسرائيل بتلك الفتوحات الحدود

الجيوسياسية لكنعان فلسطين، ووصل تأثيره إلى طرق التجارة الدولية، والطرق الموصلة بين القوى العظمى فى ذلك الوقت. حيث تحكم الملك فى طريق تجارى هام، وهو «الطريق الرئيسى» الذى يمر من أدوم حتى دمشق وفى الشمال وصل نفوذه حتى مملكة حماة الحيثية الجديدة والتى كانت تخضع لأرام صوبة. وقد اعترف توعى ملك حماة بزعامة داوود وأرسل له الهدايا. وقد أتاحت تلك الأنجازات العسكرية والسياسية إمكانية وجود علاقات دبلوماسية واقتصادية كما مهدت سبلاً جديدة للعلاقات الثقافية. وقد وصل تأثير داوود حتى مدن الساحل الفينيقى صور وصيدون (صيدا)، وعقد معهماحلفا وثيقاً ازدادت قوته فى عهد سليمان. وساهم هذا الحلف فى خدمة مصالح الدولتين معا، حيث اتسعت الأفاق الاقتصادية أمام مملكة اسرائيل، وأستطاعت إمداد صور بالزيوت والحبوب فى مقابل أخشاب الأرز والنحاس ووسائل الرفاهية للبلاط الملكى.

لقد حدثت تغييرات اجتماعية وإدارية واضحة فى المملكة الموحدة المزدهرة، حيث أصبح البلاط الملكى بمثابة مركز إدارى، وظهرت فيه طبقة جديدة وهم: موظفو الملك، الذين اكتسبوا لقباً جديداً هو: «عبيد الملك». واستعان داوود فى إقامة تلك الإدارة الجديدة بنماذج الحكم المتعارف عليها فى مدن كنعان القديمة، والبلاد المجاورة وذلك ما أثبتته أبحاث كل من أ. آلت، ب. مازار. ويمكن أن نفترض أن بعض كبار الموظفين الكبار مثل الكاتب شوشا، وكذلك هدورام «الجابى» كانوا من الأجانب، مثلما يتضح من اسميهما.

وقد احتفظت لسجلات التاريخية الملكية بقوائم لأسماء قواد داوود المهمين فى تلك الفترة، وورد ذلك فى سفر صموئيل الثانى ٨: ١٦ - ١٨، ٢٠: ٢٣ - ٢٦، وكان على رأسهم قائد الجند يوآب بن صروية الملقب فى احدى القوائم بلقب «قائد الجيش»، وفى الثانية بلقب «على جميع جيش إسرائيل»، وإلى جواره بنياهو بن ياهو يادع قائداً للجلادين والسعاة.

وتظهر فى تلك القوائم بعض الوظائف التى كانت جديدة فى ذلك الوقت بالنسبة لشئون إدارة أمور الجماعة فى إسرائيل. وتشهد أسماء الأشخاص ووظائفهم على أن تلك الوظائف كانت معروفة فى الممالك المجاورة. ويظهر من بينها السكرتير، وهو فيما يبدو المنادى الملكى، الذى يبدو أنه هو الذى يعلن أوامر الملك على الملأ [وهو ناجيرو فى أشور]، والكاتب، الذى تتركز وظيفته الأساسية فى تبادل الرسائل مع البلدان المجاورة [وهو طوبشار فى الأكدية أو طفسار فى سفر ناحوم ٣: ١٧]، الذى يجب عليه معرفة الأساليب الدبلوماسية المتعارف عليها فى تلك الفترة. واستمرت تلك الوظائف في بلاط ملوك إسرائيل، حيث منحتهم علانية، وتدوينا مكتوبا لتاريخهم، وإمكانية وجود صلات خارجية، ويشهد الواقع على بأنه يمكن اعتبار داوود هو مؤسس الإدارة الحكومية فى يهودا . ولقد ظلت وظيفة كل من المنادى والكاتب موجودة طوال فترة مملكة يهودا . وقد أصبح هؤلاء فى عصر حزقياهو، عند هجوم سنحارب على يهودا ، بمثابة قواد كبار فى المملكة، وظهرت معهم مجموعة جديدة أطلق عليها «القائم بأعمال الهيكل» [وفيما يبدو أنها وظيفة استحدثت بعد عصور داوود، وهى تقابل «القائم بأعمال المعبد» فى بلاط ملوك أشور].

وهناك وظيفة أخرى هامة ظهرت فى المملكة، ولم يرد ذكرها فى العهد القديم إلا بعد تمرد إبشالوم، وهى «الجابى»، والذى يعمل على تجنيد الرجال لخدمة الملك [ويسمى ذلك «مَسْ» ضريبة أو «سيبل»، عبء] وقد ظهرت أهمية تلك الوظيفة فى عصر سليمان. وهناك قائدان آخران لم تذكر أسماؤهما فى القائمتين الواردتين فى سفر الملوك الثانى، بل ورد ذكرهما فى سياق القصص، وهما «مستشار الملك» «أحيتوفل»، و«صديق الملك» «حوشى هاأركى». ويوجد وصف لطبيعة وظيفتها فى قصة تمرد أبشالوم، حينما احتاج التمرد لنصيحتهما فى شئون سياسية عامة ومناورات حربية.

وتشير قائمة قواد الأملاك الخاصة بالملك فى سفر أخبار الأيام الأول

[٢٧: ٢٥-٣٠] إلى التاريخ الأقتصادى ووضع المملكة فهى تتحدث بالتفصيل عن المسئولين عن أفرع الاقتصاد المختلفة ومنها: خزائن الملك، محاصيل الحقول، وخزائن المدن والقرى والأبراج، الفلاحون، الكروم، النبيذ، أشجار الزيتون والتين فى سهول يهودا، الزيوت، قطعان الأبقار فى سهل الشارون، وفى الوادى، والجمال [التى يقوم برعايتها أوبيل هايشمعئلى] ، الحمير والأغنام.

وتعتبر تلك القائمة فريدة من نوعها فى فترة العهد القديم، حيث تعكس أفرع العمل فى المجال الاقتصادى الزراعى الضخم، كما تشير إلى أنواع الماشية سواء الدواجن أو المسخرة للنقل، والتى انتشرت فى مملكة اسرائيل. كما تشهد أيضاً على ضخامة أملاك البيت الملكى، والتى ازدادت للغاية ومنحت الملك قدراً هائلاً من الاكتفاء الذاتى الاقتصادى. وقد تزامن نجاح الملك فى المجالين السياسى والاقتصادى مع نجاحه المتزايد فى مكانته الدينية وحقه فى ممارسة الأعمال المقدسة. وقد ورد أصدق تعبير عن ذلك فى المزمور ١١٠ من سفر المزامير، والذى كتبه شاعر البلاط موجهاً إياه للملك: «أقسم الرب ولن يندم. أنت كاهن للأبد. على رتبة «ملكى صادق». [مزامير ١١٠:٤]. وهكذا تم تحديد العلاقة بيم ملك إسرائيل الذى يوجد فى القدس وبين «ملكى صادق» الذى يرمز فى هذا المزمور إلى الملك الكاهن فى أورشليم فى التقاليد السابقة لإسرائيل [تكوين ١٤:١٨].

وتشير قوائم القواد التى تشمل الكهنة أيضا إلى تلك الصلات والعادات: فتشير إلى أبيتار الذى ينتسب لأسرة الكاهن عالى، وإلى صادوق الذى ورد ذكره فى أخبار الأيام الأول [١٦:٣٩] باعتباره كان يخدم فى مذبح جبعون. وقد ميزت تلك الظواهر فترتى داوود وسليمان، ثم أخذت فى الاضمحلال بعد ذلك. وتشهد سلسلة الأحداث التى حدثت فى فترة الملكية، والعلاقات داخل بيت داوود على حالة الغليان الاجتماعى والسياسى الشديد

التى كانت آخذة فى الارتفاع وسط الطبقات الشعبية.

تمرد أبشالوم:

بالرغم من الانتصارت السياسية والعسكرية التى حققها داوود، التى أدخلها على نظام الحكم، لم يستطع هذا النظام الجديد أن يضرب بجذوره بسهولة فى حياة الشعب، بل أدى التجديد الذى أدخله داوود على المجال الإدارى فى المملكة، والتغييرات السياسية والاجتماعية التى أحدثهاخلال فترة زمنية قصيرة إلى الإضرار بالمؤسسات الاجتماعية التقليدية داخل طبقات الشعب، حيث قلل ظهور قواد وعبيد الملك من شأن "شيوخ القبائل"، وإن لم يبطل تأثيرهم، لأن هؤلاء كانوا يشكلون المؤسسات البطريركية القبلية فى الفترة السابقة للملكية. وقد أثار نظام الحكم سخط طبقات مختلفة من الشعب، وظهر ذلك بشكل بارز ومثير للدهشة فى تمرد أبشالوم.

وتتضح من خلال قصة التمرد، تلك الهوة بين المؤسسات السابقة، بقايا عصر القضاة، وبين المؤسسات الملكية. حيث كانت هناك هيئتان تقفان فى صف أبشالوم وهما: «شيوخ القبائل» (زقفى همشباحوت)، و«رجل يسرائيل». (إيش يسرائيل) وتدقق المصادر فى التمييز بين الهيئتين، وبينهما وبين «عبيد الملك» (عفدى هميليخ).

ويطلق اسم «رجل اسرائيل» على الجماعة التى تخرج من الجيش وتعود إليه وقت الحرب. وكانت تلك هى الوسيلة التى يعبر بها عن رغبة الشعب فى العصور القديمة. ويشهد على ذلك ما حدث عندما عرف الجميع بأمر التمرد، فانفصل مؤيدو داوود عنه ولم يبق معه سوى قلة من المقربين، ومجموعة القادة والمرتزقة الكرتى والبلتى الذين كانوا بمثابة جيش أجنبى، حسب وصفه لهم. وليس من الواضح إلى أى جانب أنضم الأبطال الثلاثين المعروفين أثناء التمرد.

وقد اتضح أنه كان هناك عاملان أساسيان أديا لنجاح تمرد أبشالوم

فى مرحلته الأولى، ولقدرة أبشالوم على استمالة الشيوخ وجند الشعب (العامة)، وهما: تأكيد أبشالوم على إعادة مؤسسات الحكم القديمة، والتى غيرها داوود بأخرى جديدة اعتبرها الشعب حائلاً بينه وبين الملك، الذى توقعوا منه حكماً عادلاً. ويفترض أن أبشالوم الذى ينحدر من سلالة ملوك من ناحية الأب، وكذلك الأم وهى ابنة ملك جشور (صموئيل الثانى :١٣-٣٧] اعتبر هذا التنازل وسيلة لاستمالة الشعب والاستيلاء على الحكم.

أما العامل الثانى الذى أدى لتعضيد التمرد فهو وجود الوحدة البسطية القبلية المحاربة، والتى تسمى «الألف»، والتى كانت تعتبر حجر الأساس فى تجنيد العامة فيما قبل عصر الملكية، وأبقى عليها داوود على الرغم من كل تجديداته. وبهذا ظل فى استطاعة الشيوخ التأثير على الجند من عامة الشعب. وعندما رغب رؤساء القبائل فى تأييد أبشالوم، جذبوا إليه بسهولة «رجل إسرائيل» ولم تستمر هذه الصلاحية التى كان يتمتع بها الشيوخ باعتبارهم مجلسا استشاريا دائما بجوار الملك يشير عليه فى شئون الحرب السبطية العامة كثيراً. وما أن تم انتصار داوود وقمعه لتمرد أبشالوم حتى تم إلغاءه. ولكن استمرت قوة الفئة المحاربة «رجل إسرائيل» كهيئة تملك صلاحيات تنصيب الملوك فى فترات الطوارئ.

التغييرات فى نهاية عصر داوود:

استنتج داوود من تمرد أبشالوم، أنه من الآن فصاعداً يجب عليه أن يتخذ القوى القبلية الاجتماعية القديمة كركيزة إجتماعية، وكان لتلك الاستنتاجات تأثيراً شديداً على مصير المملكة الموحدة. فقد قرر ترك أهدافه للمساواة بين الأسباط، والتى كان يعمل من أجلها حتى ذلك الحين، وشكل لنفسه دعامه مخلصة فى الإطار العسكرى القبلى من جماعة «رجل يهودا» وهى القوة العسكرية الاجتماعية التابعة لسبطه. ولهذا منح لبنى يهودا أفضلية لم تكن متاحة لهم حتى ذلك الوقت. وقد تجلى ذلك فى أن «رجل يهودا» وليس

«رجل إسرائيل» هم الذين نقلوا داوود وبيته عبر الأردن لإعادته إلى كرسى الحكم [صموئيل الثانى ١٩:٤١-٤٢]. ولهذا السبب اشتعل تمرد جديد داخل «رجل اسرائيل» الذى أعلن مجدداً انفصاله عن داوود وعزمهم «إعادة الملك إلى بيته»، وحدث ذلك عندما أعلن موت أبشالوم. وتزعم شبع بن بكرى من سبط بنيامين هذا التمرد، وأعلن قيام وحدة منفصلة من «رجل اسرائيل» اعتراضاً على انحياز داوود إلى يهودا. وهذا ما يفهم من الشعار المنسوب إليه: «ليس لنا نصيب فى داوود ولا قسمة فى إبن يس. كل رجل إلى خيمته ياإسرائيل» [صموئيل الثانى٢٠- ١].

ويتضح من هذا أنه فى أعقاب تمرد أبشالوم اشتعل الخلاف للمرة الأولى بين القسمين المزمع قيامهما على أنقاص المملكة الموحدة وهما: «رجل يهودا» و «رجل اسرائيل». ولهذا السبب يمكن أن ندرك قلق داوود من جراء هذا التمرد مثلما عبر عن ذلك فى حديثه مع أبيشاى: «الآن يسئ إلينا شبع بن بكرى أكثر من أبشالوم» [صموئيل الثانى :٢٠-٦]. لقد قضى على تمرد شبع بن بكرى فى مهده، ولكن ذلك لم يكن بفضل «رجل يهودا» وقد حاول رعماسا استدعاءهم، بعد أن عينة داوود قائداً للجند بدلاً من يوآب، بغرض استرضائه. ولكن رعماسا فشل فى المهمة التى كلفه بها داوود، وبعد أن قتله يوآب، أرسل داوود الكتيبة - وهى جند المملكة الدائم - فى إثر شبع بن بكرى وتم قتل المتمرد الذى كان قد فر إلى آبل بيت معكة فى الجليل الأعلى، واستتب الأمن الداخلى كما كان. وعاد داوود إلى القدس، وأعاد مؤسسات المملكة، ولكن لم يطل به الأجل، فمات بعد فترة وجيزة من أحداث التمرد.

وكان يمكن لشرارة التمرد أن تندلع من جديد، مثلما يتضح لنا من سرد أحداث أيام داوود الأخيرة، ومحاولة أدونياهو أستمالة الشعب وخلق حزب لنفسه. إلا أن داوود كان قد نصب ابنه سليمان من زوجته الأثيرة بت شيع، كى تستتب الأمور بعد وفاته ويضمن استمرار توارث الملكية. ولكنه بذلك تخطى أبناءه الأكبر سناً. وعلى الرغم من تأييد قادة الملك المخضرمين

لأدونياهو - ابن داوود البكر بعد موت أبشالوم - وخاصة يوأب وأبيتار، إلا أن سليمان نجح فى التمسك بالحكم بمساعدة بنياهو بن يهويادا ع، قائد مرتزقتة، فقتل معارضيه وأصبح ملكاً على إسرائيل ويهودا.

تاريخ سليمان [٩٦٥ - ٩٢٨ ق.م]

حظى تاريخ سليمان، مثل أبيه داوود، بإحاطة شاملة فى "المقرا" (العهد القديم)، إلا أن أسلوب الوصف كان مختلفا، حيث انتقل مركز ثقل الموضوع، وفرض العصر الجديد رؤى جديدة، فاختفى الوصف البيوجرافى الذى يركز على الشخصية ومصيرها، مثلما كان أسلوب كتابة التاريخ فى عصر داوود، فحلت محله الكرونوجرافيا «التدوين حسب التسلسل الزمنى للأحداث»، والتى تنظر إلى الدوافع التاريخية برؤية مختلفة.

لقد حاول من دونوا التاريخ المرتبط بعصر سليمان، تفسير سر الاستقرارر السياسى والرخاء الاقتصادى فى عصره ، فوجدوا أن ذلك كان ثمرة حكمته. وحسب رأيهم أحسن الملك تصرفاته، لأن اتبع القواعد المتفق عليها بين الحكماء. وكان أبرز تعبير عن فكر الحكماء ماورد فى سفر الأمثال الذى تنسبه الروايات إلى الملك الذى كان «أحكم من أى إنسان». ويرجع الفضل فى ثراء سليمان وعظمته السياسية، والأبنية التى شيدها، وخاصة الهيكل، إلى «حكمة الرب التى غرسها فى قلبه»، والتى وهبتها له السماء عند توليه الحكم. وبالإضافة إلى ذلك، لم يوصف سليمان باعتباره ملكاً حكيماً فقط، بل وصف بأنه "أبو الحكمة فى إسرائيل": «وفاقت حكمة سليمان حكمة جميع بنى المشرق وكل حكمة مصر. وكان أحكم من جميع الناس من إيثان الأزراجي وهيمان وكلكول ودردع أبناء ماحول، وكان صيته فى جميع الأمم حواليه. وتكلم بثلاثة آلاف مثل، وكانت نشائدة ألفاً وخمساً ... وكانوا يأتون من جميع الشعوب ليسمعوا حكمة سليمان...» [الملوك الأول ٤:٢٩-٣٤].

وليس هناك، فى الواقع، مايشين تصوير شخصية سليمان بهذا الشكل،

لأن مملكة إسرائيل الموحدة فى فترة حكمه الطويلة التى عمها السلام، أصبحت مملكة ضخمة ثرية انتشر تأثيرها بعيداً، وحظيت بمكانة هامة كدولة وسيطة بين مصر وأسيا الصغرى. وأبلغ دليل على علوشأن مملكة سليمان زواجه من «ابنة فرعون»، وهو الحدث الذى يعتبره أ. ملمات شاذاً عن عادة المصريين القدماء فى عدم تزويج بنات الفراعنة خارج حدود بلادهم.

مملكة سليمان فى الشرق القديم:

اشتملت مملكة سليمان على كل الأراضى التى احتلها داوود: أدوم، موآب وعمون، أرام دمشق، ووصلت حدودها إلى حماة وهى دولة حيثية هامة فى سوريا، ويحتمل أيضاً أنها كانت تدخل فى نطاق مملكة سليمان من الناحية السياسية. ولقد أتاحت له سيطرته الكاملة على طرق التجارة الرئيسية التى تربط أرام النهرين وسوريا مع مصر [سواء عبر الأردن أو عبر البحر الذى يخترق أرض الفلسطينيين]. امتيازات سياسية وتجارية كثيرة. وكانت سيطرته على طرق القوافل العربية ذات أهمية قصوى، وخاصة قوافل البخور والعطارة. فقد ازدهرت تلك التجارة فى القرن العاشر ق.م ووصلت لآفاق عالمية. وكانت العطور ووسائل الرفاهية تجلب من جنوب الجزيرة العربية عن طريق الصحراء إلى ممالك سوريا وسواحل البحر المتوسط. ونظراً لأن أهل سبأ كانوا هم المصدر الرئيسى لهذه التجارة، حيث أنهم يتحركون فى الجنوب ولكن قوافلهم تذهب شمالاً، فإن ذلك يفسر قصة زيارة ملكة سبأ للقدس، تلك الزيارة التى ساهمت فى إيجاد علاقات تجارية.

وكان لازدياد أهمية مملكة اسرائيل فى مجال التجارة الدولية، والأزدهار الاقتصادى الذى نجم عنها، أثراً فى توطيد العلاقات بينها وبين الممالك المجاورة، ومن أكثر تلك العلاقات توطيداً ما كان بين مملكة اسرائيل وبين حيرام ملك صور. وكانت صور فى تلك الأونة فى طريقها نحو التقدم كمركز تجارى كبير فى الساحل الفينيقى ، وكذلك باعتبارها مؤسسة

المستوطنات على ساحل البحر المتوسط. وكان هناك نوع من التكامل الاقتصادى بين الدولتين، فأمد سليمان حيرام بفائض الإنتاج الزراعى، وأخذ منه المواد الخام المطلوبة فى عمليات البناء، وخاصة أخشاب الأرز. كما أدت العلاقات الاقتصادية الوثيقة إلى تنفيذ مشروع بحرى مشترك، وهو إقامة خط من السفن من عصيون جابر وحتى أوفير [تقع على ما يبدو على الشواطئ الشرقية لأفريقيا]. وكان هدف سليمان وحيرام من ذلك هو الوصول، دون وسطاء، إلى المنابع التى توجد بها وسائل الرفاهية الأساسية فى ذلك الوقت، وخاصة العاج الخام، والذهب والأخشاب الثمينة (الموجانا، وربما باللغة الاكدية إلمكو)، والحيوانات والطيور النادرة. [كانت عادة جمع حيوانات نادرة من أجل حديقة حيوان ملكية هى عادة متعارف عليها لدى الملوك فى أشور فى القرنين الحادى عشر وحتى التاسع قبل الميلاد].

ووصل سليمان عن طريق الصوريين والدول الحيثية الجديدة فى شمال سوريا إلى مصادر المعادن: فأخذ النحاس من قبرص، والحديد من أسيا الصغرى. وكان النحاس مخصصاً لصنع آنية الهيكل، بينما خصص الحديد لآلات العمل والأسلحة. كما جلب الجياد التى تباع لمصر من أسيا الصغرى، أما مصر فجلب منها عربات المواكب التى تستخدم فى الاحتفالات، والتى تباع لشمال سوريا. وكان تجار الملك هم الذين يديرون شئون التجارة، وكانوا بمثابة موظفين أو وكلاء ذوى مكانة مستقلة، وهو الأمر الذى يعد من بين التجديدات الاقتصادية فى مملكة سليمان.

ويعتبر ازدهار التجارة جانباً واحداً من جوانب الازدهار الاقتصادى فى مملكة سليمان، حيث ساهمت فترة السلم الطويلة فى تحسين وسائل الإنتاج أيضاً. وظهرت المحاريث ذات النصال الحديدية فزادت المساحات المستصلحة، مما أوجد فائضاً فى الإنتاج الزراعى يمكن تصديره للدول

المجاورة.

وكانت حركة العمران النشطة فى أرجاء البلاد من أبرز علامات الازدهارر في عصر سليمان. وقد كشفت معاول علماء الأثار عن هذا العمران فى العصر الحديث، وقد تميز بطراز جديد، وهو استخدام الأحجار المنحوتة والتيجان لتزيين المبانى. أما تحصين المدن فتم بأسلوب معمارى فريد، باستخدام الأسوار وبوابة ذات طراز مميز، يتشابه مع ما تم الكشف عن فى مجيدو ، جازر، وحاصور.

وانصب جل الاهتمام على عمران القدس باعتبارها المدينة الرئيسية. فتم توسيعها شمالاً، وتحسينها وإحاطتها بسور يتعدى «مدينة داوود» كما شيد بها قصر الملك والهيكل. واستعان سليمان عند بناء الهيكل بخبراء من صور، وتم تشييده على غرار المعابد الموجودة فى شمال سوريا ويعتبر بناء الهيكل على هذا الشكل واختيار أوانيه وحليه. بمثابة تجديد شامل فى اسرائيل من خلال شكله ورموزه.

أما قصر الملك فكان يقع بجوار الهيكل، واستمر بناؤه ١٣عاماً. وهكذا جعل سليمان من القدس هيكل الملك والمدينة الرئيسية حتى بالنسبة لمبانيها، أى أنه استكمل ما بدأه داوود بتحويل مدينته إلى مركز دينى روحانى لملكته. إلا أنه يحتمل أن تحويل تلك المدينة، التى كانت أجنبية وغير مقدسة بالنسبة للأسباط – إلى مركز لهيكل الرب أثار اعتراض مؤيدى المراكز المقدسة القديمة، التى ظلت تحتفظ بقدسية فى حياة الجماعة. ويمكن افتراض أن هذا الاعتراض ساعد على اندلاع التمرد الذى تلى موت سليمان.

ويرجع الفضل فى تحصين المملكة والإعلاء من شأن القدس والهيكل فى الجانب الأكبر منه، إلى ما قام به سليمان من تنظيم لطبقات اللاويين الذين يقومون بخدمة الهيكل. وعلى الرغم من أن المادة الأساسية التى تصف تلك الموضوعات ترجع لفترة الهيكل الثانى [أخبار الأيام الأول ٢٣-٢٦] إلا أن

البعض يرى أن تلك المادة تحمل انعكاساً من عصر سليمان، وربما أيضاً من نهاية عصر داوود. ويفترض أن التنظيم الإدارى للاويين يرجع فى الأصل إلى نهاية عصر داوود. وكان الغرض من ذلك منح أبناء لاوى مكانة مميزة كموظفين للملك فى بعض المدن المخصصة لذلك، وهى مدن الإدارة المركزية [وبخاصة مدن اللاجئين: هوشع ٢١، وأخبار الأيام الأول ٦] التى خصص للاويين ملكيات فيها. وقد إنتزع يربعام بن ناباط من اللاويين المخلصين لبيت داوود وظيفتهم ونصب آخرين بدلاً منهم.

فرض الأعباء على الجماعة:

يرجع الفضل فى أعمال البناء الضخمة التى قام بها سليمان، وخاصة بناء الهيكل، إلى نظام السخرة، أى التجنيد الموسمى لأعمال الملك، وتم فرض ذلك على أبناء الجماعة كلهم [ويسمى أيضا «سبيل» من «سبول» ، ويعنى فى الأصل جر السلال فى أعمال البناء]. ويشهد التاريخ على أن عدد العاملين بالسخرة فى عصر سليمان كان سبعة آلاف عامل «حاملى السبل»، وثمانية آلاف لقطع الحجارة من الجبل، كما كان هناك ثلاثون ألفاً يعملون بالتبادل بمعدل عشرة آلاف كل شهر. ويقوم بالإشراف على كل هؤلاء حتى لبنان ثلاثة آلاف وثلاثمائة مستعبد. وتعتبر ظاهرة السخرة الموسمية التى فرضت على بنى اسرائيل بشكل جزئى، وعلى بقايا الكنعانين فى البلاد بصورة غالبة، ظاهرة جديدة على الجماعة الإسرائيلية. وكانت سبباً لإثارة السخط ولكنها وجدت متنفسا فى التمرد.

وقد فرض سليمان أيضا على الجماعة الإمدادات الخاصة ببلاط الملك وجيشة الذى يعسكر فى القدس والمدن المحصنة الخاصة بذلك. وكان معظم الجيش، والذى أسسه داوود، يعتمد على المركبات، ولكنه أصبح فى عصر سليمان العمود الفقرى لجيش المملكة. وكان جيش المركبات يعتمد على طبقة النبلاء راكبى المركبات وخدمهم، ويعد الراكبون من المقربين للملك و«يأكلون

على مائدته». وقد بنى لهم مدناً محصنة مثل: جازر، حاصور، ومجيدو [ملوك أول ٩:١٥-١٨]. وبالفعل، كشفت الحفائر الأثرية فى تلك المدن أطلال منازل وحصون رائعة تدل على أنها كانت بمثابة مراكز عسكرية وإدارية هامة وتبرز قوة العمران الملكى فى عصر سليمان بشكل خاص، كما يؤكد يجآل. يادين، على التوافق الفريد فى تصميم بوابة مدينة جازر ومجيدو وحاصور.

وقد تم فرض الضرائب لإعالة الجيش ومجموعة الموظفين. وكانت هذه الضرائب تجمع فى صورة محاصيل من جميع أنحاء البلاد التى يسكنها بنو إسرائيل. وقسمت الأرض إلى اثنتى عشرة جزءاً [ولاية]، وترد القائمة المفصلة لهذا التقسيم فى سفر الملوك الثانى- الإصحاح الخامس. ويعتقد البعض أن هذا التقسيم يرجع لعصر داوود، وأنه كان يعكس أسلوب توسيع رقعة مملكته. إلا أن التجديد الذى أدخله سليمان يكمن فى الحرص الزائد على ارتباط كل إقليم بالملك والبلاط. ويمكن أن نفترض أن سبط يهودا لم يدخل نفس تقسيم الأقاليم الملتزمة بإمدادات الملك، بل حظى بامتيازات وحريات بفضل تحكمه فى إقليم الملك.

وقد أدى تفضيل يهودا ، والذى بدأ بعد تمرد أبشالوم، إلى تدعيمها وساهم فى عمل علاقات مميزة بينها وبين بيت الملك، وأدى كل ذلك إلى نتائج حاسمة فى فترة الانقسام.

وقد أدى ازدياد ثراء البلاط الملكى، وصعود طبقة القواد وفرض ضرائب على الإنتاج، إلى ازدياد الهوة بين طبقات الشعب وبين الحكم الجديد والطبقات التى أفرزها. واتسعت تلك الهوة فى نهاية عصر سليمان، وهى الفترة التى اجتاحت الملكية فيها أزمة سياسية واقتصادية. وتحكى المقرا عن الضائقة التى مرت بها المملكة، حيث منح سليمان لحيرام عشرين مدينة فى أرض الجليل، ويشمل ذلك منطقة الشاطئ الواقعة من صور وحتى جنوب عكا، وهى منطقة خصبة وهامة، وظلت هذه المنطقة تحت سيطرة الصيدونيين،

ويطلق على تلك المنطقة اسم «أرض كبول» نسبة إلى مستوطنة كبول التى تقع على بعد ١٥كم جنوب شرق عكا. إذن فهناك أصل للافتراض القائل بأن سليمان كان مضطراً لتسديد ديون لصور في مقابل المواد الخام بمنحها تلك المدن المأهولة.

الأزمـــة:

تغيرت الاوضاع الدولية تغيرا حاسما فى النصف الثانى من عصر سليمان، ففى عام ٩٤٥ ق.م تغيرت الأسرة الحاكمة فى مصر. وكان شيشنق مؤسس الأسرة الجديدة [الأسرة ٢٢] يناصب سليمان العداء، لأن سليمان ارتبط بعلاقة مصاهرة مع الاسرة السابقة. وبعد فترة وجيزة من هذا الحدث، نشبت ثورات فى شمال وجنوب مملكة سليمان، فى أرام وفى أدوم. وعندما قمع سليمان تمرد أدوم لجأ المتمردون إلى شيشنق ولكنه لم يفلح فى القضاء على تمرد أرام، حيث أسس رازون بين اليادا ع الأرامى أسرة ملكية مستقلة فى دمشق واستقل بآرام عن مملكة سليمان. وقلل هذا الاستقلال من دخل الملك من التجارة، كما أدى إلى ازدياد المصروفات اللازمة لزيادة قوة الجيش فى الشمال، وتحصين المدن الواقعة على حدود مصر. وتم خلال ذلك أيضا تحصين القدس وبناء «القلعة» [الملوك الأول:١١-٢٧] - وهكذا اندلع التمرد الأول ضد سليمان، عندما كان يربعام بن ناباط مسئولاً عن عمال السخرة من سبط أفرايم، والذين جندوا التحصين القدس، وقام «يرفع يده على الملك» [الملوك الأول:١١-٢٧]. ولم ترد تفاصيل التمرد فى سفر الملوك، ولكن تذكر إحدى الإضافات فى إحدى نسخ الترجمة السبعينية أن يربعام ضم إليه ترصة وتحصن بها. وربما يكون يربعام اسماً رمزياً يعنى «مثير عداء الشعب» (الفعل "راب" فى العبرية يعنى عادى - خاصم، وكلمة "عم" تعنى الشعب)، وهو اسم أطلقه عليه بنو إسرائيل باعتباره زعيم التمرد ضد الملك فى يهودا. واضطر يربعام للفرار إلى مصر حيث منحه شيشنق الحماية، وانتظر يربعام

هناك اللحظة المناسبة التي حانت بموت سليمان وتسلم رحبعام إبنه مقاليد الحكم.

ووفقا لما جاء في سفر الملوك الأول. الإصحاح الحادى عشر، فقد قام النبى أحيا الشيلونى بمهمة حاسمة أثناء تمرد يربعام، حيث تنبأ بانقسام المملكة وساند يربعام فى بداية مشواره.

ويفترض أن أحيا كان يعبر عن وجهات نظر جماعة الأنبياء، التى كانت مرتبطة بالطائفة ومؤسساتها، حيث يشهد اسم أحيا «على أنه ينتمى إلى شيلوه»، وهى مركز مقدس لدى أسباط إسرائيل من قبل عصر المملكة وربما ينتمى أحيا لنسل بيت "عالى"، وهى أسرة كهنة هامة كانت تخدم فى شيلوه وأبعدها سليمان عن خدمة الهيكل فى القدس.

لم تتعرض قصة سليمان فى «المقرا» (العهد القديم) لإبراز الأزمة التى حدثت فى أواخر عصره وهدمت أسس المملكة الموحدة. وظل سليمان فى وعى الشعب رمزاً لأيام السلام والازدهار، كما حافظ على ذكراه كمؤسس للهيكل، وكحاكم ازداد فى عصره عدد السكان فى يهودا وإسرائيل «كثير كالرمل الذى على البحر فى الكثيرة يأكلون ويشربون ويرقصون» [ملوك الأول:٤-٢].

وقد فسرت ضوائق الأيام الأخيرة فى عصر سليمان بأنها عقاب على التأثيرات الأجنبية والثقافات الوثنية التى تسللت إلى بلاطه بعد أن أمالت زوجاته الأجنبيات قلبه [ملوك الثانى:١-١٥].

إنقسام المملكة:

عندما اعتلى رحبعام العرش عام ٩٢٨ ق.م، ثارت حركة العصيان التى تتطلع لحياة جديدة بمعايير أكبر بكثير. وكان النذير الأول بها فى حفل التتويج. وعلى الرغم من أنه لم يكن هناك مكان أو نظام متعارف عليه فى إسرائيل لتتويج الملك، إلا أن جهود داوود وسليمان كانت موجهة فى عصرهم لتحديد القدس كمركز للجماعة الموحدة، وساهم سليمان بشكل مدهش فى

ذلك. فكان طبيعياً إذن أن يأتي الجميع إلى القدس العاصمة لتنصيب ولده وريث عرشه.

اجتمع رؤساء اسرائيل في شكيم وطالبوا بأن يكون التنصيب هناك. ويشير ذلك إلى اتحاد أسباط إسرائيل الشمالية كوحدة واحدة إزاء الملك في يهودا. وتبدو خطورة الوضع حين أضطر رحبعام للخضوع والذهاب إليهم. وكان هذا تعبير عن رغبته في استمالتهم واستعداده لتقديم تنازلات. وقد وصلت هذه الاستعدادات إلى ذروتها عندما أصبح المتحدث باسم رؤساء الجماعة هو يربعام المتمرد الذي عاد من مصر بعد موت سليمان [وفق ما جاء في الملوك الأول ١٢:١-١٢> بينما يرد في الملوك الأول ١٢:٢٠ أنه تم استدعاء يربعام بعد الانقسام].

ويحتفظ سفر الملوك الأول:١٢، بقصة المفاوضات بين رؤساء الشعب وبين رحبعام. ويشير أسلوب القصة وهدفها إلى أن من كتبها هو نفس المصدر الذي كان يمجد عصر سليمان وأعماله [أقوال سليمان ملوك ١١:١-١٤] وكان هذا المصدر هو دائرة الحكماء التي اعتبرت الفهم التعليمي العقلاني هو أساس السلوك الإنساني والزعامة السياسية. ونفس تلك المعايير التي طبقت على سليمان وأصبح ملكاً حكيماً، طبقت على رحبعام وأدين تجمعه الذي جعله لا يتعلم من الشيوخ وينساق وراء الشباب معدومي التجربة. وفي هذه القصة تم اختصار طلب الجماعة (تسمى في القصة "عيدا" أي طائفة) بتخفيض الضرائب الأساسية التي فرضتها المملكة: وهي ضريبة العمل. وصيغت بلغة مختصرة: «قلل من سخرة أبيك القاسية ونيره الثقيل علينا..». وتذكر القصة أن رحبعام لم يكترث لنصيحة مستشاريه من الشيوخ ذوي الخبرة الذين كانوا "يقفون أمام سليمان". وكانت نصيحة الشيوخ هي الخضوع المؤقت للشعب واستمالته، وذلك حتى ينصب ملكاً فيستعيد كامل صلاحياته. ولم تكن تلك النصيحة سديدة في نظر رحبعام، واستمع لنصيحة

«الشباب الذين تربوا معه وخدموه». وهم القادة الشبان من الجيل الجديد المعاصرين له، الذين يتبعون طريق السلطة التى تعترف بقوى الشعب وأقرانه الذى يجهلون تركيبة الشعب وتطلعاته. وتصف القصة موقف الملك من شعبه بفقرة متغطرسة غليظة: «لقد عذبكم أبى بالسوط وسوف أعذبكم بالعقارب». وهنا ألقى الشعب فى وجهه المقولة الشهيرة التى قيلت أثناء تمرد شبع بن بكرى: «ليس لنا نصيب فى داوود ولا آل يس، لخيامك ياإسرائيل، والآن انظر بيتك ياداوود».

ويشهد الواقع أن المطالب كانت اجتماعية واقتصادية فقط، ولكن التمرد والانقسام حدثا وفقاً لوجهات نظر، ترجع لجذور أكثر عمقاً. ومن هنا تبقت خطوة واحدة لانقسام المملكة، وهى انقسام يهودا واسرائيل أى بين الجنوب والشمال. وتقف طبيعة العلاقة الضعيفة بين إسرائيل ويهودا فى مقدمة الظروف التاريخية التى أدت للانقسام. وعلى الرغم من المحاولات المستميته التى قام بها داوود لتوثيق تلك العلاقة والتى عضدت بفضل جهود داوود وشخصيته، التى حاول أن يوثق بها طرفى الشعب، لم يتمكن، سواء هو أو سليمان، من محو الاختلافات التاريخية العميقة بين الطرفين. ولقد ساهم الوضع المتميز ليهودا، والذى استقر وضعه بعد تمرد أبشالوم فى حدوث الانقسام، وجنى رحبعام مازرعه أباؤه.

ومن الغريب أن رحبعام استسلم بسهولة لهذا الواقع، ولم يحاول حتى أن يخرج مع جيشه، مثلما فعل داوود، لقمع التمرد. وفيما يبدو أن الظروف قد تغيرت. إذ يحتمل أنه قد خشى من شيشنق ملك مصر الذى يحمى يربعام، والذى كان يتحين الفرصة للإضرار بالملكة. وقد فضل رحبعام المسالمة وأرسل أدورام المسئول عن الضرائب كى يتفاوض حول التنازلات، ولكنه تأخر فى ذلك، إذ كان التمرد يلوح فى الأفق، ورجُم أدورام بالحجارة أما رحبعام فاستطاع الهرب للقدس بصعوبة.

لقد انقسمت مملكة إسرائيل إذن بعد قرن من قيامها، وكانت المؤسسات الملكية قد أرسيت خلال تلك الفترة، لذا لم يحاول زعماؤها أثناء الانقسام أن يعيدوا الأمور إلى ما كانت عليه قبل ذلك بنظام حكم بدون ملك.

ولم تضم الدولتان المنفصلتان يهودا وإسرائيل [عرفت "إسرائيل" قبل دمارها باسم إفرايم أيضاً] حدود مملكة داوود وسليمان، حيث استقلت عمون وموآب وأدوم. ودعمت المدن الفلسطينية قوتها واجتاحت وادى إيلون. ومن البديهى أن التأثير السياسى للملكتين أصبح أقل كثيراً من تأثير المملكة الموحدة. كما أصيب الاقتصاد بالضرر، بسبب انقطاع الطريق التجارى فى عبر الأردن الشرقى. وكان أثر الأزمة أقل ضرراً على يهودا حيث لم تكن تملك أرضاً خصبة واعتمد اقتصادها على تربية الماشية. ولم تخل خزانة المملكة بعد وظلت الطبقة الحاكمة تملك احتياطيات اقتصادية. ويفترض أيضاً أن استخدام الفلاحين للآلات الحديدية، والذى بدأ فى عصر سليمان، قد زاد من معدلات الإنتاج ومن الأراضى المستصلحة. وأمكن حفر آبار مياه عميقة باستخدام الآلات الحديثة، كما مكنت القنوات المائية المحفورة فى الجبل من زرع المناطق الجبلية، وخاصة البعيدة عن الينابيع. ويفترض أن هذه التقنية كانت عاملاً أساسياً فى ازدياد السكان وتعمير مناطق جبال يهودا وبنيامين، التى أصبحت بمثابة العمود الفقرى للمملكة الجديدة. وكانت مملكة إسرائيل الأكثر اتساعاً، والتى ضمت جميع مناطق الأرض شمال بنيامين، هى الوريث الأساس لقوى المملكة الموحدة وتوابعها. وكانت ثرواتها الطبيعية وسكانها اكثر من يهودا بمراحل. ولكن التمرد كان يرفع شعار إحياء مقولات العصر البطريركى السابق للملكية، وكان موظفو الملك سليمان منبوذين بالنسبة لحكام البلاط الجديد. لذا مر وقت طويل حتى نجح الملوك الجدد فى بلورة نظم الحكم والإدارة المطلوبة لتسيير شئون المملكة.

(ب) فترة المملكتين

جذور العلاقة بين المملكتين:

يمكن تقسيم فترة قيام المملكتين المنفصلتين، إسرائيل ويهودا، منذ الانقسام عام ٩٢٨ ق.م وحتى دمار السامرة عام ٧٢٠ق.م، إلى خمس فترات:

أ) فترة التأسيس المنفصل. ب) فترة الحلف الوثيق

جـ) فترة تدهور المملكتين د) مرحلة الازدهار الجديد

هـ) نهاية مملكة أفرايم

وعلى الرغم من وجود منافسة دائمة بين إسرائيل ويهودا من الناحية السياسية والدينية، ووجود حرب متبادلة بينهما، إلا أن مايجمع بينهما كان أكثر مما يفصلهما. فكان الوعى الجمعي، على النحو الذى يتبدى فى الانتاج الأدبى لعصر المملكتين، ينتمى لجماعة واحدة تنقسم إلى دولتين. ولم تستطع الحدود السياسية أن تفصم العرى الاقتصادية الوثيقة بين شطرى الجماعة فى تلك البلاد الصغيرة. فإذا حلت أزمة اقتصادية بإحدى المملكتين كان يؤدى ذلك بالتالى لأزمة لدى مثيلتها، أما فترات الازدهار فكانت تحل على كلتيهما فى آن واحد. ورغم اختلاف أماكن وأشكال العبادة، فقد ظل العامل المشترك بينهما هو الثقافة والذكريات التاريخية الأولية، مثل قصة الخروج من مصر، وقصص آباء الأمة.

ومع ذلك فهناك خطوط فاصلة بين إسرائيل ويهودا. ومن أبرز الأمور فى مملكة يهودا ثبات السلالة الملكية من بيت داوود. وكانت تختلف فى ذلك ليس عن إسرائيل فقط، بل عن بقية الدول المجاورة. وضمن هذا الثبات استقرار الحكم ووفر على يهودا الحروب الطاحنة التى انغمس فيها الطامعون

فى مملكة إسرائيل. ومن بين أسباب هذا الثبات مايلى: قداسة الملك داوود والتى انسحبت على نسله. والعلاقة الوثيقة بين نسل الملك وبين الهيكل، والحقيقة هى أن تلك المملكة كانت تقوم على سبط يهودا وتابعيه، وهى كتلة متضامنة منذ ازمن قديم. أما إسرائيل فلم تكن كذلك. حيث تناو بت عليها عدة أسر ملكية كانت تصاحبها حروب طاحنة انتهت بدمار البيت الملكى. وكان كل تغيير لأسرة ملكية، لا يؤدى فقط لوجود ضحايا من المقربين للأسرة السابقة، بل أيضا إلى حدوث تغييرات حادة فى الإدارة وأساليب الحكم. وقد استمر حكم ياهو أكثر من باقى الأسر الملكية، إلا أن حكمه لم يستمر أكثر من أربعة أجيال.

ولكن لا يمكن تفسير تلك التقلبات فى حكم إسرائيل بأسباب متصلة بموقف مبدئى من الملكية، وأنها تكمن أساساً فى اختلاف الفكر السياسى بين إسرائيل ويهود، حيث لم يكن أهل الشمال يتقبلون مبدأ توارث الملكية . ومن الصعب موائمة تلك النظرية، التى يعبر عنها أ. آلت، مع الحقائق. أما الأسباب الأكثر وضوحاً فهى أن العوامل الرئيسية لعدم الاستقرار هى اختلاف الوضع السياسى والأهداف الإجتماعية. وكانت مملكة إسرائيل الشمالية أكثر اتساعاً من يهودا، كما أنها كانت محاطة بمنظومة متنوعة من تقاليد وأهداف النظام القبلى. كما تضاربت مصالح المناطق المختلفة، وكان تنوعها من حيث العناصر الإجتماعية أكثر تشعباً من يهودا وكانت الخلافات الطبقية أيضا أكثر حدة. وقد اجتمعت كل تلك العوامل لوضع المملكة فى حالة من عدم الاستقرار. وكان تأرجح تلك القوى هو ذاته السبب فى عدم قدرة أى من الأسر الملكية على فرض سيادتها واكتساب صلاحية أمام الشعب كى تصبح بالنسبة إليه رمزاً للملكية، مثلما كان الوضع بالنسبة لنسل داوود فى يهودا .

وبالاضافة إلى هذا، ازداد تأثير الجيش فى إسرائيل، وتطلع قواد الجيشالذين حققوا نجاحا لما أكثر من مرة للحكم، وكانت معظم الانقلابات فى أسر الحكم تتم فى معسكرات الجيش أو فى أثناء الحروب. وقد شكل الانبياء قوة سياسية فائقة التأثير فى هذه الفترة. ومنح تأييدهم للانقلابات صفة رسمية لإرادة الرب وإرادة الشعب.

المصادر التاريخية:

يرد تاريخ المملكتين منذ الانقسام وحتى دمار يهودا فى أسفار الملوك الأول والثانى، وأخبار الأيام. وعلى الرغم من أن تلك الأسفار دونت بعد دمار الهيكل [سفر الملوك فى نهاية السبى البابلى، وسفر أخبار الأيام فى القرن الرابع ق.م]، إلا أنها تعتمد على مصادر أقدم بكثير، استقر بعضها بداخلها.

وقد غيرّ مدونو سفر الملوك بعض الشئ، فى المصادر التى وجدوها والتى استخدموها فى مؤلفهم التاريخى، فى وصف كل من مملكتى يهودا وإسرائيل معاً. أما صاحب سفر أخبار الأيام فقد أعد مصادره بشكل حاسم، وقص الأحداث بتوسع وبلغة عصره. وقد استخدم مدونو السفرين التاريخيين الشاملين مصادر مختلفة ومتنوعة وكانت بحوزتهم وثائق تاريخية لملوك إسرائيل ويهودا والتى تتناول تاريخ الملوك وأهم أعمالهم.

ويذكر مدونو سفر الملو ك «سفر أخبار الأيام لملوك إسرائيل» و «سفر أخبار الأيام لملوك يهودا»، وهى المؤلفات التى كانت تضم، فيما يبدو مادة بيوجرافية حقيقية، وصفا لأعمال الملك، وحروبه، والأبنية التى شيدها وهى مادة مرتبة زمنياً وذات أهمية كبرى، قام مدونو السفر بتنظيمها.

وقد اتضح أن أسفار أخبار الأيام لملوك يهودا وإسرائيل كانت بمثابة تأريخ رسمى، يتشابه مع التاريخ الأشورى الذى يرجع للقرنين ١٢ - ١١ ق.م، والتأريخ البابلى فى القرنين ٨ - ٦ ق.م. وكان بحوزتهم أيضاً أجزاء من

مذكرات هيكل القدس، والتى سجل بها أهم الأحداث فى تاريخ الهيكل. وكان هذا المصدر هو أساس المعلومات الواردة عن ترميم الهيكل، والإصلاحات التى أدخلت على نظام العبادة ومصير كنوز الهيكل، فجاء، على سبيل المثال، نبأ رحلة الفرعون شيشنق فى العام الخامس لحكم رحبعام، عندما دفع كنوز الهيكل والبيت الملكى كجزية لملك مصر، وكذلك وردت تفاصيل الجزية التى دفعها حزقياهو لسنحاريب ملك آشور عام ٧٠١ ق.م [الملوك الثانى ١٨: ١٤ - ١٦). واعتمد كثيرون على أقوال الأنبياء وقصصهم، وبخاصة أبناء الأنبياء، وينتمى لهذا النوع مجموعة قصص إلياهو واليشع. وتوجد معلومات تاريخية هامة تتضمنها قصص الأنبياء، مثل تاريخ الملك آحاب الذى نجده كاملاً فى مجموعة قصص إلياهو، وكذلك وصف تمرد ياهو وفترة الاستعباد الأرامى فى عصر يهو آحاز الواردة فى قصص اليشع. كما تبقت قصص لأنبياء يهودا من عصر النبوة الكلاسيكية مثل قصص إشعياء وأعماله، وخاصة القصة المفصلة التى تتناول دخول سنحاريب ليهودا (الملوك الثانى ١٨:١٧-١٩) [اشعيا ٣٦ - ٣٧].

وقد تم إعداد هذه المادة المتنوعة وتنظيمها فى القرن السادس ق.م فى نهاية فترة السبى البابلى. غير أن ذلك لايجعلنا نستبعد من ذلك أن بعض الأجزاء قد دونت قبل دمار الهيكل، وقد وأسبغ المدونون وجهة نظرهم على وصف مجرى الأحداث؛ وتشكل الشخصية الفاعلة فى التاريخ أمام الرب الحاكم إطاراً لعملية الوصف والتنظيم. ويشير المدونون صراحة إلى تقديرهم الإيجابى أو السلبى للشخصيات التاريخية، مستخدمين المعيار العقائدى. وتخضع الاعتبارات الأخلاقية الإجتماعية هنا إلى مسألة عبادة الرب. ويؤكد صاحب سفر الملوك وفقا لهذا المعيار على أفضلية وأهمية الملوك الذين أدخلوا إصلاحات على العبادة، وأعلوا من شأن هيكل القدس وهدموا المذابح. وقد أدت تلك الرؤية المؤ .ة للهيكل، بالتالى، إلى إدانة ملوك إسرائيل الذين ابتعدوا

عن العبادة فى الهيكل، ووصفهم بأنهم «صنعوا الشر أمام الرب» لمجرد أنهم ابتعدوا.

ولم تمنع تلك الرؤية المشنوية التوراتية التى ترجع للقرن السابع والسادس، مدونى سفر الملوك من إدراج الأعمال الإجتماعية والسياسية، مصحوبة فى بعض الأحيان بتقديرهم الإيجابى لما تحقق فى تلك المجالات، حتى بالنسبة لملوك إسرائيل الذين يعتبرهم المدون أشراراً. ويعتبر أهم مثال على ذلك وصف يربعام بن يوآش فى سفر الملوك، والذى «صنع الشر فى عين الرب» وسار على خطى يربعام بن ناباط، وفقا لما قاله المدون. إلا أنه مع ذلك «أعاد حدود إسرائيل من مدخل حماة إلى بحر العرابة حسب كلام الرب...» [ملوك ١٤: ٢٥ - ٢٨].

وتضم أسفار الأنبياء الكلاسيكية عاموس، هوشع، أشعياء، إرمياء مادة تاريخية هامة، تعكس شئوناً روحانية وإجتماعية واقتصادية لإسرائيل ويهودا. ولم يجرؤ المدونون على إظهار وجهة نظرهم فى أسفار الأنبياء مثلما فعلوا فى الأسفار التاريخية، لذا تتبقى فى مجموعات النبوءات معلومات تاريخية أصلية ورد ذكرها فى مصادر أخرى، وتتضح دقتها المدهشة بمقارنتها بالوثائق الآشورية المعاصرة لها. فمثلاً لايمكن فهم ماورد فى أشعيا ١٤دون أن يقارن بما جاء فى القوائم السنوية لسرجون ملك آشور. وتشير المقارنة إلى أن قصة سرجون فى القوائم السنوية تتناقض مع ماورد فى التسلسل الزمنى، حيث أن سرجون لم يغادر آشور فى سنة ٧١٢ ق.م. ومن هنا فإن أشدود لم تحتل بواسطة سرجون نفسه بل قام قائد الجيش بذلك. وتلك هى الحقيقة التى يصفها سفر إشعيا.

ويوجد إلى جانب المصادر المقرائية بعض المصادر المعاصرة لذلك الوقت والخارجة عن المقرا. فهناك بين أيدينا وثائق أبيجرافية عبرية وآرامية وفينقية تم الكشف عنها فى فلسطين والأراضى المجاورة لها، ومن أشهرها

نقش ميشع ملك موآب الذين يستكمل ماورد فى سفر الملوك. كما تعد القطع الفخارية [أوستراكا] التى اكتشفت فى الحفائر الأثرية بفلسطين مادة هامة تلقى الضوء على البنية الإدارية لإسرائيل ويهودا والوضع الإجتماعى القائم بهما. ومن أشهرها: أوستراكا السامرة التى ترجع لمنتصف القرن الثامن ق.م، والقطع التى ترجع لعصر يوشيا ملك يهودا، والأختام الموجودة على الأوانى والتى تعكس نظم الإدارة فى يهودا فى نهاية فترة الهيكل الأول. وتعد الكتابات المدونة على الفخار ذات أهمية خاصة، مثل خطابات لاخيش التى ترجع لنهاية فترة يهودا. وفى مقابل ذلك تقل المصادر المصرية التى ترجع لهذا العصر نسبياً، ومن أشهرها قائمة مدن فلسطين التى احتلها الفرعون شيشنق ملك مصر، والمدونة على جدران معبد الكرنك. ولكن أغزر المصادر هى تلك المكتوبة بالخط المسمارى على يد الآشوريين ثم البابليين.

وقد قام ملوك آشور أحياناً بتدوين أخبار الحملات العسكرية التى قاموا بها فى فلسطين، أو كانوا على الأقل يذكرون اسم ملك إسرائيل الذى حاربهم أو دفع لهم الجزية. وأهم تلك المصادر القوائم السنوية لملوك آشور، مثل شلمناصر الثالث، تجلات بلاسر الثالث، سرجون، سنحاريب، الذين قاموا بحملات أو حروب فى البلاد حتى دمروا إسرائيل فى النهاية، وتعتبر تلك القوائم أكثر دقة من أسفار العهد القديم إذ أنها كانت تدون على الفور فى إثر مرور الحدث الذى تصفه، لذا فهى مصادر معاصرة لكل الشئون. ولكنها من ناحية أخرى يمكن أن تكون بعيدة عن الدقة، إذ أنها تعد بمثابة شكر لآلهة آشور على الانتصارات التى أحرزها ملوك آشور فى الحرب، فهى إنها إذن موجهة لتعظيم الملوك أمام الآلهة وتمجيد الإله بإنتصار ملوكه. وعلى ذلك لاينتظر أن تحكى بهم أخبار الهزائم، لذا يعتبر ذلك عيباً فى القوائم التى تعد أحادية الرؤية، وأحياناً ماتختلق انتصارات ليس لها وجود.

وتعد التواريخ البابلية الحديثة أكثر موضوعية، وهى تشمل الفترة بين ٧٤٥ وحتى ٥٣٨ ق.م. ولم تكن تلك المؤلفات رسمية أو حكومية تهدف لتمجيد الإله أو الملك، لذا احتفظت بأخبار هزائم ملوك آشور وبابل. ويهمنا بشكل خاص التواريخ التى تقص أخبار نبوخذ نصر، والتى تستكمل ماجاء فى سفرى الملوك وإرميا، حول الأيام الأخيرة لملكة يهودا.

فترة التأسيس المنفصل:

وجه يربعام بن ناباط، مؤسس مملكة إسرائيل وأول ملوكها، جهوده إلى تحصين ملكه وتوطيد مؤسساته المستقلة. ولم يرد فى "المقرا" أى معلومات عن نشاط يربعام فى المجالين الإدارى والعسكرى، أما فى مجال الإصلاحات الدينية فقد كثرت التفاصيل حول ماقام به. ولكن لايمكن أن نستنتج إزاء هذا التجاهل أن يربعام لم يهتم إلا بشئون الدين فقط. بل يفترض الرأى الأرجح، أن كاتب سفر الملوك هو الذى ركز اهتمامه على هذا الجانب وحسب من نشاط يربعام، وأشار لتجديدات يربعام ودوافعها بشكل سلبى للغاية: «فاستشار الملك وعمل عجل ذهب وقال لهم. كثير عليكم أن تصعدوا إلى أورشليم. هوذا آلهتك يا إسرائيل الذين أصعدوك من أرض مصر. ووضع واحداً فى بيت إيل وجعل الآخر فى دان. وكان هذا الأمر خطية. وكان الشعب يذهبون إلى أمام أحدهما حتى إلى دان. وبنى بيت المرتفعات وصير كهنة من أطراف الشعب لم يكونوا من بنى لاوى. وعمل يربعام عيداً فى الشهر الثامن فى اليوم الخامس عشر من الشهر كالعيد الذى فى يهودا وأصعد على المذبح...» [الملوك الأول ١٢: ٢٨ – ٣٣].

ولم يسفر البحث حتى اليوم عن تفسير مسألة عجل يربعام. فبالإضافة إلى الوصف الوارد فى سفر الملوك والأهداف المنسوبة ليربعام، من العدل أن نشير كذلك إلى طبيعة العصر والديانة فى الشرق القديم فى ذلك الوقت،

حسبما تتضح من الاكتشافات الأثرية والوثائق، وإلى أهداف مدون سفر الملوك نفسه. وتشير مقارنة جميع المعطيات، فيما يبدو، إلى أن التجديد فى عجل يربعام لم يكن تجديداً كاملاً. فقد عرفت البيئة المحيطة تجسيد الرب، فبينما يستخدم الثور فى الركوب، فإنه يتخذ له قاعدة يرتكز عليها، وحيواناً مقدساً خاصاً به. وينتشر تصوير الإله الجالس على حيوان مقدس فى العقيدة السورية الفينيقية والميزوبوتامية. وتوجد فى الشرق القديم دائماً صورة إنسان يجلس على ظهر ثور مجنح، أو أبو الهول [الكروبيم فى لغة المقرا]. ولكن فى وصف عمل يربعام لايرد ذكر تلك الصورة. ويشهد الواقع على أن يربعام وضع فى المعابد التى أنشأها فى دان وبيت إيل قاعدة يرتكز عليها الإله، ولكنه لم يجرؤ على وضع صورة للإله ذاته. ويمكن تفسير تلك المسألة على ضوء الحقيقة التى تقول أن يربعام أقام مملكته بالاستعانة بالأهداف القبلية المحافظة التى عرفها الشعب، وكان مضطراً إزاء أى تجديد يقوم به إلى أن يفكر بوحى وقوة تلك الأهداف. ولا يوجد تفسير لمحاولة تبرير صنع العجلين بأنها نقل للثور المصرى – أبيس – لإسرائيل. حيث أن هذا التغيير الحاد، بإدخال عبادات وثنية، يعتبر مخالفاً للسلوك القبلى فى إسرائيل.

وقد أدخل يربعام تجديداً آخر وهو الاحتفال بعيد المظال (سُكُوت) فى الخامس عشر من الشهر الثامن، ويعتبر هذا التوقيت متأخراً بالنسبة للعادة فى القدس. ولكن يحتمل أن يربعام قد أحيا عادة قديمة، حيث يتضح من وصف الكهنة بأنهم من «أطراف الشعب» أن يربعام لم يستطع الثقة فى بنى لاوى، الذين كانوا تابعين لأسلوب العبادة المتبع فى هيكل القدس، ولكنهم فى عصر سليمان كانوا يعملون فى وظائف إدارية ترتبط بالبيت الملكى، لذا كانت طبقة الكهنة فى مراكز القداسة عند يربعام من أبناء الطبقات العليا وليسوا من أبناء لاوى [والمقصود بأطراف الشعب صفوة الشعب].

ويفترض أن يربعام أقام النظام الإدارى الذى كان سائداً فى مملكة سليمان، فيما يتصل بتقسيم مناطق الأرض، ولكنه لم يقم مملكة ذات مركز واحد، وكان يبدل قصره بإستمرار، أما عواصم المملكة فكانت شكيم، وفنوئيل، وترصة، ولا نعرف إن كان ذلك بمثابة عودة لعادات قديمة. وبصفة عامة لم يكن يربعام يحاول الفصل بين طبقات الشعب بقدر ماكان يبحث عن سبل ينقاد من خلالها الشعب بأكمله وراءه، ويتضح هذا جيداً بالرجوع إلى ماحدث بعد موت شاؤول.

وقد خاضت مملكة يربعام تجربة قاسية من الناحية السياسية العسكرية فى سنواتها الأولى، حيث أغار شيشنق على المملكة فى السنة الخامسة من حكم رحبعام [ملوك ١٤ – ٢٥]. وتوجد قائمة للمدن التى احتلها على جدران معبد الكرنك، التى حفر عليها اسم حوالى ١٥٠ مستوطنة، ينتمى معظمها لملكة إسرائيل. وقد تم الكشف عن جزء من النصب التذكارى الذى أقامه شيشنق فى مجدو، التي يرد ذكرها فى تلك القائمة. كما احتل شيشنق أيضاً جازر ووادى سوكوت، ووديان بيت شان ويزرعئيل، ثم عاد لبلاده تاركاً وراءه معظم المدن المحصنة فى مملكة يربعام – التى كانت تحت فى حمايته من قبل – دماراً. ولم تصب يهودا من جراء تلك الحملة إلا بضرر طفيف. أما القدس فقد دفع رحبعام لتخليصها جزية باهظة، وأرسل لفرعون مصر كنوز الهيكل وبيت الملك.

وعلى الرغم من الدمار الذى لحق بالبلاد إلا أن حملة شيشنق كانت مجرد مرحلة، حيث ماتت بعد فترة وجيزة من تلك الحملة، ولم تستمر سياسة احتلال فلسطين من بعده. وخصص رحبعام الفترة التالية للحملة لإعادة بلورة وتقوية يهودا. وفيما يبدو أن رحبعام خرج بإستنتاجات من حملة شيشنق ، فوجه نشاطه الأساسى لبناء مجموعة حصون بطول الحدود الغربية

والجنوبية لملكته. وقد احتفظ سفر أخبار الأيام بقائمة مفصلة لتلك الحصون: «وأقام رحبعام فى أورشليم وبنى مدناً للحصار فى يهوذا فبنى بيت لحم وعيطام وتقوع. وبيت صور وسوكو وعدلام. وجت ومريشة وزيف. وأدورايم ولخيش وعزيقة وصرعة وأيلون وحبرون التى فى يهوذا وبنيامين مدنا حصينة» [أخبار الأيام الثانى ١١: ٥ - ١٠]. ولاشك أن إقامة حصون بهذا الأسلوب احتاجت إلى جهد خارق من المملكة الصغيرة المستقلة وفرضت عليها عبئاً شديداً. ولكن يهودا صمدت لذلك، بل وفى نهاية عصر رحبعام، وخاصة فى عصر ابنه أبيا، استطاعت يهودا اجتياح المناطق الشمالية حيث أراضى مملكة يربعام. وكان ضعف مملكة إسرائيل بعد حملة شيشنق هو الذى آثار رحبعام، وابنه أبيا، كى يبدأ حرباً ضد المملكة الشمالية [أخبار الأيام الثانى ١٣: ٣ - ١٩] وحقق أبيا انتصاراً هاماً واحتل جنوب «جبل أفرايم» الذى يضم مركز العبادة «بيت إيل» و«يشنه» التى تقع على الحدود. وقد تسببت الهزيمة الساحقة التى لحقت بمملكة يربعام وفشلها فى الحرب ضد الفلسطينيين، الذين وصلوا حتى جفتون واحتلوها، فى انهيار الأسرة الملكية، التى سقطت بعد موت يربعام بفترة وجيزة، فى فترة ابنه ناداب. واشتعل التمرد ضد بيت يربعام فى معسكر الجند المسيطر على جفتون فى تلك الفترة. وقضى بعشا بن آحيا قائد الجند، الذى ينتمى لسبط يساكر، على بيت يربعام وحكم بدلاً منه [٩٠٦ - ٨٨٣ ق.م].

وقد نجح بعشا أكثر من سابقيه فى بلورة مملكة إسرائيل من الداخل، سواء فى مجال الإدارة وتنظيم المملكة أو فى المجال العسكرى. ولم يكتف باستعادة جنوب جبل أفرايم من يهوذا، بل وأخذ الرامة «لكى لايدع أحداً يخرج أو يدخل إلى أسا ملك يهوذا» [ملوك ١٥: ١٧]. ولكن أسباب الجفاء استمرت بين المملكتين. واتجه آسا إلى «بن هدد بن طبريمون» ملك آرام، وهو

«بن هدد الأول»، فأرسل له هدايا وطلب منه المساعدة [ملوك ١٥: ١٨ - ١٩] وجاء «بن هدد» ليضم إليه المدن المحصنة فى أرض نفتالى فى غرب الجليل: «وضرب عيون ودان وآبل بيت معكة وكل كنروت مع كل أرض نفتالى» [ملوك ١٥: ٢٠]. لقد حلت تلك الهزيمة الساحقة بإسرائيل فى السنة الأخيرة من حكم «بعشا» وكانت وبالاً على بيته، الذى انهار فى عصر ابنه «أيلة».

وقد تكرر ماحدث فى نهاية عصر آل يربعام تلك المرة أيضا، فاشتعل التمرد ضد الملك بعد الهزيمة العسكرية التى منيت بها المملكة. وكان قائد التمرد هو زمرى رئيس نصف المركبات. وورد فى سفر الملوك الثانى ٩:١٦ - ١٠ أن زمرى قضى على أيلة بن بعشا، عندما كان جيش إسرائيل يحارب الفلسطينيين ويجدد الحصار على جفتون. وقد سال لعاب القواد بسبب قوة الجيش، واشتعلت حروب أهلية ونصبت عدة معسكرات قوادها ملوكا لفترة قصيرة، واستمر ذلك لأربع سنوات.

ويفترض أن زمرى اكتسب تأييد جزءا واحدا من الجيش، وهو المركبات، الذين ينتمون لطبقة أبناء النبلاء، وقاد زمرى النصف فقط. وعندما عرف أمر التمرد بين الجند المرابطين بجوار جفتون، اعتلى «عمرى» قائد الجيش الحكم بدلاً من أيلة الذى قُتل. وسارع عمرى وجيشه بالذهاب إلى ترصة وفرض الحصار على المدينة، ومات زمرى فى حريق المدينة المحاصرة. وكان هناك جزء من الجيش، وهو المرابط فى الشمال يحارب آرام، لايعرف عمرى، لذا اختار تقنى بن جينات ملكاً، وربما كان الأخير قائداً للجيش مثل عمرى. وتصارع كل منها على الحكم لمدة أربع سنوات انتهت بموت تقنى وأصبح عمرى ملكاً على إسرائيل بكاملها. واستطاع المنتصر أن يجعل الوضع فى إسرائيل مستقراً فى فترة حكمه القصيرة، إلى الحد الذى جعل من بيته أولى الأسر المستقرة فى الحكم.

فترة الحلف الوثيق:

لاتوجد معلومات وافية حول فترة حكم آسا الطويلة [٩٠٨ - ٨٦٧ ق.م]. ولعل أكثر أعماله التى حظيت بالتقدير فى العهد القديم هو الإصلاح الدينى الذى قام به. ويعبر سفر الملوك عن هذا الإصلاح [١٥: ١١ - ١٣] بأنه هو الذى ألغى سلطة معكة والدته، أى أنها لم تعد ذات أهلية فى الحكم. وهناك تبرير عقائدى واضح لهذا التصرف، فقد عوقبت معكة لأنها صنعت صنماً لأشرا وهى إلهة معروفة لدى أهل صور، وربما تنتمى معكة لأسرة ملوك أجانب. غير أن سفر أخبار الأيام الثانى [١٥: ١٠-١٦] يذكر أن هذا العمل كان جزءاً من حركة إصلاح شاملة قام بها آسا فى السنة الخامسة عشرة لحكمه. حيث جمع آسا الشعب فى القدس وأدخلهم فى عهد كى «يطلبوا الرب إله آبائهم» ومن الصعب التوصل إلى مجال الإصلاح الفعلى من خلال هذه القصة المتأخرة، ولكن يتضح أنه من خلال المصدرين يبدو أن آسا قد حاول محو التأثيرات الكنعانية التى تسعى إلى التوافق الدينى، والإعلاء من شأن عبادة الرب فى القدس.

وحدثت فى عهد يهوشا فاط بن آسا ملك يهودا وآحاب بن عمرى ملوك إسرائيل بعض التغييرات الحاسمة سواء فى مجال علاقة المملكتين ببعضهما أو بجيرانهما، أو فى مجال الحكم الداخلى العقائدى والإدارى. وقد أبدى هؤلاء الملوك ذكاء فى إدراكهم أنه يجب وضع حد للصراع العسكرى بين المملكتين الشقيقتين. أن وجود حلف وثيق بينهما من شأنه أن يعود بالفائدة على كل منهما فى المجال السياسى والاقتصادى. وازدادت قوة هذا الحلف بزواج يهورام بن يهوشافاط من عتليا ابنة عمرى [وفى رأى آخر هى ابنة آحاب وإيزابيل]. ويشير هذا الحدث إلى نهاية فترة النزاعات والحروب بين المملكتين الشقيقتين. وكان ذلك بمثابة تنازل من ملك يهودا عن هدفه

المرتجى، ألا وهو استعادة حكمه للملكة الموحدة. إلا أن مجرى الأحداث قد أكد هذا الهدف، حيث أدى الحلف بين يهودا وإسرائيل إلى حلول السلام والازدهار في كلتا المملكتين.

استطاع يهو شافاط بفضل السلام والاستقرار أن يستمر في إجراء إصلاحات عميقة في يهودا. ويحتفظ سفر أخبار الأيام الثانى ١٧ بتفاصيل تلك الإصلاحات. وجاء فيها أن يهوشافاط عين قضاة في مدن يهودا المحصنة وأقام مؤسسة قضائية عليا في القدس، اشترك فيها اللاويون والكهنة وشيوخ القبائل. وقد أدى هذا الإصلاح إلى إلغاء دور رؤساء الطائفة في القضاء. وفرض سيادة موظفي الملك حتى في شئون القضاء. وتذكر نفس القصة أيضا أن يهوشافاط قام بإصلاح ديني، فأزال المذابح وعمل على نشر الشريعة. ولكن من الصعب معرفة مدى تلك الأعمال حيث يتسم السفر بطابع سفر أخبار الأيام. ولا تتضح الأسس التى كان القضاة يحكمون بها ومن الصعب أن نفترض أنهم استخلصوا الحكم من كتاب مدون. بل الأقرب للصواب أن العادات المحلية والتقاليد الشفهية قامت بدور حاسم في تشكيل نظم القضاء وهناك إشارة مرجعية لهذا الأمر في زمن داوود، حيث وضع شريعة في أمرما: «لأنه كنصيب النازل إلى الحرب نصيب الذى يقيم عند الأمتعة فإنهم يقتسمون بالسوية. وكان من ذلك اليوم فصاعداً أنه جعلها فريضة وقضاء لإسرائيل إلى هذا اليوم» [صموئيل ٣٠:٢٤]. وإذا كان الأمر كذلك، فإن العصور التى سبقت بلورة الشريعة المكتوبة بشكل نهائي، مثلما كان الحال في العصور التالية لها، تشهد وجود الشريعة الشفهية مصاحبة للمكتوبة وأحيانا ماتكون سابقة عليها.

وتجدر الإشارة إلى أن النظم القضائية في بلاد الرافدين، على سبيل المقارنة، وعلى رأسها «قانون حمورابى»، كانت بمثابة إطار فكرى وحسب

أكثر من كونها قاعدة فعلية للأحكام المتعلقة بالحياة اليومية. وقد استخدمت في كافة العصور العادات المحلية المتأصلة هناك، وفقاً لتقاليد الشيوخ التي تنتقل من جيل لآخر.

ويفترض أن يهوشافاط هو الذي قسم يهودا إلى اثني عشر إقليماً، وهناك صدى لهذا التقسيم في الإصحاح الخامس عشر من سفر يشوع [في رأي ب. ميزر]. وتذكر الرواية الواردة في أخبار الأيام الثاني: ١٧ إقامة الجيش وتعضيده في زمن يهوشافاط: «وجعل جيشاً في جميع مدن يهودا الحصينة» كما تذكر أنه بنى «حصوناً ومدن مخازن». وقد ساهمت أعماله في مجال تنظيم الدولة في زيادة قوة الملك ومكانة الشريعة، والهيكل، وعاصمته القدس. وتعطي تلك المصادر انطباعاً بأن هذه الأعمال ساعدت على تقوية يهودا وبلورتها.

أما في مملكة إسرائيل، فإن فترة عمري [٨٨٢ – ٨٧١ ق.م]، وبالتحديد فترة حكم ابنه آحاب [٨٧١ – ٨٥٢ ق.م] تعتبر عصراً جديداً. فمثلما فعل سليمان في عصره، قام عمري بعمل معاهدة وثيقة مع إيتبعل ملك صيدون الذي أسس أسرة جديدة في صور، ووصلت صور في عصره إلى قمة الازدهار في مجال التجارة وإنشاء مراكز تجارية في ماوراء البحار. وحسبما جرت العادة في ممالك تلك الفترة في المناطق المجاورة تم تعضيد تلك المعاهدة بعلاقة مصاهرة ملكية، فتزوج آحاب بن عمري من إيزابيل ابنة إيتبعل. وفي المجال العسكري حقق عمري نجاحاً في حربه التي خاضها في جنوب عبر الأردن وقضى على موآب في فترة حكم كمشيت بن ميشع. ويحكي نقش ميشع المشهور تلك القصة: «ويضايق موآب فترة طويلة ويثير غضب كموش في أرض، ويعقبه ولده فيقول هو أيضا: أضايق موآب». ومن هنا يتضح أن هزيمة موآب كانت ساحقة، وأن سيطرة إسرائيل على موآب

استمرت لسنوات قليلة، وتم ذكرها فى نهاية حكم ميشع بإعتبارها فترة استعباد طويلة.

ولايتضح مدى نجاح عمرى في شمال عبر الأردن ضد الآراميين، وقد انعكست مسألة العلاقات بين آرام وإسرائيل فى زمن عمرى من خلال ماورد فى الملوك الثانى ٢٠: ٣٤ حول المفاوضات بين آحاب وبن هود الثانى بعد هزيمة الأخير أمام إسرائيل. وتذكر الفقرة: «وقال له إنى أرد المدن التى أخذها أبى من أبيك وتجعل لنفسك أسواقاً فى دمشق كما جعل أبى فى السامرة». [الملوك الثانى٢٠: ٣٤]. وإذا كان هذا الكلام قد قيل حقاً لآحاب على لسان بن هود[وليس كما يرى البعض أنه على لسان آحاب إبن هود]، فإن معنى ذلك أن الآراميين كانوا قد انتصروا فى الماضى على عمرى والد آحاب وجعلوا فى السامرة أسواقاً تجارية حرة. ولكن إذا كان آحاب هو صاحب تلك الكلمات، يصبح المعنى معكوساً، وتشهد عندئذ على انتصار عمرى على بن هود وضمه لبعض المدن. أما أبرز الدلائل على قوة عمرى فهو تأسيس عاصمة جديدة للملكة، وهى السامرة، والتى بنيت فى منطقة يساكر فى "هرأفرايم" (جبل أفرايم)، وربما تكون تلك هى مسقط رأس أسرة عمرى. وقد أخذ اسم السامرة [أو شومراين مثلما يكتب فى الآرامية والآشورية] من اسم مستوطنة قديمة كانت موجودة فى نفس المكان، وكانت تسمى بنفس الاسم. ويتسم موقع السامرة بعدة سمات، حيث بنيت بجوار طرق التجارة الهامة الموصلة إلى سوريا وصور. ويعتبر إنشاء عاصمة جديدة رمزاً واضحاً لاستقلالية عمرى الذى أعلن بذلك عن عدم رغبته فى البقاء بإحدى المدن المقدسة القديمة فى مملكة إسرائيل. ويتشابه هذا الفعل من عدة جهات مع اختيار داوود للقدس كعاصمة ملكية. ولا عجب إذن فى أن اسم «بيت عمرى» كان هو الاسم الرسمى لملكة إسرائيل فى المصادر الآشورية، حتى بعد انهيار حكم أسرة عمرى.

ويبدو أن آحاب قد شارك في السنوات الأخيرة لحد
وسار على نفس الخطى السياسية التي بدأها أبوه وطورها. وأ
مملكة إسرائيل في عهده إحدى الممالك الهامة في المنطقة. وتش
الاكتشافات الأثرية إلى أن فترة آحاب قد شهدت ازدهاراً اقتصادياً في
إسرائيل بعد تطوير التجارة والصناعة وتوسيع حركة تمدين الريف
والاتساع الإقليمي.

وقد أدت تلك المعاهدة الوثيقة مع يهوشافاط ملك يهودا إلى تقوية موقف المملكتين، وزيادة نشاطهما في البيئة المحيطة. وبهذا أصبحت إسرائيل مركزاً اقتصادياً وسياسياً يربط يهودا بطرق التجارة التي تمر بها، مع مملكة صور. وربما تكون تلك المعاهدة واحتياجاتها الاقتصادية هي ما حفزت يهوشافاط على معاودة السيطرة على أدوم، مثلما كان في عصر سليمان، لكي يسيطر على طرق التجارة العربية بكل ماتعود به من منافع عليه، وأصبح «الطريق الرئيسي» الموصل من عبر الأردن الشرقي إلى شمال بلاد العرب تحت سيطرة يهودا وإسرائيل. ويحتمل أن الصراع على السيطرة على طرق التجارة في عبر الأردن هو الذي أدى لاندلاع الحروب بين آرام وإسرائيل. ويتضح أن زمن تلك الحروب كان في بداية فترة حكم آحاب وليس في نهايتها. وكانت الغلبة في تلك الحروب لبن هدد في البداية. وبعد هذا الانتصار قام آحاب بمبادرة دبلوماسية تعكس فهماً للمخاطر الكامنة في الأفق سواء بالنسبة له ولبن هدد، فأبرم معاهدة مع بن هدد، وأصبح كلاهما - بمشاركة حماة - عنصراً عسكرياً متقدماً. ولاشك لدينا الآن، في أن هذا التقارب الغريب بين العدوين التاريخيين يرجع إلى ظهور آشور في القرن التاسع كقوة عظمى عدوانية تشكل خطراً على وجود ممالك سوريا وإسرائيل معاً.

التحدى الآشورى:

أثار ملوك آشور آشور نصربال الثانى [٨٨٣ - ٨٥٩] وابنه شلمناصر الثالث [٨٥٩ - ٨٢٤] الرعب فى كل ممالك سوريا، عن طريق المعارك الحربية التى كانوا يقومون بها سنوياً غرب الفرات. وقد ظهرت الأهداف الاستعمارية للحملات الآشورية فى عصر آشور نصر بال الثانى، الذى وصف أعماله الوحشية تجاه الشعوب التى استعمرها فى كتابات مفصلة. ولايوجد مثيل لهذه الكتابات المفصلة فى القوائم السنوية لملوك آشور اللاحقين. وكان هدف ملوك آشور هو إلقاء الرعب فى قلوب ملوك البلاد الواقعة غرب الفرات، وهى الدول الحيثية الجديدة، والآرامية فى شمال بلاد الرافدين وشمال سوريا.

واعتمدت قوة آشور على الناحية العسكرية، حيث أسس هذه القوة ملوك آشور فى القرن التاسع، بعد أن طوروا تقنيه الحصار وجندوا جيش مركبات قوى. وكانت حملات آشور نصربال تهدف لجلب الغنائم من الممالك الثرية فى شمال سوريا، وبخاصة الفضة، والذهب، ووسائل الرفاهية، وكذلك المواد الخام المستخدمة فى بناء العاصمة كلح [نمرود]، وتم سبى كثير من السبايا فى تلك الحملات، اقتيد بعضهم إلى آشور وأعيد البعض الآخر إلى العاصمة.

واستمر شلمناصر الثالث ابن آشور نصربال فى تطوير سبل التوسع الآشورى. وعندما تولى شلمناصر الثالث الحكم بدأ فى تنظيم حملات عسكرية غرب الفرات، ووجد أمامه وضعاً مختلفاً عن هذا الذى كان موجوداً فى عهد والده. وكانت هناك معاهدتان تواجهان آلة القوة العسكرية الآشورية، معاهدة ملوك شمال سوريا وجنوب الأناضول [بلاد الروم]، والمعاهدة المذكورة فى كتابات شلمناصر«ملوك حيتى (سوريا) الاثنى عشر وشاطئ البحر» والتى

كان على رأسها دمشق وحماة، ويذكر بعضها مباشرة اسم أحاب الإسرائيل. أما باقى المشاركين فى المعاهدة فهم مدن فينقيا، والعرب [وهو أول ذكر لهم فى الوثائق التاريخية]، وإمدادات عسكرية مصرية رمزية. ويحتفظ نصب تذكارى يرجع للسنة السادسة من حكمه (٨٥٣) بقائمة الحلفاء كاملة، وتعرف تلك القائمة باسم «الحلفاء» والتى تصف أيضا حرب آشور مع أصحاب المعاهدة فى شمال سوريا، وتنص على:

«خرجت من الفرات واقتربت من حلب. خاف أهل حلب من محاربتى. وأخذت منهم ضرائب من فضة وذهب. وقدمت القرابين لأدد إله حلب. خرجت من حلب وتوجهت إلى مدينتى إرحولينى فى حماة. وضممت كل من أدينو، برجا، أرجنا. وأخذت الغنائم، والثروات، وأدوات الهيكل، وأحرقت المعابد.

وخرجت من أرجنا إلى قرقر. ودمرتها، وأحرقتها.

١٢٠٠ مركبة ١٢٠٠ فارس ٢٠٠٠٠ مشاة لهدد عزر من أرض دمشق

٧٠٠ مركبة ٧٠٠ فارس ١٠٠٠٠ مشاة لإرحولينى من حماة

٢٠٠٠ مركبة ٧٠٠ فارس ١٠٠٠٠ مشاة لإرحولينى من حماة

٢٠٠٠ مركبة ٧٠٠ فارس ٥٠٠ مشاة من أهل جقل

٢٠٠٠ مركبة ٧٠٠ فارس ١٠٠٠ مشاة من مصر

١٠ مركبات ٧٠٠ فارس ١٠٠٠٠ مشاة من أهل عزق

١٠ مركبات ٧٠٠ فارس ٢٠٠ مشاة من متن بعل الأرودى

١٠ مركبات ٧٠٠ فارس ٢٠٠ مشاة من أهل أوسنو

١٠ مركبات ٧٠٠ فارس ١٠٠٠٠ مشاة من أدونى بعل السيانى

١٠ مركبات ٧٠٠ فارس ١٠٠٠٠ جمال من جندبو العربى

(٠٠٠) مشاة من بعشا بن راحوب العمونى

وقد جلب هؤلاء الملوك الإثنى عشر لمساعدته، وانتظموا ضدى فى معركة حاسمة. وبفضل القوة التى منحها لى الإله آشور، وبفضل الأسلحة الفتاكة التى منحها لى الإله نرجل حاربتهم. وهزمتهم من قرقر وحتى جلزو. وضربت بالسيف ١٤٠٠٠ من جيوشهم، وملأت السهل بجثثهم المتناثرة».

وتوجد دلائل على أن إسرائيل تفوقت على باقى الحلفاء من حيث جند المركبات، مما يدل على القوة العسكرية والاقتصادية التى كانت عليها إسرائيل قبيل تلك المعركة.

ولم يحقق ملك آشور فى معركة قرقر أى تقدم، لذا عاد لمحاربة «الملوك الاثنى عشر» فى السنوات التالية: ٨٤٩، ٨٤٨، ٨٤٥، ولكن لم ترد إلينا مصادر مفصلة كتلك السابقة، وتتحدث الوثائق عن تلك الحروب بشكل موجز للغاية. ولهذا لانعرف ما إذا كانت مملكة إسرائيل قد اشتركت فى تلك الحروب. وعلى أية حال، وفقا لما ورد فى سفر الملوك الأول: ٢٢ لقى آحاب حتفه فى معركة اشترك فيها مع يهوشافاط فى جلعاد ضد بن هدد الآرامى. وتشهد المعطيات التاريخية المقرائية أن زمن هذه المعركة كان عام ٨٥٢ ق.م أى بعد عام من معركة قرقر، حيث كانت المعاهدة مازالت قائمة بين إسرائيل وآرام. ونقضت تلك المعاهدة بمبادرة من آحاب، حسب ماورد فى المقرا، ولكن هناك شك فى أن تكون تلك المعاهدة قد أبرمت من جديد فى عهد يهورام بن آحاب عام ٨٤٩ ق.م، أو أن تكون إسرائيل قد اشتركت حقاً فى حلف الملوك

الاثنى عشر من سوريا والساحل.

الثورة الدينية الإجتماعية — تمرد ياهو:

أدت العلاقات الاقتصادية الوثيقة بين إسرائيل ومدن فينقيا، واشتراكها في المعاهدات العسكرية مع «ملوك سوريا والساحل»، إلى فتح المجال للتأثيرات الثقافية والدينية لثقافة وديانة كنعان. وازداد هذا الاتجاه، بلاشك، بسبب زواج آحاب من إيزابيل ابنة ملك صور. ولهذا ازدادت أواصر الصداقة مع صور، وتجلى ذلك في إدخال عبادة البعل إلى البلاط الملكى. وأنشئ هيكل للبعل في السامرة، خدم فيه كهنة بعل من صور. ويتضح أن كثير من الطبقات العليا في الشعب، وبخاصة رجال البلاط والقادة قد شاركوا في تلك العبادة. وبطبيعة الحال، ساهمت محاولات التمدين وارتفاع مستوى المعيشة لطبقة التجار وموظفى الملك فى اشتعال الصراعات الإجتماعية بين الطبقات الصاعدة والدوائر المحافظة. ويفترض أن اشتعال الصراعات فى المجتمع كان موازياً لازدياد الفجوة الثقافية، وكذلك لازدياد الصراعات الدينية. ورغم أننا لا نملك وصفاً صريحاً لذلك في المصادر المقرائية، إلا أنها ليست مصادفة أن يعبر عن الصراع بين الأنبياء والحكام فى تلك الفترة في قصة نابوت هايزرعئيلى. ويظهر من خلال وصف هذا الحدث مدى ثبات التقاليد البطريركية فى إسرائيل، والتى لم تسمح حتى للملك أن يلغى حق إنسان في ملكيته دون رغبته [وكان هذا هو الحال في الممالك الكبرى آشور وبابل].

ولم يجرؤ آحاب نفسه على المساس بتلك التقاليد المقدسة الخاصة بحق الفرد في أرضه. وفى مقابل ذلك تستنكر القصة غياب المؤسسات الجماعية، وظهر شيوخ الطائفة بصورة الضعفاء الفاسدين، الذين لا يتورعون عن الحكم

القضائى بالإعدام بأمر الملكة إيزابيل. وتصف القصة شخصية تلك الملكة الصورية وموقفها من حقوق الإنسان الطبيعية، بشكل درامى مختصر وحاد للغاية. فهى تسخر من الملك الضعيف، وتعتبر حقوق الفرد رادعاً لرغباتة: «أأنت الآن تحكم على إسرائيل؟... أنا أعطيك كرم نابوت اليزرعيئلى» [الملوك الأول ٧:٢١]. واستغلت إيزابيل بوقاحة مفهوماً قضائياً قديماً متعارف عليه.، يفرض عقوبة الإعدام على من يجدف على الرب أويسب الملك، وأشارت على شيوخ الشعب بمحاكمة نابوت والحكم عليه بالإعدام، وبالتالى مصادرة ممتلكاته، وفقاً لشهادة زور التى تمت بتدبيرها وبمعرفة الملك والقضاة.

وتظهر حيوية وقوة الحركة الدينية من خلال تلك المواجهة الحاسمة، ولتصبح لسان العدل واحترام حقوق الإنسان، وتوجيه الصرخة إلى الحاكم المستبد على لسان إيليا التشبى: «هل قتلت وورثت أيضا؟! [الملوك الأول ١٩:٢١].

ووصلت المواجهة بين النبوة والحاكم إلى ذروتها فى قضية البعل. وطبقا لما ورد فى الإصحاحات ١٨، ١٩ فى سفر الملوك الأول، والتى يرجع مصدرها إلى أبناء الأنبياء، حارب إيليا معركته الفردية ضد الملكة وبلاطها، ووضع زمام الشعب فى هذا الصراع خياراً واحداً «حتى متى تعرجون بين الفرقتين. إن كان الرب هو الله فاتبعوه. وإن كان البعل فاتبعوه» [ملوك ٢١:١٨]. ومن خلال هذه القصة نستمع للمرة الأولى إلى لهجة السخرية من عبادة الأوثان: «سخر بهم إيليا وقال: ادعو بصوت عال لأنه إله. لعله مستغرق أو فى خلوة أو فى سفر أو لعله نائم فينتبه» [ملوك ٢٧:١٨]. وظهر هذا الموضوع مرة أخرى فى فترة النبوة الكلاسيكية [أشعياء

١٢:٢٤- ١٥].

غير أن قوة الأنبياء لم تصمد فى تلك المرحلة وانتهت الحركة بالفشل، ووصلت إلى حد الأزمة التى كانت وقتية فحسب. وعلى الرغم من فشل الحركة، لم ينس الشعب مبادئها، وصار لها مؤيدون حتى فى بلاط الملك، مثل القائد عوقويا الذى أخفى أبناء الأنبياء فى أثناء المطاردات القاسية التى قامت بها إيزابيل. ولاعجب إذن فى أنه لم يمر وقت طويل، حتى استعادت حركة النبوة قوتها فى عصر يهورام بن آحاب [٨٥١ - ٨٤٢ق.]. وحينئذ صمد أبناء الأنبياء بشكل علنى أمام سياسات نظام الحكم. ولم يكن إيليا زعيماً لتلك الحركة فى تلك الأيام، بل تلميذه ووريثه الروحانى أليشع النبى.

وكانت الحروب العديدة التى خاضها يهورام أحد البواعث الرئيسية لتمرد الشعب ضد الملكية، حيث لم تثمر تلك الحروب إلا هزائم وانكسارات. وبعد موت آحاب فى حربه ضد بن هدد، خرج يهورام حوالى عام ٨٥٠ ق.م فى معركة ضد موآب لقمع تمرد ميشع ملك موآب. واشترك فى تلك الحرب يهوشافاط ملك يهودا، إلا أنها لم تحقق أى نجاح. ورغم أن الحلفاء ضيقوا الخناق على موآب إلا أنهم لم يستطيعوا احتلالها. وعندما قدم ميشع بكره قربانا لإلهه فى حفل مهيب على أسوار المدينة المحاصرة، ازدادت قوة المؤابيين وانسحبت جيوش إسرائيل ويهودا [*الملوك الثانى* ٣:٢٧].

وقدحلت هزيمة أخرى فى حرب إسرائيل وآرام، ففى عام ٨٤٣ ق.م تغيرت الأسرة الحاكمة فى آرام، عندما مات بن هدد الثانى أو قتل، وتولى الحكم قائد جيشه حزائيل. ووجد يهورام الوقت ملائماً فى أثناء أزمة الحكم فى دمشق، كى يشن حرباً على آرام، ويستعيد الجولان وباشان التى كانت

فى حوزة آرام منذ عهد بن هدد الأول. واشتعلت المعركة فى جلعاد، التى كانت تحد جنوب المناطق الآرامية فى عبر الأردن، وضرب جيش إسرائيل وأصيب يهورام.

وقد أدت تلك الهزائم التى منى بها الملك فى معاركة الخارجية وحملاته العسكرية، إلى تمرد جيشه بزعامة ياهو بن نمشي، وهو أحد قادة جيش يهورام. وطبقا لقصة سفر الملوك الثانى [ملوك:٩] كان النبى اليشع هو المحرض على هذا التمرد. ووصل مبعوث اليشع، وهو أحد أبناء الأنبياء، إلى معسكر الجيش فى رامة جلعاد ومسح ياهو ملكاً وأمره باسم الرب أن يدمر بيت آحاد للانتقام لدمار الأنبياء التى سفكتها إيزابيل. وعندما علم باقى قادة الجيش بالأمر «بادركل واحد وأخذ ثوبه ووضعه تحته على الدرج نفسه وضربوا بالبوق وقالوا قد ملك ياهو». [ملوك: ٩ - ١٣].

وذهب ياهو على رأس جيش إلى يزرعيئل، حيث يوجد الملك، وقتل يهورام، ثم ذهب إلى السامرة وقتل الملكة إيزابيل وكل بيت آحاب، بل وقتل أيضا أحزيا ملك يهودا الشاب ابن عتليا أخت يهورام. ووصل التمرد إلى ذروته بإبادة جميع عابدى البعل وتدمير معبد البعل. واستعان ياهو فى ذلك بأبناء ريكاب المتطرفين، الذين يتمسكون بعبادة الرب وطهارتها، ويعيشون وفقا لأسلوب الحياة فى الصحراء [ويعتقد أن إيليا التشبى كان ينتمى إليهم]. لقد تحقق هدف كل من ضايقهم بيت آحاب، وفى مقدمتهم أبناء الأنبياء. وتم القضاء على عبادة بعل صور نهائياً ولم تعد لإسرائيل ثانية. ويعتبر تمرد ياهو من هذا المنطلق بمثابة مفترق الطرق فى العلاقة بين مملكتى إسرائيل ويهودا.

(جـ) فترات الانحطاط والازدهار، ودمار مملكة إسرائيل (٨٤٢ - ٧٢٠ ق.م)

فترة الانحطاط:

نجح تمرد ياهو، كما ذكرنا من قبل، فى إزالة التأثيرات الكنعانية من العبادة والثقافة، ولكن نتائج هذا التمرد حلت مأساة لكل من ويهودا معاً.

حيث بدأت فترة الانحدار منذ عهد ياهو، حيث تعتبر من أخطر الفترات فى تاريخ المملكتين، واستمرت حتى عام ٨٨٠ ق.م تقريباً.

وحسبما يحكى سفر الملوك الثانى [٩: ٢٧ - ٣٣]، قتل فى هذا التمرد كل من إيزابيل زوجة الملك وآحزيا ملك يهودا. وقد تسببت هذه الأحداث الدرامية فى نتائج سياسية بعيدة المدى، حيث ألغيت المعاهدة الثلاثية التى أبرمت فى عهد آحاب ويهوشافاط. وأصبحت مملكة إسرائيل منذ الآن فصاعدا وحيدة أمام عدوها التاريخى آرام دمشق، التى اعتلى الحكم فيها مؤسس أسرة جديدة، وهو حزائيل قائد جيش بن هدد، وكان حاكما واسع الحيلة وطموحا نجح فى تحويل ارام دمشق إلى مملكة كبرى.

وكان تخفيف العداء بين إسرائيل وآرام وبين آرام وحماة، والذى عبرت عنه معاهدة «الملوك الإثنى عشر وساحل البحر»، هو القوة التى ضمنت استقرار المنطقة فى السنوات الأخيرة من حكم آحاب، ومعظم عهد يهورام. غير أنه وفقا لعادة تلك الفترة كانت المعاهدة قائمة على مبايعة بين الملوك وذرياتهم. وبطبيعة الحال، وبتعاقب الأسر الملكية، سواء فى آرام أو فى إسرائيل، زال أثر المعاهدة، مما فتح ثغرة لشلمناصر الثالث ملك شور كى يقتحم المنطقة ويحتل الدول القائمة بها. وفى عام ٨٤١ق.م أغارت آشور على آرام ومنى الملك حزائيل بالهزيمة، ووصل جيش آشور إلى «هاحوران»، وانتقل

من هناك إلى منطقة تسمى «هربعل روش» فى لغتهم، وربما تكون جبل الكرمل. وأخذ شلمناصر فى طريقه جزية من ملك صور ومن ياهو ملك إسرائيل، الذى يسمى فى الكتابات الآشورية «ياهو بن عمرى»، أى أنه حاكم مملكة «بيت عمرى». ويفترض أن الهدية التى قدمها ياهو لآشور، والتى ظلت صورتها باقية على «المسلة السوداء» الشهيرة، هى بالفعل الهدية التى قدمت عام ٨٤١ ق.م.

وترك شلمناصر جنوب سوريا وفلسطين بعد بضع سنوات من تلك الحملة، واتجه إلى جنوب الأناضول [بلاد الروم]. ومنذ ذلك الحين أزدادت قوة آرام دمشق، وأصبحت مهيمنة على وسط وجنوب سوريا وكذلك على شمال سوريا بعد موت شلمناصر. وقد أرسى بنهدد الثالث ابن حزائيل قواعد تلك الهيمنة.

احتل حزائيل جلعاد فى عهد ياهو، من باشان وحتى وادى أرنون، وأخضع كل من عمون وموآب وأدوم لآرام، ونظم حملة عسكرية عام ٨١٤ ق.م تقريباً فى جميع تخوم إسرائيل، وأخذ جزية ضخمة من ملك يهودا، ووصل حتى جت الفلسطينيين. ويحتمل أنه فرض سيطرته على أرض الفلسطينيين بكاملها. وحدث ذلك فى السنة الأخيرة من حكم ياهو.

وأما عهد يهو أحاز بن ياهو [٨١٤ - ٨٠٠ ق.م]، فكان من أكثر فترات الانحطاط فى تاريخ مملكة إسرائيل. حيث فرض كل من حزائيل وابنه بن هود سلطانهما فعلياً على معظم تخوم مملكة إسرائيل، وأصبح يهو أحاز تابعاً لآرام. ويعكس سفر الملوك الثانى [١٣ - ٧] تدهور إسرائيل: «لأنه لم يبق ليهو آحاز شعباً إلا خمسين فارساً وعشر مركبات وعشرة آلاف راجل لأن ملك آرام أفناهم ووضعهم كالتراب للدوس».

وتظهر فترة الانحطاط كذلك من خلال مجموعة قصص أليشع الواردة في سفر الملوك الثاني الإصحاحات الخامس والسابع، وإن لم يذكر يهود أحاز بإسمه، فلاشك أنه كان المقصود بقوله «ملك إسرائيل»، الذي أُمر بعلاج نعمان رئيس جيش آرام من البرص، ووقف عاجزاً أمام حملات السلب الكثيرة التي قام بها الارامـيون على الأرض [الملوك الثاني ٦:٥، ٦:٨ - ٢٣]. وتحمل تلك القصص صدى حقيقي لمدى خضوع ملك إسرائيل للملك آرام في تلك الفترة. ويرى حزقيال كونعيمان أن فترة الخضوع لآرام تظهر أيضا في النبوءات الخاصة بالأغيار في بداية نبوءات عاموس [عاموس ١-٣].

ويتضح، حسب رأى كونغيمان، أن تلك النبوءة سابقة لعاموس، وهي تحمل صدى لوحشية الآراميين «لأنهم داسوا جلعاد بنوارج من حديد» [عاموس ٣:١] . كما يتهم آدوم «لأنه تبع بالسيف أخاه وأفسد مراحمه وغضبه إلى الدهر يفترس وسخطه يحفظه إلى الأبد» [عاموس ١١:١]، وتتهم هذه النبوءة أبناء عمون «لأنهم شقوا حوامل جلعاد لكي يوسعوا تخومهم» [عاموس ١٣:١]، وهذه النبوءة تذكر للشعوب المجاورة أفعالها التي حاولت في تلك الأيام الاستيلاء على الاستيطان الإسرائيلي من عبر الأردن. وقد تم خلاص إسرائيل من الآشوريين هذه المرة بأسلوب مخالف،حيث استأنف أدد نيراري الثالث [٨١٠ - ٧٨٢ ق.م] الحملات الحربية الآشورية غرباً، وعقد العزم على كسر السيادة الآرامية الكبرى في أنحاء سوريا وأرض فلسطين. وحارب آرام عدة مرات، ونجح عام ٧٩٦ في إلحاق هزيمة ساحقة بملك دمشق، وتلقى منه جزية ضخمة داخل عاصمته دمشق. ومنذ ذلك الحين فصاعداً بدأ تدهور آرام دمشق كقوة عظمى. ولاشك في أن هزيمة دمشق على يد أدد نيراري هي التي أدت لكسر النير الآرامي عن إسرائيل. وقد أشار العهد القديم لهذه الأحداث كمجرد صدى بعيد فحسب: «وأعطى الرب

إسرائيل مخلصاً فخرجوا من تحت يد الأراميين». [الملوك الثانى ١٣:٥].

وقدأخذ موقف إسرائيل منذ ذلك الحين يزداد قوة، حتى أنها نجحت فى عهد يوآش بن يهو أحاز [٨٠٠ - ٧٨٤ ق.م] فى استعادة جزء كبير من أراضيها التى كانت بحوزتها فى الماضى:

«وأخذ المدن من يد بنهدد بن حزائيل التى أخذها من يد يهو أحاز أبيه بالحرب. ضربه يوآش ثلاث مرات واسترد مدن إسرائيل». [ملوك ١٣: ٢٥].

وكانت جماعة الأنبياء، وعلى رأسهم أليشع الذى كان شيخاً معجزاً، هى التى شجعت ملك إسرائيل للقيام بحملة تحرير قومية، وحرب إبادة آرام. قال الشيخ [أليشع]: «سهم خلاص للرب وسهم خلاص من آرام فإنك تضرب أرام فى أفيق إلى الفناء». [الملوك الثانى ١٣:١٧]. ويطلب النبى من ملك إسرائيل بأسلوب رمزى أن «يضرب خمس أوست مرات». [الملوك الثانى ١٣:١٩].

وقد مرت يهودا بتغييرات بعيدة المدى فى فترة السيادة الآرامية. فعند موت أخزيا [٨٤٢ ق.م] تولت أمه عثليا مقاليد الحكم، وأبادت كل ذرية الملك وفقا لما ورد فى سفر الملوك الثانى الإصحاح [١١] كى تدعم حكمها. ومثلما فعلت إيزابيل، أدخلت عثليا عبادة بعل صور إلى القدس حيث كانت منتشرة فى أسرة آحاب، وبنت معبداً للبعل فى القدس، قام بالكهانة فيه رجل من صور، كما يتضح من اسمه «متان». ويرد ذكر تسلسل الأحداث التى وضعت نهاية لحكم عثليا تفصيلياً وباستفاضة فى نفس المصدر، وفى مصدر مقابل [أخبار الأيام الثانى: ٢٣]. وطبقاً لما ورد فى سفر الملوك الثانى [١١:٢] أخذت أخت أخزيا يوآش وخبأته، وهو أصغر أبناء الملك، وظل مختبأ لست سنوات. وفى السنة السابعة تم تدبير مؤامرة ضد عثليا تزعمها الكاهن يهو

ياداع. وتكشف هذه القصة بعض التفاصيل عن القوى الاجتماعية والبنية العسكرية في مملكة يهودا في هذه الآونة. وطبقاً لما ورد في أخبار الأيام الثاني [٢:٢٣]، اتفق يهو ياداع مع رؤساء المئات، وهم الذين اشتركوا بصفة رئيسية في المؤامرة [وعلى مايبدو أنهم من كانوا يعملون في كهانة الهيكل]، وكذلك «السُعاة» وهم الجند الذين كانوا يقومون بدور القسم الذي: «يدخلون في السبت يحرسون حراسة بيت الملك» [الملوك الثاني ١١:٥].

وقد قُتلت عثليا وقام يهوياداع بتنصيب يوآش في الهيكل في احتفال علني مؤثر. ويحتمل أن قصة وصف تنصيب الطفل يوآش ملكاً، كانت هي الطقوس المعتادة في تنصيب ملوك يهودا من بعد سليمان. فلقد وضعوا عليه « التاج وأعطاه الشهادة فملكوه ومسحوه وصفقوا وقالوا ليحي الملك». [الملوك الثاني ١١:١٢] وفي نفس الوقت كان « الملك واقفاً على المنبر حسب العادة والرؤساء ونافخو الأبواق بجانب الملك وكل شعب الأرض يفرحون ويضربون بالأبواق» [الملوك الثاني ١٢:١٤]. وقد تأكدت ملكية يوآش بواسطة المعاهدة التي أبرمت بين الرب والملك والشعب. وتم وصف هذه المعاهدة في القصة باعتبارها معاهدة مزدوجة، فهي من ناحية بين الشعب وإلهه «ليكون شعب الرب»، ومن ناحية أخرى «بين الملك والشعب» [ملوك ١١:١٧] ولقد ظهر «شعب الأرض» أثناء تنصيب يوآش بالقوة الجسدية حيث اشترك في حدث الانقلاب وفي تدمير البعل. وهذه هي المرة الأولى التي يرد فيها في المصادر تعبير «شعب الأرض» ككيان فاعلة في سياسة التنصيب والسياسات الدينية. وبعد ذلك، في نهاية فترة مملكة يهودا، يظهر «شعب الأرض» ككيان ذي صلاحية مميزة في اختيار الملوك كلما تغير نظام الثورات المضطردة.

وقد فسرت نصوص العهد القديم بمحض الصدفة مغزى مصطلح «شعب الأرض» في ذلك الوقت: ففي إحدى مرات التنصيب بعد مؤامرة

سياسية [وهى المناسبة التى ذكر فيها «شعب الأرض» عامة] وأثناء تنصيب عُزريا بعد مقتل أبيه أمصيا، أطلق على الكيان الذى قام بالتنصيب اسم «كل شعب يهودا». ولايمكن افتراض أن هناك جماعة أكبر ممن اشتركت فى حالات تنصيب أخرى في هذه المرة. ويشهد الواقع أن «شعب الأرض» جاء تعبيراً عن مشاركة أكثر اتساعاً للجماعة فى النشاط السياسى.

وقد أدت الظروف الخاصة التى صاحبت اعتلاء يوآش عرش الملكية إلى نتائج حاسمة فى كل مايتصل بمكانة الهيكل وكهنته فى المملكة. ولا يوجد أى ذكر لتدخل الكهنة فى الشئون السياسية طوال فترة مملكة داوود وحتى اعتلاء يوآش للحكم. وهذه المرة، وبسبب الدور الحاسم الذى لعبه الكاهن يهوياداع فى إعادة الأمور لنصابها المشروع، ظهر الكاهن فى صور مخلِّص المملكة أمام الشعب. وكذلك فى السنوات التى تلت التمرد، فى شباب الملك، عندما عمل يهوياداع كوصي على العرش [والى]،بابتكاره لمنصب سياسي وهو وهى «الكاهن الرئيسى» أو "الكاهن الاعظم". ومن الممكن، بواسطة هذه الخلفية، تفسير الخلافات الحادة التى اندلعت بين الملك ومستشاريه وبين الكاهن الأعظم فى نهاية عهد يوآش. ولكن يحتمل أن يكون أحد مصادر الخلاف هو نزاع الاختصاصات حول الأموال المخصصة للهيكل وكيفية استخدامها. وطبقاً لماورد فى العهد القديم، أخذ الكهنة قُداس الهيكل [أموال الهيكل والدخل الخاص به] لأنفسهم وأهملوا ترميم الهيكل الذى كان واجباً عليهم.

أما يوآش فقد كرر هذا النظام وأجبر الكهنة «على ألا يأخذوا فضة من الشعب» [ملوك ١٢:٨]، وفى مقابل ذلك نظم جباية شعبية واسعة خصصت كلها لصالح عملية الترميم. وهناك سبب آخر للخلاف، على مايبدو وهو الجزية التى دفعها يوآش لحزائيل الآرامى عام ٨١٤ ق.م، والتى أخذها من كنوز الهيكل. وبالإضافة إلى النزاعات بين الملكية والكهانة، والوضع

الاقتصادي القاسي الذي سببته العزلة الإقليمية والانقطاع عن طرق التجارة مع سوريا وفينقيا، حدث أيضا الخضوع السياسي لحزائيل وينهدد ملكي آرام.

وطبقا لما ورد في سفر أخبار الأيام الثاني [٢٤]، أعد الآراميون حملة على يهودا في نهاية عهد يوآش [حملة ثانية] ولكن هذه الأمور ليس لها أي أساس. وقد قتل يوآش خلال أحداث النزاعات الداخلية في يهودا، وظروف الخضوع لآرام، على يد اثنين من عبيده.

وقد بدأ يتضح في عهد أمصيا بن يوآش [٧٩٨ – ٧٦٩ ق.م] نوع من التغيير في الموقف السياسي والإقليمي ليهودا، حيث أدخل أمصيا إصلاحات على الجيش في يهودا، ونظم حملة على أدوم التي شقت عصا الطاعة على يهودا في عهد جده يورام بن يهوشافاط، فضرب أدوم في «وادي الملح» [ملوك ١٤:٧] وأخذ «سالع»، ولكنه لم ينجح في الوصول إلى ساحل البحر الأحمر. واعتماداً على خلفية تصاعد القوة العسكرية ليهودا، يمكن أن نفهم القصة المبهمة الواردة في [ملوك ١٤:٨]، والتي تحرش فيها أمصيا بيوآش ملك إسرائيل ودعاه للنزال. ،ربما تشير تلك القصة، والتي سبقت النزال فيها محاولة أمصيا لبدء مفاوضات بين المملكتين، إلى فشل المحاولة. وكانت نتيجة هذا النزال هزيمة ساحقة ليهودا، حيث ضُرب جيش يهودا في المعركة التي دارت في بيت شيمش، وتم أسر أمصيا وصعد جيش يوآش الإسرائيلي إلى القدس، فأخذها وهدم أسوارها. وسرق جميع كنوز الهيكل وأخذ كثيرا من الأسرى للسامرة. وقد حدث كل هذا في السنة الرابعة عشرة من حكم أمصيا [٧٨٥ ق.م]، وبعدها تحرر أمصيا وحكم خمسة عشر عاماً حتى قتله متآمرون في لخيش. وهنا تدخل « كل شعب يهودا » في نظام توارث الملكية [الملوك الثاني ١٤: ٢١] ونصب ابنه عزريا ملكاً.

ومن الصعوبة بمكان تحديد التنظيم التاريخى لملوك يهودا فى هذه الفترة. ويمكن أن نفترض أن تنصيب عزريا لم يتم بعد مقتل أبيه فى لخيش، بعد حكم ٢٩ عاماً، بل تم بعد معركة بيت شيمش، أى فى السنة الرابعة عشرة من حكم أمصيا. وطبقا لهذا الافتراض حكم عزريا لمدة ١٥ عام فى حياة أبيه كوريث للعرش، وتم حساب تلك السنوات من فترة حكمه. ولذا تم تحديد فترة حكم عزريا من ٧٨٥ إلى ٧٣٣/٧٣٤ ق.م.

ازدهار مملكة إسرائيل – عهد يربعام:

تعتبر فترة حكم عزريا [عُزيا] ملك يهودا، ويربعام بن يوآش ملك إسرائيل، اللذين اعتليا الحكم فى وقت واحد تقريباً [السنة الأولى من حكم يربعام ٧٨٤ ق.م تعتبر هى السنة الثانية من حكم عزريا وريث العرش فى عهد أمصيا] هى فترة إزدهار ورخاء لكلتا المملكتين بعد سنوات طويلة من التدهور. ولم يكن سبب هذا الازدهار ضعف أرام دمشق وتوقف سيادتها على سوريا وأرض فلسطين فقط، بل أيضاً بسبب العلاقات الوثيقة بين إسرائيل ويهودا فى مجال الاقتصاد والتجارة فى تلك الفترة.

و المعلومات الباقية حول حروب يربعام وحدود مملكته قليلة ومتناثرة، ومن خلال ماورد فى [ملوك ١٤: ٢٨]. «استرجع إلى إسرائيل دمشق وحماة التى ليهودا» يمكن أن نستنتج أن سلطانه امتد إلى المملكتين، وأنه بعد هزيمة أرام انتقلت إليه السيادة على سوريا وأرض فلسطين.

ويتضح أنه فى بداية حكمه حارب الآراميين، وربما فرض سيطرته على شمال عبر الأردن. ويفترض أن ماورد فى سفر عاموس: «أنتم الفرحون بالباطل القائلون أليس بقوتنا اتخذنا لأنفسنا قروناً» [عاموس ١٣:٦]، كان المقصود به المرتين اللتين انتصر فيهما يربعام على الآراميين، الأولى فى

«لوداڤار» فى جنوب جلعاد والثانية فى «قرنايم» التى تقع فى باشان. وسواء هذا أو ذاك، فالمفترض هو، أنه بعد أن ضرب أدد نيرارى الثالث أرام دمشق، وضربه مرة أخرى على يد أحد وارثيه عام ٧٧٣ق.م، وقعت دمشق تحت حكم مملكة إسرائيل. وكانت هذه هى فترة قوة أراراط، التى ازدادت فى الربع الثانى من القرن الثامن للمملكة العظمى فى جنوب بلاد الروم [أناضوليا] وشمال سوريا.

وكانت آشور واقعة تحت ضغط متزايد بسبب اجتياح ملوك أراراط للحدود الشمالية الغربية. ولم فى إستطاعة يعد ملوك آشور الحرب فى الجبهتين معاً، وحاولوا، على أقل تقدير، الدفاع عن آشور نفسها ضد قوة أراراط المتزايدة، وعن مراكز الحكم الآشورية فى شمال سوريا من الشمال وحتى حماة. ومعنى هذا أنه لم يتم احتلال دمشق رغم أنف ملوك آشور، وربما كان ذلك متمشيا مع سياستهم. وقد أتاح تدمير قوة أرام مهلة ليربعام كى يستعيد قواه، ويخطط للاحتلال والاستيلاء والسيطرة على المنطقة الممتدة جنوب حماة. وربما تكون حماة نفسها قد اعترفت بتلك السيطرة كما حدث فى عهد داوود وسليمان حسبما يفترض أ. ملمات. وقد بسطت إسرائيل سلطانها فى الجنوب على عمون ومؤاب ووصلت حتى «بحر العرابة»، وربما يكون هو الطرف الجنوبى من البحر الميت.

ولكن من الناحية الاقتصادية، كانت مملكة يربعام تمر بفترة توسع وازدهار. وعادت إسرائيل للسيطرة على طرق التجارة الرئيسية التى تربط الشمال بمصر. بينما أتاح لها احتلال باشان وحوران - مخزن غلال أرض فلسطين - قاعدة اقتصادية زراعية متينة كان من الواضح افتقادهم لها حتى الآن.

وقد تم فتح منطقة باشان وحوران للاستيطان الاسرائيلى الموسع لكى تزداد قوة السيطرة الإسرائيلية المتجددة فى شمال جلعاد. وتشير قائمة أبناء رأوبين وجاد ومنسى فى أخبار الأيام الأول [٥]، والتى يتضح فيها هذا الانتشار، إلى أن أبناء منسى وصلوا حتى حرمون، بينما انتشر أبناء رأوبين مع قطعانهم حتى نهر الفرات. ومنذ ذلك الحين فصاعداً ازداد الثقل النوعى لسكان جلعاد فى مملكة إسرائيل. وكان هناك ثلاثة ملوك من جلعاد من بين آخر أربعة ملوك فى إسرائيل اعتلوا العرش بالقوة.

وقد ترك الازدهار الاقتصادى آثاره فى حركة البناء ، والتى تشهد عليها الاكتشافات الأثرية فى السامرة. حيث تم اكتشاف زخارف عاجية فى أثاثات قصر الملك الذى يرجع لعهد يربعام الذى اكتشف هناك. ويشير وجود العاج إلى ثراء المملكة وفخامة قصر السامرة فى ذلك الوقت. ولاشك أن ثراء الطبقات الحاكمة فى إسرائيل قد أشعل الخلافات الإجتماعية. ويعتبر سفر «عاموس من تقوع» هو المصدر الرئيسى لمعلوماتنا حول الوضع الإجتماعى فى عهد يربعام. وقد احتج عاموس على الظلم وتشويه العدل الذى اعتاده نبلاء السامرة وجلعاد فى مقابل بؤس الشعب. ويحتمل أن أصحاب الإقطاعيات كانوا يجمعون المحصول فى سنوات الرخاء ليبيعونه بأسعار باهظة فى سنوات القحط. وربما يكونون هم أنفسهم الذين قالوا: «متى يمضى رأس الشهر لبيع قمحاً والسبت لنعرض حنطة لنصغر الأيفة ونكبر الشاقل ونعوج موازين الغش. لنشترى الضعفاء بفضة والبائس بنعلين». [عاموس ٨:٥] ويطلق النبى على زوجات نبلاء باشان اسم «بقرات باشان»، لأنهن حسب قوله «الظالمة المساكين الساحقة البائسين القائلة لسادتها هات لنشرب» [عاموس ٤:١].

وتعتبر صورة المجتمع، التى تنعكس من خلال توبيخات عاموس، ظاهرة

جديدة فى إسرائيل. وتكشف توبيخاته أن طبقة الحكام قد وصلت لدرجة عالية من السطوة، ولقوة اقتصادية غير عادية، حيث أنها هى المستفيد الوحيد من فترة السلام والاستقرار. ومع ذلك يظهر فى أماكن أخرى من سفر عاموس صوت آخر. ومن المحتمل أن الاستقرار قد بدأ يتزعزع فى نهاية عهد يربعام ، ووصلت الرفاهية لنهايتها .

وتشهد توبيخات عاموس الاجتماعية، وما انطوت عليه من تهديد بأن نهاية الاستغلال الإجتماعى هي تدمير بيت يربعام والمملكة كلها، على حدة الخلافات الإجتماعية إلى درجة الشعور بالخطرالذى يهدد دعائم المجتمع.

والحقيقة هى أن الجماعة استمعت إلى هذه النبوءات القاسية دون أن تثير لديها أى استياء أو رد فعل جماعى ضد النبى. ويمكن أن نستنتج من ذلك أن روح الشعب قد هدأت بسبب تلك النبوءات. وعلى الرغم من أن أمصيا كاهن بيت إيل قد أرسل يحذر يربعام ملك إسرائيل «قائلا:" قد فتن عليك عاموس فى وسط بيت إسرائيل. لاتقدر الأرض أن نطيق كل أقواله» [عاموس ٧:١٠]. ولكن المتآمر لم يحاكم، حيث أن النبى كان قوة لايستهان بها فى حياة يربعام، وعند موته تفجرت الثورة إلى الخارج.

أنبياء المكتوبات:

تعتبر أقوال الأنبياء الذين يطلق عليهم اليوم «أنبياء المكتوبات» لتمييزهم عن أنبياء مثل إيليا لم تحفظ أقواله ولم تصل إلينا ، هى الإنتاج الرئيسى فى الحياة الروحية لإسرائيل فى عهد يربعام والتى وصلت إلينا . وكان عاموس من تقوع من أوائل الأنبياء الذين بقيت نصائحهم. ويعتبر أكبر تجديد قام به هو اعتماد نبوته على النصح الإجتماعى والأخلاقى بصفة رئيسية.

إن حـركـة بنـي الأنبيـاء التي ظهـر نشـاطهـا في الصـراع الذي دار بين عـبـادة إله إسـرائيل والآلهـة الأجنبيـه في عـهـد آحـاب، والتي كـانت الـعـامل الرئيسي في الصراع ضد المضطهد الأجنبي في فترة الخضوع للآراميين، قد غيرت من صـورتها مـع انتصـارات يربعام الثاني، وكانت تلك الحركة شـريكاً في تحقيق هذه الانتصارات.

وقد أصـبح هناك جزءاً من بني الأنبيـاء من المقربين للبيت الملكي. ويأتي قول عاموس: «لست أنا نبياً ولا أنا ابن نبي بل أنا راع وجان جميز» [عاموس ١٤:٧] تأكـيـداً على أنه ليس من أبناء الأنبـيـاء الذين يرتزقـون من بنـوءاتـهم [قارن ملوك ١٤:٣، ملوك ٤٢:٤]، بل كان مستقلا اقتصادياً، ويرتزق من عمله كمربي أغنام نوقيدن [وهـي فيمـا يبدو الصـيغـة الصـحيحة] وجاني جميز. وسـوف نجـد في شـخـصـيـة عـامـوس صـورة لنبي لاعلاقة لنبوءته بالمعجزات الظاهرة ولا بمواقف التجلي، كمـا أنه لا ينتمي لأي جماعة من جماعات أبناء الأنبيـاء التي كـانت منتشـرة في تلك الفتـرة،لأنه كـان يتـحـدث بما يجـيش في نفسه. وتعتبر نبوءته شاذة عن رؤى العالم المعتادة في الشـرق القديم. وطبقا لهذه النبوءة يعتبر العدل الاجتماعي هـو الشرط الوحيد الذي لاغنى عنه لقيام شـعب ومـصـير دولة، وأن دمـار الأرض كـان بسـبب ظلـم البـائسين وأسـاليب القمع واستغلال الحكام للجماهير ومن هنا تدفقت خطب عاموس الملتـهبة. كما تعـتـبـر نظـرة عـامـوس للقـرابين وهـي أسـاس كل العـبـادات في أنحـاء بلاد المشرق، نظرة خاصـة. فكانت له مـعارضـة حـادة تجاه القرابين التي يقدمـها الأثرياء والحكام الظالمين ببـذخ: «بـغــضـت كـرهـت أعـيـادكم ولست ألتـذ باعتـكافـاتكم إني إذا قـدمـتم لي مـحـرقـاتكم وتقـدمـاتكم. لا أرتضي وذبائح السـلامـة من مـسـمـناتكم لا ألتـفت إليـهـا» [عـامـوس ٢١:٥]. وقـد حـارب طقـوس وأنغام العبادة: «أبعد عني ضـجة أغانيـك ونغـمـة ربابـك لا أسـمـع.

وليجـر الحـق كالميـاه والبر كالنــهر الدائـم» [عـاموس ٥: ٢٣/٢٤]. وقـد تطور هذا الموضوع وتكرر الهجوم عليه فى نبوءات أشعياء بن آموص وأرميا، وأصبح سمة أساسية للفكر النبوئى المتأخر.

وتتركز مطالب عاموس من الجماعة الإ سرائيلية فى وجهة نظر الشريعة التى ترتكز أسـاسـاً على فكرة اختيار شعب إسرائيل والعهد بينه وبين الرب. ويعـتبر عـاموس أن هذا الاخـتيـار يلزم الشـعب المخـتـار بالالتزام الأخـلاقى والدينـى أكـثر من كل الشـعوب: «إياكم فقط عـرفت من جـمـيع قـبائل الأرض لذلك أعـاقـبـكم على جـمـيع ذنوبكم» [عـامـوس ٢:٣]. ويمكن اعـتبـار حـركـة عاموس هى بداية لحركات الأنبياء الذين حاربوا لإعادة بناء إسرائيل، والذين انتـشرت نبـوءاتهم وتم تدوينهـا، وأثرت أعمـالهم الرمـزية وصـراعـهم من أجل العدل الاجتماعى تأثيراً حاسماً، إن لم يكن على جيلهم ففـى الأجيال التالية وحتى الآن.

ولم يكن من قبيل المصـادفة أن تبدأ هذه الحـركة فى مملكة إسـرائيل، لأنه ظهرت فيها فى عهد يربعام صراعات اجتماعية أشد قوة مما كان فى مملكة يهودا التى كانت مملكة زراعـيـة فى الأسـاس وتميزت بالاسـتـقـرار الأخلاقى.

ازدهار مملكة يهودا [عهد عزيا]:

مرت يهودا في عهد عزيا الطويل [يسمى في ملوك ١٥: ١ باسم عزريا. وكذلك في الوثائق الآشورية وربما تكون كل منهما صيغتان لنفس الاسم] بفترة من أهم فترات الازدهار في عصر مابعد الانقسام. واستمر عزيا في محاربة أدوم بمجرد أن اعتلى الحكم بعد موت أمصيا. وضم إيلوت وبهذا استكمل احتلال أدوم كلها، وأصبحت معظم طرق التجارة الهامة التي تمر بها في حوزة يهودا. كما سيطر عزيا على قادش برنيع، وهي واحة رئيسية في شمال سيناء كي يستكمل سيطرته على طرق التجارة الغربية حيث كانت تعبر في هذا الطريق قوافل تجارية، وشيد هناك حصناً دائماً، تم الكشف عن بقاياه في الحفائر الأثرية.

وخلال ذلك ضرب المعويين، وهم قبائل عربية استقرت في شمال سيناء، حسبما اتضح مؤخراً من خلال وثيقة أشورية، وكانت ترتحل حتى حد ود مصر. وقد أدى تأييد عُزيا للتطور التجاري ورغبته في التحكم في طرق القوافل إلى محاربته للفلسطينيين، وذلك للمرة الأولى في تاريخ يهودا منذ الانقسام. وضم عزيا كل من أشدود ويفنه وبنى مدناً في «أرض أشدود والفلسطينيين» [أخبار الأيام الثاني: ٢٦] أي أنه بنى مستوطنات وحصونا بطول القسم الشمالي من «طريق البحر». وبهذا عادت يهودا، مثلما كانت في فترة المملكة الموحدة، تتحكم في طريقي التجارة الكبيرين اللذين يمران بجانبها، وبذلك زاد دخلها من التجارة الدولية.

ولم تظهر القوة الاقتصادية لمملكة يهودا في مجال التجارة فقط، بل شجع عزيا الزراعة تشجيعاً كبيراً. وخاصة في مناطق النقب، وهو الوحيد من بين ملوك يهودا الذي قيل عنه « لأنه كان يحب الفلاحة»

وقد كشفت الاكتشافات الأثرى وحفائر النقب في الفترة الأخيرة عن

بقايا هامة من عصر عزيا مثل: حصون تم تشييدها بعيداً عن مناطق الاستيطان، أسوار مغلقة وأبراج. كان بعضها بمثابة نقاط حراسة على طرق التجارة والمراعى.

وقد اعتمد عزيا فى حروبه على القوة العسكرية التى أنشأها وزودها بالأسلحة: «أقواسا ورماحاً وخوذاً ودروعاً وقسياً وحجارة مقاليع» [أخبار الأيام الثانى ١٤:٢٦]. وظهر تقدم التكتيك العسكرى أيضا فى مناطق التحصين، حسبما يشير يجآل . يادين. فقد استخدمت أساليب جديدة فى تحصين مدن يهودا والقدس العاصمة: «وعمل فى أورشليم منجينقات اختراع مخترعين لتكون على الأبراج وعلى الزوايا لترمى بها السهام والحجارة الضخمة» [أخبار الأيام الثانى ١٥:٢٦].

ولاعجب إذن فى أن مكانة الملك قد ازدادت قوة، وعقد العزم على أن ينال حقاً فى العبادة والهيكل، لأنه كما هو معروف، كانت لهذه الحقوق جذور تاريخية بعيدة، حيث خدم سليمان فى الهيكل ومن قبله أبناء داوود [صموئيل ١٧:٨]. غير أنه منذ أجيال عدة، وخاصة فى عهد الملك يوآش فصاعداً، كانت هناك حدود واضحة وفاصلة بين صلاحيات الحكم وصلاحيات العبادة. وعلى ذلك حاول عزيا أن يبخر على المذبح، وطبقا للقصة الواردة فى أخبار الأيام الثانى [٢٦] واجه معارضة شديدة من الكهنة. وقد فسرت مرويات الكهنة المتأخرة مرض عزيا [البرص] باعتباره عقاباً له على تدنيس المقدسات: «فحنق عزيا وكان فى يده مجمرة للإيقاد وعند حنقه على الكهنة خرج برص فى جبهة» [أخبار الأيام الثانى ٢٦: ١٩]. وتضيف مرويات كهنوتية أخرى وردت عند يوسف ابن متتياهو موضوع الزلزال الذى حدث أثناء عمل الملك فى الهيكل: «فسد قلبه من فرط الكبرياء... وفى يوم عيد هام... لبس الملك ثوب الكهانة ودخل للمساعدة»، أما الكهنة الذين حاولوا منعه: «هددهم بالموت... غير أنه أثناء حديثه، ضرب الأرض زلزال قوى،

وتصدع الهيكل [انظر زكريا ١٤:٤]، وسطع شعاع شمس قوى وسقط على وجه الملك فأصيب بالبرص على الفور» [قدمونيوت ٩ - ١٠-٤ وثاليط ص ٣٣٤] وفى السنوات الأخيرة من عهد عزيا تسلم ابنه يوثام مقاليد الحكم عندما عجز الملك رسمياً عن القيام بشئون الحكم بسبب مرضه [وفقا لما ورد فى ملوك ١٥:٥ كان هذا المرض هو البرص].

واستمر يوثام فى سياسة الانتشار والتوسع التى بدأها أبيه. ويحكى عنه أنه حارب ملك بنى عمون وانتصر عليه وأخذ منه جزية ضخمة: «مئة وزنة من الفضة وعشرة آلاف كر قمح وعشرة آلاف من الشعير» [أخبار الأيام ٢٧:٥]. وغير واضح ماإذا كان هذا التوسع فى عبر الأردن قد تم بتأييد من يربعام ملك إسرائيل، غير أنه هناك أساس للفرض القائل بأن هذا هو ماحدث. والدليل على ذلك يمكن أن نجده فى ذكر اسمى يوثام ويربعام معاً فيما ورد عن تعداد السكان فى عبر الأردن: «جميعهم انتسبوا فى أيام يوثام ملك يهوذا وفى أيام يربعام ملك إسرائيل» [أخبار الأيام الأول ١٧:٥]. وكانت هذه العلاقات والتعدادات عادة ما تصاحب التوسع الإقليمى والتوطن الجديد.

وقد سبقت إسرائيل يهودا فى الارتقاء السياسى، إلا أن تميز المملكة الجنوبية ظهر بالتدريج وازداد ثقلها النوعى. وقد بدأت علامات هذا المسار فى أواخر عهد يربعام، ويحتمل أنه بعد موت يربعام حظيت يهودا بالسيطرة على أرض فلسطين بكاملها وربما أيضا على أنحاء سوريا. وقد ظهرت تلك المكانة المسيطرة وأثبتت وجودها بعد حوالى عشر سنوات من موت يربعام، عندما تزعم عزريا [عزيا] ملك يهودا معاهدة سورية ضد آشور.

وتعرضت مملكة إسرائيل لزعزعة استقرارها بعد موت يربعام [٧٤٨ ق.م]. فبعد أن اعتلى ابنه زكريا العرش بسته أشهر قتل، وانتهى

معه بيت يربعام تماماً. أما الملك الجديد وهو شلوم بن يابيش الجلعادى – وفقا لأصله، فقد اعتلى العرش شهراً واحداً فقط ثم قتله منحيم بن جادى، وهناك من يعتقد أن اسمه يشير إلى انتمائه لسبط جاد. ونجح منحيم إلى حدما فى إعادة الاستقرار الداخلى لإسرائيل، ولكن لم ينجح فى إعادة سلطانها وتأثيرها على أنحاء سوريا وأرض فلسطين.

وبدأ نشاط النبى هوشع بن بئيرى فى سنوات الأزمة التى تلت موت يربعام الثانى، وكان هوشع من رجال يهودا وفقا لأصله.

ولم تعتبر آرام عنصراً سياسياً مستقلاً فى نبوءات هوشع، ولم تشكل آشور خطواً على إسرائيل باعتبارها سبط الرب، بل كانت حليفاً ممكناً لإسرائيل، كما لم تحمل أقوال هوشع أى صدى لتدمير القسم الأكبر من مملكة إسرائيل عام ٧٣٣/٢، وانفصال الجليل وعبر الأردن عن إسرائيل وانضمامهما لآشور ونفى المسبيين لآشور. لذا يتضح أن هوشع لم يتنبأ بعد الفترة التى ظهر فيها تجلات بيلاسر باعتباره عدو مملكة إسرائيل ومخربها.

وتتميز موضوعات هوشع بطابع خاص مميز، لم تتميز به حتى نبوءات عاموس الذى كان شبه معاصر له. فقد كانت نبوءة عاموس موجهة بشكل رئيس ضد الظلم الإجتماعى، بينما وجه هوشع جهوده لموضوعين وهما: انتقاد العبادة فى إسرائيل وخاصة هياكل بيت إيل ودان التى تمارس فيها العبادات الوثنية حسب وصفه، وكشف الوضع الداخلى المنهار للمملكة: «السامرة ملكها يبيد كغثاء على وجه الماء» [هوشع ١٠–٧]، «إنهم الآن يقولون لاملك لنا لأننا لانخاف الرب فالملك ماذا يصنع بنا» [هوشع ١٠–٣].

وحذر هوشع من اندفاع قادة السامرة وراء نزعات سياسية متعارضة، أى البحث عن تأييد مصر من ناحية، وطلب معاهدة مع آشور من ناحية أخرى: «وصار أفرايم كحمامة رغباء بلا قلب. يدعون مصر. يمضون إلى

أشور» [هوشع ١١:٧]، «يقطعون مع أشور عهدا والزيت إلى مصر يجلب» [هوشع ٢:١٢].

دمار مملكة إسرائيل على يد آشور:

لقد تغيرت الصورة السياسية فى أنحاء الشرق القديم من النقيض إلى النقيض فى مرحلة بداية الانهيار الداخلى فى إسرائيل. فمع اعتلاء تجلات بلا سر العرش [٧٤٥ – ٧٢٧] أصبحت آشور قوة عظمى وأرسيت قواعد الإمبراطورية الأشورية. ونجح تجلات بلاسر الثالث فى تحقيق مالم يحققجميع من سبقه من ملوك أشور. فقد وسع حدود أشور جهة الجنوب بعد سلسلة من الحملات حتى وصل لحدود مصر.

وخلال بضع سنوات ضرب أعداء أشور فى الشمال والغرب: «مملكة أرارات وحليفتها أربد» وهما من كبرى ممالك الآراميين فى شمال سوريا. واحتلت أربد وألحقت بأشور، ووصلت حدود أشور حتى حماة فى وسط سوريا، ومن الواضح أنه كان ينوى التوجه جنوباً.

ومن أهم تجديدات تجلات بلاسر الثالث فى مجال بناء الإمبراطورية الأشورية، تلك التى استمرت فى العهود التالية وغيرت من أحداث المنطقة وهى: ضم الدول المحتلة لآشور واعتبارها ولايات أشورية مما أدى إلى اتساع مستمر لحدودها. وانقسمت الولايات نفسها إلى وحدات أصغر، كى يمنع حكامها – الولاة – من ميزة الحكم المتسع التى كانت متاحة لهم فى الفترة السابقة لتجلات بلا سر.

وأهم تجديدات تجلات بلاسر من حيث جذرية الحل وتأثيره على تاريخ إسرائيل، هى تطوير وتعديل أسلوب الاجلاء [السبى] الذى أصبح سمة مميزة للاستعمار الأشورى. فقد أصبح الإجلاء [السبى] يتم بشكل ثنائى الاتجاه، أى إجلاء صفوة السكان من الحرفيين الممتازين والجنود إلى آشور وتوطينهم فى الضياع التى دمرت فى القرن التاسع ق.م، وخاصة منطقة

جوزن، وإجلاء القبائل الأرامية والكلدانية من بابل إلى الولايات الجديدة لترسيخ الأساس المخلص [الموالى] لأشور. وبهذا الأسلوب انكسرت شوكة الشعوب المحتلة، حيث أخذت منهم أفضلية الحكم وأدخلت بينهم سكان الشعوب المحتلة التى أجليت من أماكن أخرى.

وقد أصبحت ممالك سوريا معدومة الحيلة أمام قوة آشور الكاسحة، والتى ازدادت قوة بعد ضرب أربد ٧٤٠ق.م، وبعد أن انسحب جيش أرارات لما وراء الفرات الأعلى. وفى هذه المرحلة لعبت يهودا دوراً حاسماً، غير أن تاريخ الأحداث فى تلك السنوات غير واضح على الإطلاق. فلا يشيرأسفار العهد القديم إليها مطلقاً، بينما وصلتنا كتابات تجلات بلا سر بشكل متناثر، ويزيد ماضاع منها على ماهو موجود.

وتتحدث كلتا القطعتين الباقيتين عن إزرياو(*) من أرض يودو، الذى تزعم حلفاً ضد أشور وحاربها فى شمال سوريا. وفى نهاية القرن التاسع عشر شاع الافتراض بأن يودو ليست هى يهودا بل مملكة فى جنوب أرناضوليا [بلاد الروم] تدعى سمأل، ويطلق ملوكها على أنفسهم اسم «ملوك يادى»وطبقاً لهذا الافتراض يكون أزرياو هو ملك سمأل/ يادى، وهو الذى حارب أشور.

ولكن فى نفس الوقت تتضح الخلفية التاريخية لتلك السنوات، فتتغير وجهات نظر الباحثين واليوم يتضح أن «سمأل»، التى تسمى بهذا الاسم فقط فى وثائق آشور، كانت مملكة صغيرة من الدرجة الثالثة بينما يهودا التى سميت فى كتابات ملوك آشور باسم «ياودى» كانت مملكة رئيسية فى المنطقة. ولايوجد من بين ملوك سمأل المعروفية فى المصادر ملكاً باسم «أزرياو». ويشهد الواقع أن «أزرياو ملك ياود» المذكور فى كتابات تجلات

(*) إز رياو فى نقل الحرف الأكدى بسبب عدم وجود حرف العين والهاء فى اللغة الأكدية.

بلا سر ليس إلا عـزريا/ عُزيا ملك يهـودا، وهو الذى تزعـم الحلف السـورى وحـارب أشـور.

ويتـضـح إذن أنـه فـى هـذه المرحـلة الخطـرة الحـاسـمـة فـى تاريـخ سوريا، كانت يهـودا هـى زعيمـة الممالك السورية وصـاحبـة السيادة، وتكون حلـف تزعمـه عـزيا وانضـمت إليـه منـاطق مـن مملكـة حـمـاة وكـذلك مـدن شـمـال فينـيـقيا. ومن بالمفترض أن كلاً من إسرائيل وأرام قد قبلا سيادة عزيا سواء برغبتهم أو رغماً عنهما. وقد حكم إسرائيل فى ذلك الوقت، كما قلنا، منحيم بن حادى، بينمـا كـان رحين هو حـاكم آرام ومـؤسسـا لأسـرة جـديدة. ويتـضـح مـن خـلال الأجـزاء القليلة التى بقـيت عن هذه الحـرب فى القوائم السنوية لتـجلات بلاسـر، أن عـزيا من أرض يهـودا حـارب أشـور فى مكان مـا فى شـمـال سـوريا، وعلـى مـايبـدو أنه هزم وانسـحب. وربمـا اكتـفى تجـلات بلاسـر بذلك ولم يطارده. ويمـكن تحـديد زمـن الحلف والحـرب حـوالى عـام ٧٣٨ ق.م. ومنذ هـذا العـام، وبعد هـزيمة جـنـد عـزريا وحلفـائه. بقيت لدينا مـعلومة، وهـى أن ملوك سوريا وجـنوب أناضـوليا وأرض فلسطين قد عبروا عن ولائهم لأشور ودفـعوا لها جـزية عـالية. ومن بين دافعى الجزية يذكر اسم منحيم ملك السـامرة، ورصين الآرامى، وكذلك ملكة العرب. وعلى الرغم من أن قـسـمـاً كـبـيراً من الـدول المذكورة فـى القـائمـة لم يكن يخـشى خطر احـتـلال آشـورى قـريب، إلا أنه على أية حـال كـان خـضـوعـهم لأشـور بغرض توطيد أمنهم وأمن طرق التجارة التى كـان يسـيطر عليـها الأشـوريون في تلك الفـترة.

وتعـتبر قـائمـة الأغـراض والمواد التى قدمهـا حـاملو الجزية على جـانب من الأهمـيـة، ومن بين هؤلاء مـلوك دمشق والسـامرة: ذهب وفـضـة وقصـدير وحديد وجلود أفيال وعـاج وثياب ملونه وأنسجة كتان، صوف (ملون) وأبنوس وشـجر البقس وكل نفـائس الكنوز الملكية وكبـاش ذات صـوف ملون أرجوانى

وطيور برية ذات ريش ملون وجياد وبغال وأبقار وأغنام وجمال ونياق مع أبكارهن. وتعتبر «قصة أزرياو»، وظهور يهودا كزعيمة لحلف ضد أشور وهزيمتها هى نقطة الذروة والتحول السلبى فى صعود يهودا السياسى، وتعتبر أيضا علامة على سقوطها المريع، حيث نجح رصين فى تلك الأيام تقريباً فى إستعادة مناطق النزاع فى عبر الأردن لآرام، وهى: باشان، الجولان، شمال جلعاد، وامتدت حدود آرام، التى سميت فى وثائق أشور باسم «بيت حزائيل» على اسم حزائيل أكبر ملوكها، ولفترة محدودة فقط، من جبل لبنان وحتى باشان وراموت جلعاد، وهى الحدود التاريخية بينها وبين إسرائيل.

وقد أدى ازدياد قوة أرام فى الشمال، مثلما حدث فى أحوال مشابهة فى الماضى، إلى ازدياد قوة أدوم المستقلة. وبعد فترة وجيزة من عام ٧٣٨ ق.م تمردت أدوم على يهودا وشقت عصا الطاعة. وخسرت يهودا جميع ملكياتها فى عبر الأردن. وفى ذات الوقت انتهت سيطرتها على فلسطين ومنطقة أشدود، حتى أن الفلسطينيين اقتحموا حدود يهودا، واجتاحوا وادى إيلون بشكل خاص: «واقتحم الفلسطينيون مدن السواحل وجنوبى يهوذا وأخذوا بيت شمس وأيلون وجديروت وسوكو وقراها وتمنة وقراها وجمزو وقراها وسكنوا هناك». [أخبار الأيام الثانى ٢٨: ١٨]. ولم يبق شئ من سيادة يهودا. وأصبح هذا الصراع الفاشل على جميع الجبهات من نصيب أحاز بن يوثام الذى ورثه عام ٧٤٣ ق.م. أما أخطر الضربات فكانت فى عام ٧٣٤ ق.م، وهو العام الذى خرج فيه تجلات بلاسر على رأس جيشه من شمال سوريا واتخذ طريق مدن فينقيا إلى فلسطين بطول الساحل، وخضعت له المدن الفلسطينية الكبرى، وضم الأشوريون غزة ووصلوا حتى وادى مصر، وأقام ملك أشور هـ اك نصباً للنصر، كى يحدد به حدود توسعات آشور القصوى.

وعلى الرغم من عدم وجود نية في هذه المرحلة لضم تلك الأراضي لولايات أشور، إلا أن ظهور الجيش الأشوري الضخم في قلب أرض فلسطين كان كافياً لزعزعة البنية السياسية في المنطقة كلها، ودفع جميع ملوك الدويلات الصغرى في أرض فلسطين جزية لآشور واحتفظت كتابات تجلات بلاسر بقوائم لها. وكان من بينهم أحاز ملك يهودا الذي تذكره الوثيقة باسمه الكامل يهو أحاز، ومعه بعض الملوك الذين كانوا خاضعين ليهودا كما كان معروفاً عنهم.

وقد إفترض كلا من رصين الآرامي وفقح بن رمليا ملك إسرائيل ،الذي تولى الحكم بتأييد رصين وفي زمن متقارب (٧٣٥/٤ ق.م) وكان بمثابة تابع له، أن الوقت قد حان لضرب يهودا وإزاحة سلالة بيت داوود وتنصيب الملك الذي يرغبانه. واتضح أن المرشح لذلك كان أميراً من عبر الأردن يسمى بن طفال. ويورد سفر الملوك الثاني [١٦:٥] تفاصيل هذه القصة، وكذلك الاصحاح السابع من سفر أشعيا، ويتضح منهما أن الحلفاء صعدوا للقدس وفرضوا عليها حصاراً، وكل ذلك بهدف ضم يهودا إليهم [أشعيا، ٧:٦]. ولايتضح إذا كان هدفهم في ذلك الوقت هو إقامة حلف واسع ضد أشور وضم يهودا بفضل هذا الحلف. وفي هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ يهودا اتجه آحاز يائساً إلى تجلات بلاسر وطلب منه المساعدة، ويتخذ هذا الطلب صيغة مخاطبة تابع لسيده: «أنا عبدك وابنك. اصعد وخلصني من يد ملك آرام ومن يد ملك إسرائيل القائمين علي» [ملوك ١٦:٧]. وقوى هذا الطلب بإرساله هدايا أو «رشوة» بأسلوب العصر [ملوك ١٦:٨]. وفي أعقاب هذا جاء ملك أشور البلاد وحارب حرب إبادة في أرام على مدى عامين ٧٣٣ - ٧٣٢ ق.م، واحتل مدنها المحصنة الواحدة تلو الأخرى، وحاصر العاصمة دمشق، وأخيراً ضمها عام ٧٣٢ ق.م. وقتل رصين ولم تعد أرام دمشق مملكة مستقلة، بل أصبحت ولاية أشورية مركزها الإداري هو دمشق. ولم تفلت إسرائيل من مصير مشابه، فاجتاح جيش أشور الجليل واحتل عيون،

دان، آبل بيت معكة، وحاصور، التى تقع على طول الطريق المؤدى لطبرية. كما أجلى سكان قادش نفتالى فى الجبل ومدن كثيرة فى أعالى جبل نفتالى إلى أشور [ملوك ١٥:٢٩] ويصف مصدر أشورى متقطع هذه الحملة التى قادها تجلات بلا سر إلى الجليل، ويذكر بعض المدن الأخرى وخاصة فى سهل بيت نطوفا التى احتلت، وبعض المدن المحصنة فى جبل نفتالى.

وقد احتفظ المصدر الأشورى بعدد الذين أجلوا من إسرائيل وهم ١٣١٥٠ نسمة أجليت لأشور وقد انفصلت الجليل عن إسرائيل فى هذه الحملة وانضمت إلى الامبراطورية الأشعورية باعتبارها ولاية باسم «مجيدو» على اسم مدينة مجدو وهى المركز الإدارى لها.

ولايتضح مطلقاً إن كان تجلات بلاسر قد أجلى أبناء شعوب أخرى ووطّنهم فى الجليل بدلاً من سكان إسرائيل الذين أجلوا إلى أشور. ويبدو أن جزءاً من السكان فقط هم الذين أجلوا من هذه المنطقة، وظلت هناك جماعة كبيرة من السكان. وعلى أية حال، لم تتشكل فى الجليل هيئة ثابتة جديدة، كخليط من أهل إسرائيل والشعوب الأجنبية، كتلك التى سوف تتشكل بعد ذلك فى السامرة. أما أبناء عبر الأردن، سواء من كانوا تحت سيادة إسرائيل أو سيادة رصين، فقد تم إجلاءهم إلى أشور فى عامى ٧٣٣ - ٧٣٢ ق.م، وأنشئت فى تلك المنطقة ولايات أشورية، ومنها: عشتاروت وقرنايم وجلعاد، وانتقلت حدود مملكة أشور حينئذ من عبر الأردن مروراً بطريق وادى يزرعئيل حتى وادى عكاء الذى كان تابعاً وقتها لأبناء صور.

وقد أدى توسع الامبراطورية الأشورية الضخمة إلى داخل الحدود الجغرافية لأرض فلسطين إلى حدوث قلاقل كثيرة وغليان وتمرد. وقتل فقح بن رمليا الذى كان ،عتمد على أرام دمشق أثناء التمرد، وتولى الحكم هوشع بن أيلة وأيد حكمه تجلات بلاسر. ويرد فى سفر الملوك الثانى ،اعتباراً من الإصحاح العاشر ومابعده ،أن آحاز ذهب إلى دمشق حيث معسكر تجلات

بلاسـر في ذلك الوقت. ويتـضـح أن أحـاز قـرر أثناء مكوثه في دمـشق أن يتصرف كتابع آشوري ليس فقط من الناحية السياسية، بل في كل الشئون، لكي يحظى برضا ملك أشـور باقتفاءأثره ثقافيا ودينياً. ومن بين رموز هذا التقرب نقل نموذج المذبح الذي رآه آحاز في دمشق. فقد أمـر الكاهن أوريا بإنشـاء مـثيل له في القدس، وعندمـا عـاد من دمشـق قدم قـرابينا على هذا المذبح. ونقل أنماط العبـادة الآرامـية للقـدس، بما يتناقض تماماً مـع تقاليـد آبائه من ملوك يهودا .

ولم يتبق من مملكة إسرائيل بعد أن فقدت الجليل وعبر الأردن، سوى مملكة السـامـرة، أو بمعنى أدق هرأفـرايم فقط. ولم تستسلم إسرائيل لتلك الهـزيمة في هذه المرحلة أيضـا ، بل ذهب هوشـع بن أيلة يطلب العـون ضـد أشور لذي عدوها التقليدي ملك مصر. فأرسل وفداً إلى الفرعون الذي يسكن «سوا» [ملوك ٤:١٧] وهي عاصمة الدلتا في تلك الفترة(*).

ولا نعرف اسم هذا الملك المصري، ولكن يفترض أنه «تفنحت» ويعتبر من أقوى حكام الدلتا والوجه البحري في تلك الفترة. ويتضـح أن مصر أمدت هوشـع بالمساعدة، وتوقف عن دفع الجزية لأشور. ويحتمل أن هناك سبب آخر لتمرد هوشع وهو تغير الملوك في أشور.

بعد مـوت تجلات بلاسر الثالث [شتاء ٧٢٧/٦ ق.م] اعتلى ابنه العرش وهو شلمناصر الخامس (٧٢٧ – ٧٢٢). وقد أيقظ موت المحتل الأكبر الآمال في تلوب التابعين وزادت تطلعاتهم لسقوط أشور. وانضم الفلسطينيون أيضا للتمـرد بهدف كسر شوكة أشور. وبناء على ذلك كانت نبوءة وتحذير أشعيا لأحد هؤلاء التـابعين: «لاتفـرحي ياجـمـيع فلسطين لأن القـضـيب الضـار بك

(*) هناك رأي يقول أن «سوا» ليس اسم أو كنية ملك مصر، بل هو اسم العاصمة في تلك الفترة، والذي ينطق «سا» أو «سوا» حسب نقل الحروف الأكدي وهي سايسي في التقليد اليوناني. ويقترح أولبرايت أن هذا هو ماورد في سفر الملوك فرضاً: «وأرسل رسلاً إلى سوا إلى ملك مصر».

انكسر فإنه من أصل الحية يخرج أفعوان وثمرته تكون ثعباناً مسمماً طياراً». [إشعيا ١٤:٢٩]. وبسبب عدم وجود أى وثائق أشورية ترجع لعهد شلمناصر الخامس، لانعرف أى تفاصيل محربه مع هوشع بن أيله. ويتضح أنه منذ ظهر جنود أشور فى البلاد ندم هوشع وخضع لهم. ووقف أمام ملك آشور مستسلماً، إلا أنه سبى وأجلى. واستمر جيش اشور فى حملته، فذهب إلى السامرة وفرض عليها حصاراً [حوالى عام ٧٢٤/٧٢٣ ق.م]. وتم ضم السامرة عام ٧٢٢ق.م. ويحكى التاريخ البابلى الذى تم تنظيمه فى القرن السادس من مصادر قديمة، عن شلمناصر الذى احتل «سوامراين» – وهو الاسم الآرامى المنتشر للسامرة – ولكنه لايقدم أية تفاصيل أخرى عن هذا الاحتلال. وفيما يبدو أن شلمناصر الخامس قد مات بعد الاحتلال على الفور. وربما يكون قد قتل أثناء التمرد. ويحتمل أنه بسبب مشكلات أشور الداخلية انسحب جيش أشور وعاد لبلاده.

واعتلى حاكم جديد العرش فى أشور، ألغى لقب شلمناصر وأطلق على نفسه اسماً مختلفاً وهو «سرجون» – على اسم مؤسس مملكة أكد قبل ١٧٠٠ سنة – وسرجون سروكيئو تعنى بالأشورية الملك .

وبانسحاب الجيش الأشورى فى شتاء ٧٢٢/١ ق.م، بدأت إسرائيل تتنفس الصعداء لفترة وجيزة. وبالفعل لم يكن الأمل فى التحرر فى هذا الوقت عبثاً، إذ أنه بموت شلمناصر اشتعل التمرد الذى أحاط بأرجاء الإمبراطورية الأشورية غرب الفرات. ولم يقتصر التمرد على التابعين الذين نالوا شيئا من الاستقلال، بل أمتد أيضا إلي سكان الولايات الذين استقروا منذ زمن قصير: حورخ ودمشق. وتبلور حلف جديد من جميع بقايا الدول المستقلة سابقاً، والذين وجدوا الفرصة سانحة لكسر شوكة أشور للأبد. وكانت حماة على رأس هذا الحلف

الجديد. واشتركت معها مدن فلسطين ومنها غزة. وقدمت مصر للحلف دعماً عسكرياً مؤثراً. ولايتضح ما إذا كان حاكم مصر فى ذلك الوقت هو نفسه تفنحت صاحب سوا/ سايس، أم أنه الملك الأول من الأسرة الحبشية التى ضمت - احتلت - مصر فى زمن مقارب لذلك وأسست بها الأسرة الخامسة والعشرين.

وقد انتظر سرجون سنتين حتي جمع قواته لاجتياح غرب الفرات. وفى عام ٧٢٠ ق.م هجم بجيوشه من غرب الفرات وضرب ملك حماة، متجها إلى فلسطين. ودارت فى رفح على حدود مصر، المعركة الجاسمة بين سرجون وبين الجيش المصرى الذى خرج لمواجهته. وتحكى القوائم السنوية الملكية الخاصة بسرجون ،أن المصريين انهزموا وهرب قائد الجيش المصرى مثل الراعى الذى سرقت أغنامه. وعاد جيش أشور من معركته مع مصر فضم غزة وصعد إلى السامرة التى كانت فى حالة تمرد، «وكان يحكمها طوال ذلك الوقت [منذ ٧٢٢ ق.م] قائد الجيش بدون ملك. واتجه سرجون من هناك شمالاً فضم دمشق المتمردة، وحماة أيضا وحولها إلى ولاية.

وقد وضع احتلال سرجون للسامرة عام ٧٢٠ ق.م نهاية لوجود مملكة إسرائيل. وأجلى سرجون من السامرة ٢٧٢٨٠ نسمة، ووضع فيها مندوباً له (والى) وجعل منها مركزاً للولاية الأشورية الجديدة «سمرنيا»، حسب قوله: «جددت مدينة السامرة وجعلتها أكبر مما كانت، وأسكنت بها أناساً من البلاد التى ضممتها... ووضعت عليها موظفين بمثابة ولاة... وفرضت عليها جزية وتقدمة مثل أهل أشور». وظلت يهودا وحدها تحمل استقلالية الشعب وتحافظ على الوجود التاريخى له. وبدأ سرجون ينقل إلى السامرة سكاناً من مناطق أخرى فى مملكته. وفى عام ٧١٦ ق.م قام بتوطين قبائل عربية كان قد ضمها فى نفس العام، وهم من أبناء عيفة وثمود إبدد ومرسيمان. ولم

تحتفظ كتابات ملوك أشور بمعلومات أخرى حول الإجلاء إلى أرض السامرة، ولكن فى سفر الملوك [١٧] تم تفصيل مسقط رأس المجليين وعقائدهم. وطبقاً لهذا المصدر وصل المجليون للسامرة «من بابل وكوث وعوا وحماة وسفروايم» [ملوك ١٧:٢٤]. ولكن هذه المعلومات لاتوضح مسقط رأس ساكنى السامرة، حيث لانعرف حتى اليوم أين كان يعيش أهل عوا وسفروايم، وما إذا كانت حماة هى المقصود بها حماة التى فى سوريا أم أنها مدينة فى «مادى» سميت باسم مشابه. وبسبب تأييد سرجون لثقافة بابل، لايفترض أنه أجلى مواطنى مدينة بابل أو كوث، حيث أن كلاً منهما من المدن المقدسة البابلية، وهو نفسه الذى أكد على الأفضلية المقدسة القديمة لهذه المدن، بعد أن احتل بابل من مردوخ بلادن الكلدانى عام ٧١٠ ق.م. ويتضح إذن أن سرجون ماهو إلا سنحاريب، الذى ناقض نزعة أبيه وميله إلى بابل، وحارب بابل وأجلى آلاف من سكانها، وكان هو نفسه الذى أجلى أهل بابل وكوث إلى السامرة. ويضيف كاتب سفر عزرا [٤: ٢ - ١٠]، أن كلاً من أسرحدون ملك أشور واسنفر العظيم الشريف - وعلى مايبدو انه ابنه أشوربنيبال - قد أجلوا سكانا إلى أرض السامرة. ويفترض أنهم نقلوا من عيلام وجبال إيران.

وكانت الشعوب الجديدة تعبد آلهتها فى المرحلة الأولى، فكل شعب يعبد إلهه، ولكن بمرور الزمن تداخلوا معاً ومع البقية من أهل السامرة. وتضيف القصة المقرائية [ملوك ١٧] تفاصيل ممتعة حول مراحل ترسيخ جذور المجليين الأجانب فى الأرض. وطبقاً للقصة هاجم الأسود المجليين، فاتجهوا إلى ملك أشور «قائلين إن الأمم الذين سبيتهم وأسكنتهم فى مدن السامرة لا يعرفون قضاء إله الأرض فأرسل عليهم السباع فهى تقتلهم لأنهم لايعرفون قضاء إله الأرض» [ملوك ١٧: ٢٦]. وفى المقابل تجسد موضوع تعليم المجلي من قبل الحكام «مخافة الرب»، ونجد وصف بناء دور شروكين العاصمة

الجديدة التى شيدها سرجون ملك أشور. وتحكى هناك أن سرجون أجلى للمدينة الجديدة «أناساً من كافة أرجاء الأرض، يتحدثون لغة غريبة مبلبلة، يسكنون الجبال والسهول...» وهؤلاء المجليون، كما يقول سرجون: «جمعتهم وأسكنتهم فيها. وأرسلت لهم خبراء أشوريون فى كل شئ كموظفين، كى يعلمونهم معنى «مخافة الرب والملك». أى أن اعتبروا بلورة أسس ثابتة متعددة الأجناس فى مدن المملكة الأولى وولاياتها وجعلها وحده محلية واحدة ذات وحده دينية جديدة، وهو دين موطنهم الجديد، بمثابة وظيفة حكومية من الدرجة الأولى. وذلك لكى تصبح الجماعة فذعنة للمملكة والمؤتمرين بأمرها.

وبهذا تبلورت، قبل العصر الفارسى فى تخوم مملكة إسرائيل السابقة، كينونة عرقية دينية جديدة وهي السامريون. وهناك دلائل على أن سكان السامرة المحليين، أهل إسرائيل، حافظوا على علاقتهم بمملكة يهودا التى ظلت مستقلة بعد دمار مملكة إسرائيل.

وساهم فى تقوية هذه العلاقة حقيقة أنهم كانوا خاضعين للحكم الأشورى الأجنبي. وكذلك وربما أكثر منه، ظلت العلاقة بين بقية سكان الجليل وبين القدس [انظر فترة حكم حزقيا]. وزادت قوة تلك العلاقات بعد احتلال يوشيا للسامرة ووصوله إلى الجليل. وقد احتفظ العهد القديم (المقرا) ببعض المعلومات القليلة حول أبناء «الأسباط العشرة» الذين أجلوا إلى أشور، وظل غموض مصيرهم التاريخى موضوعاً أسطورياً قومياً فى الشتات فى الأجيال التالية. وقد أجلى معظمهم إلى أنحاء جوزن على نهر حابور. وقد دمرت منطقةجوزن، وهى من أهم الأقاليم الأشورية، فى نهاية القرن العاشر وخاصة فى القرن التاسع، فى فترة الحملات الحربية لأشور نصربال الثانى، وأعيد بناؤها بالتدريج منذ عهد تجلات بلاسر الثالث، وصاعداً. وقد تم توطين

قليل من المجليين من إسرائيل في مدن مادى [أو جبال مادى]، وعلى مايبدو أنهم خدموا كجنود حامية في وحدات منظمة تابعة للجيش الأشورى. وقد انتشر أسلوب ضم وحدات كاملة من جيش الشعوب المحتلة إلى الجيش الأشورى في الامبراطورية.

وبهذا الأسلوب أخذ سرجون، مثلاً، من السامرة خمسين راكباً [وفى نسخة أخرى ٢٠٠ راكب] وضمهم إلى حرسه الملكى الخاص، كما أخذ سنحاريب من حزقياً الكتائب الضاربة [الصاعقة]. وطبقا لذلك يمكن تفسير وجود اسم قائد جيش يدعى حلقياهو، وهو ضابط في جيش أشور، في وثائق ترجع لعصر سرجون تم اكتشافها في كلح. كما ذكرت بعض الأسماء في الوثائق التي اكتشفت في جوزيه نفسها، وتشهد على أنه كان هناك استقرار إسرائيلى في القرن السابع ق.م. وفي أحد خطابات أشور ذكر اسم اثنين من موظفى جوزن وهما فلطياهو ونرياهو حاملي وظيفة في الإدارة الأشورية، غير أنها تعتبر معلومات عرضية. أما مصير الأسباط العشرة فيغلفه الضباب، ويفترض أن قسماً كبيراً منها، والذى كان موجوداً في زمن الأنبياء إرميا وحزقيال [قارن إرميا ٣١ – ٨، حزقيال ٣٧: ١٩ – ٢٢]، قد انضم بعد ذلك لمن أجلوا من يهودا وعادوا للبلاد.

مملكة يهودا منذ تخريب السامرة وحتى تخريب القدس

عهد حزقياهو:

لقد رأى ملوك يهودا بعد تخريب السامره أنهم ورثة مملكة إسرائيل التى تم تخريبها وإستغلوا كل الوسائل الممكنه لفرض وصايتهم على المواطنين الذين لم يتم إجلاءهم، وبضم بقايا إسرائيل التى تقع تحت الاحتلال الآشورى إلى يهودا، وإجتهدوا فى نفس الوقت للتوسع شمالا فى عمق المناطق التى كانت تحت سيطرة إسرائيل.

وتبين هذه الأهداف سياسة حزقياهو بن آحاز الذى حكم فى المدة من ٧٢٧ وحتى ٦٩٩ق.. ويتضح لنا أنه لم ينضم لمحاولات التمرد المختلفة ضد آشور مثل آبائه حيث أنه لم يلعب دوراً فى تمرد إسرائيل فى عهد هوشع ابن آله والذى أدى إلى خراب مملكة السامرة.

وبسبب ذلك ساد السلام أيام آحاز الأخيره ومعظم أيام حزقياهو مما مَكَّن مملكة يهودا من أن تستتب سياسياً وإقتصادياً، كما كان من ثمار إستقرار هذه الفتره زيادة الإستيطان والتوسع العمرانى، كما نجح حزقياهو فى التوسع جنوبا. وعلى الرغم من أن يهودا كانت تؤدى الضرائب لآشور، إلا أنها كان لها فى عهد حزقياهو مكانة هامة فى المنطقة التى تقع بين آشور ومصر.

ولقد ترتب على ابتعاد حزقياهو عن التأير الثقافى الدينى للامبراطورية الآشوريه الكبرى، حدوث ذلك الإصلاح الدينى (الوارد بالتفصيل فى أسفار أخبار الايام الثانى ٢٩ - ٣١) والذى كان أساسه إلغاء مراكز العبادة خارج القدس وإلغاء التماثيل والنُصب التذكارية، مما أدى إلى زيادة أهمية الهيكل فى القدس، وكذلك إبراز هذه الأهمية وأهمية الكهانه أيضا. وتحدد "المقرا" وقت هذا الاصلاح بأنه فى السنة الأولى من ملك حزقياهو، ولكن يعتقد أن هذا التاريخ ليس دقيقا، لأن هناك مايدعو للاعتقاد بأن الاصلاح قد تم فى

فترة متأخرة جدا من حكم حزقياهو حيث ورد فى أخبار الأيام الثانى ٣٠، أن حزقياهو قد أرسل مبعوثيه إلى أفرايم ومنسى من بئر سبع وحتى دان وذلك لدعوتهم للإحتفال بعيد الفصح فى القدس، ويتضح من ذلك أن هذه الدعوة كانت بعد خراب مملكة السامرة كما أن «أخبار الأيام» تنص على أن الإحتفال بعيد الفصح كان من ثمار الإصلاح الدينى.

وفى النصف الثانى من حكمه غير حزقياهو توجهاته السياسية، ويبدو أنه توقع أن ملوك مصر سيساعدونه فى تخفيف وطأه الحكم الأشورى عليه. ولقد دفعه تخريب السامره لمحاولة معالجة آثار الضربة، بالاضافة إلى ان الوضع فى مصر تغير تغييراً جذريا.

إن ملوك كوش (النوبة/ إثيوبيا) الذين تميزوا بجيشهم المقدام وبكفاءتهم العسكرية تمكنوا من السيطرة فى ذلك الوقت على معظم مصر وفرضوا سيطرتهم على أمراء الدلتا. وفى عام ٧١٠ ق.م أقال الملك النوبى آخر أمراء الدلتا ونصب نفسه ملكا على مصر وأسس بذلك الاسرة الكوشية الخامسة والعشرون، وكما ذكر فى سفر اشعيا ١٠: ٨ قامت علاقات دبلوماسية بين يهود، وملوك كوش وربما كان ذلك قبل أن يحتل ملوك كوش مصر السفلى (الدلتا).

وقد عمل تمرد أشدود على آشور عام ٧١٢ بمثابة دافع آخر انساق وراءة حزقياهو، وكان على رأس هذا التمرد يمنى ملك أشدود، الذى تولى الملك بعد الذى كان موالياً لآشور عن الحكم ولقد حاول «يمنى» إقامة حلف موسع ضد آشور. وطبقا للخطة التى وضعها فقد كان من المقرر أن يشاركه سائر ملوك فلسطين وأدوم ومؤاب ويهودا، كما أن ملوك كوش وعدوا يمنى بمد يد المساعدة العسكرية له. ومن الجدير بالذكر، أن حزقياهو قد إنساق وراء المتمردين وتعاون معهم، وذلك على الرغم من نصيحة النبى إشعيا له بعدم الإنغماس فى أية مغامرة سياسية من شأنها أن تجلب الفناء على يهودا.

وما أن علم سرجون بالتمرد حتى أسرع (٧١٢ ق.م) بإرسال جيشه بقيادة الترتان - قائد الجيش لإخماد هذا التمرد. ولقد احتل الجيش الآشورى عددا من المدن التى تقع على حدود فلسطين، ومن بينها عزقة وضم أشدود المحصنة جيدا إليه، أما «يمنى» فقد هرب إلى النوبة وبعد فترة قصيرة قبض عليه ونقل إلى أشور.

وأثناء هذه التقلبات، نجح حزقياهو فى الانسحاب فى الوقت المناسب وإلغاء تأييده للمتمردين، ولذلك لم تصب يهودا أية أضرار من الحملة الاشورية على أشدود وبد ذلك بفترة قصيره عادت العلاقات وتوطدت بين ملك يهودا وبين «بلاط» الملك المصرى. ومرة أخرى بدأت المؤامرات تحاك ضد آشور وخرجت لحيز التنفيذ أول فرصة مناسبة بعد سقوط ملك آشور فى ساحة القتال (٧٠٥ ق.م).

النبى إشعيا:

كانت فترة الهدوء النسبى التى سبقت الصراع مع آشور وعهد الاصلاح الدينى ايضا فترة نشاط سياسى للنبى إشعيا بن آموص. وقد بدأ هذا النشاط عندما توفى الملك «عوزياهو» عام ٧٣٤، حيث ذكر أن روح النبوءة قد حلت به عندما تعرضت يهودا للأزمه السياسية الخطيرة. وخلال سنوات معدودة كانت يهودا قد هوت من المكانة المرموقة التى احتلتها منذ عهد «عوزياهو» وأصبحت هدفا للمؤامرات والاعتداءات العسكرية من جانب جيرانها، وبالذات من إسرائيل، وأرام، وآدوم وفلسطين.

وفى نفس الوقت كانت هناك نهضة نبوية فى يهودا بزعامة إشعيا الذي يبدو أنه كان ابن أحد النبلاء الارستقراطين، ولكنه كان بالنسبة لأفكاره النبوية إستمراراً لعاموس، حيث كان هناك اتفاق كامل فى وجهات النظر بينه وبين طبقات الشعب المطحونة (التى كان يسميها فى نبوءاته «شعبى»)، كما أنه كان يطالب بحقوق الضعفاء والفقراء وحث الأقوياء على إنصاف

المظلومين وعمل على أن يكون مصير الجماعة قائماً على العدل الإجتماعى، وأشار إلى أنه ليست هناك أية قيمة للقرابين.

وجنبًا إلى جنب مع صراع إشعيا الإجتماعى والتعليمى بين الشعب، كان يشارك فى صياغة السياسة الخارجية فى بلاط ملك يهودا، وكانت نصيحته الدائمه والمتكررة أن تعتمد يهودا على القوة العسكرية، على الحصان والعربة، وأن تعتمد ايضا على القوى الخارجية، مثل ضمان إنقاذ مصر لها فى وقت محنتها. وكان تفسيره للحوادث الكبيره التى ألمت بيهودا، هو أن معالجة هذه الأحداث لا يكون بالتمرد على آشور ولكن يكون بتطهير روح الامة عن طريق تحطيم الأصنام والمحافظة على التقاليد الدينية ونشر العدل. ويقول إشعيا، أن آشور التى تقوم بدحر الشعوب الاخرى ليست إلا إداة لتنفيذ غضب الرب الذى أرسلها لمعاقبة المخطئين، وأنها سوف تتحطم بعد تأدية مهمتها (إشعيا الاصحاح العاشر). وبالإضافة إلى ذلك فإن إشعيا نظر إلى الأحداث الكبيرة التى حدثت فى عهده من خلال نظرته الشاملة للعالم.

لقد كانت نبوءته تقوم على أساس الإصلاح الجذرى للخليقة وتغيير نظام العالم الإجتماعى والعمل على إنهاء الحروب، وأن يذهب العالم كله إلى جبل صهيون لأنه من هناك تخرج الشريعة ومن أورشلم تخرج كلمة الرب (إشعيا الاصحاح الثانى). وفى هذا النطاق جُددَتَ المهمه الحاسمه للملك الذى يأتى من بيت داود وليحكم فى هذا الزمان فيكون حكمه بالعدل فيزول النزاع من على الأرض ويحل السلام على العالم. وكما ذكر فى الاصحاح الحادى عشر من سفر إشعيا، فإن «الذئب يسكن مع الخروف ويربض النمر مع الجدى... والأسد كالبقر يأكل تبنًا» ويفهم من ذلك أن وجهة نظر إشعيا ترى أنه ليس هناك أى مغزى أو أهمية للعمليات السياسية التافهة الخاصه بعقد المعاهدات، وبمعنى آخر فإن النبى أعلن عدم فاعلية

وسلبية العمليات السياسية، وكما ذكر فى سفر إشعيا الإصحاح ٣٠: ١٥، فإن الهدوء والأمان يؤديان إلى العظمة: «بالرجوع والسكون تخلصون بالهدوء والطمأنينة تكون قوتكم».

وأثناء حملة سنحاريب، وفى الوقت الذى تعرضت فيه القدس للتخريب وتعرض مُلك داود للخطر، نجد أن إشعيا قد شجع وساند ملك يهودا وأكد له أن الرب قال أنه: «لا يدخل هذه المدينه ولا يرمى هناك سهمًا ولن يكون ولا يتقدم عليها بترس ولا يقيم عليها مترسة. فى الطريق الذى جاء فيه يرجع وإلى هذه المدينة لا يدخل يقول الرب وأحامى عن هذه المدينة وأنقذها من أجلى ومن أجل داود عبدى» (إشعيا ٣٧: ٣٣ – ٣٥). ولقد رد النبى إشعيا على الخطاب العدوانى الذى ألقاه «ربشقا» المبعوث الرسمى لملك آشور قائلا «إحتقرتك إستهزأت بك العذراء إبنة صهيون. نحوك أنغضت إبنة اورشليم رأسها» (إشعياء ٣٧: ٢٣ – فصاعداً).

ومما لاشك فيه أن بشرى إشعياء النبوية قد وجدت مؤيدين مخلصين ولقد ذكرت هذه النبوءة مرة أخرى على لسان «ميخا المورشاتى» (من موريشيت ـ جت، وهى مدينة صغيرة فى جنوب يهودا) معاصره، حيث لم يكرر ميخا الأفكار الواردة فى نبوءة إشعيا فحسب، بل كررها بنفس الإسلوب مصحوبا بتغييرات طفيفة. وذلك بالنسبة لوجهة النظر الخاصة بنهاية الأيام، كما أن ميخا تفوق عليه فى النقد الإجتماعى اللاذع، حيث توجه إلى زعماء الشعب قائلاً: «إسمعوا هنا يارؤساء بيت يعقوب وقضاة بيت إسرائيل الذين يكرهون الحق ويعوجون كل مستقيم. الذين يبنون صهيون بالدماء وأورشليم بالظلم. رؤساؤها يقضون بالرشوة وكهنتها يعلمون بالاجرة وأنبياؤها يعرفون بالفضه وهم يتوكلون على الرب قائلين أليس الرب فى وسطنا. لا يأتى علينا شر.لذلك بسببكم تفلح صهيون كحقل وتصير أورشليم خرابا وجبل البيت شوامخ وعرٍ» (ميخا ٣: ١ – ١٢).

إن التهديد بتخريب المعبد بسبب خطأ المجتمع الأخلاقى، كانت وجهة نظر ميخا التى لم يعمل بها إشعيا من قبل. وظلت أحاديث ميخا المسجلة تُعاد وتتكرر طوال مائة سنة، حيث أن إرميا النبى عرض نبوءة البلية الخاصه بميخا عندما قال: «أقمت هذا البيت على أنه للرب». وكان ميخا يبدو فى نظر الشعب على أنه نبى البلية.

حملة سنحاريب:

على الرغم من مواعظ الأنبياء الذين كان لهم تأثير كبير على حزقياهو فإن يهودا لم تقف بعيدة عن الثورة الكبرى التى حدثت ضد آشور بعد موت سرجون فى ميدان القتال سنة ٧٠٥ وانضمت إلى المتمردين. ولكونها أقوى دول المنطقة فإنها قد تولت الزعامة ولم تجد أيضا الخطابات الشديدة اللهجة ضد تمرد إشعيا النبى (إشعيا ٣٠: ١ - ٥، ٣١: ١) الذى كان مقرباً جداً من الملك. ولقد بدى فى بداية الأمر أن الوقت فى صالح الثورة، حيث استولى مرادخ بلادن الكلدانى على الملك فى بابل وطرد الجيش الأشورى من بابل وتعاونت «صور وأشقلون» أما ملك يهودا فقد إتصل بملك عقرون الموالى لآشور وقام بإجلائه إلى القدس وعقد معه حلفاً، وكان الهدف من كل ذلك هو التحرر من نير الآشوريين، وأكد ملك مصر الكوشى أنه سيأتى بسلاحه وعتاده لمساعدة المتمردين.

أما «حزقياهو» فقد رأى منذ البداية أن الجيش الأشورى سوف يضرب حصاراً على القدس، ولذلك أعد العدة وحصنها وخزن الطعام وقُويت الأسوار وتم إصلاح منابع المياه للإستفادة بها وقت الحصار، كما تم شق نفق أو جسر للإمداد. وكان هذا النفق هو نفق الإمداد الوحيد الموجود فى ذلك الوقت، وعن طريقة تم إرسال الإمدادات إلى داخل المنطقة التى تقع بين الأسوار وكان طول هذا النفق ٤٠٠ متر وتم تحصينه من الجانبين ويعتبر أول عمل معمارى من نوعه. وقد وجدت كتابات تصف هذا النفق على حائطه

واكتشفت هذه الكتابات عام ١٨٨٠، وهى من الشواهد الأثرية التى تعود إلى عصر «المقرا».

ويبدو أن سنحاريب لم يستطع التوجه لإخماد هذه الثورة، كما أنه لم يستطع السيطرة على بابل وكان ذلك سنة ٧٠٢. ولكن بعد سنة واحدة من ذلك، وبالتحديد فى ربيع ٧٠١ خرج سنحاريب على رأس جيش جرار وتوجه إلى مدن فينيقيا. وبمجرد وصوله إلى هناك ترك ملك صيدا (صيدون) المدينة وهرب وتمكن سنحاريب من السيطرة عليها. وبعد ذلك تلقى الهدايا والقرابين من الملوك الذين لم يثوروا أو الذين قرروا الخضوع، وهم ملوك أرود، وجبل وأشدود وعمون ومؤاب وأدوم، ومن هناك توجه على طول الساحل إلى فلسطين. وبعد أن أخضع يافا التى كانت تابعة لملك أشقلون تمكن من إخضاع أشقلون نفسها وعين عليها ملكا جديداً. وبعد ذلك ضرب حصاراً على مدينة عقرون التى وصلها جيش مصرى لمساعدتها، وهناك دارت الحرب بين الجيش المصرى والآشورى فى سهل التكة. ولقد وصف سنحاريب هذه الحرب فى نقوشه قائلاً: «أنه حقق فيها إنتصارات باهرة»، ولكن اتضح أن الأمر لم يكن كذلك، وأن هذا الوصف كان مُبالغاً فيه، لأن سنحاريب لم يطارد الجيش الكوشى بعد الحرب. ويبدو أن هذه المعركة لم تكن حاسمة، وبانسحاب الجيش المصرى تم إخضاع عقرون كما تمت محاكمة سكانها، ومن عقرون توجه سنحاريب لمواجهة حزقياهو ملك يهودا.

ولقد وُصفت شدة وعنفوان الحرب التى قامت بين سنحاريب وحزقياهو فى نقوش سنحاريب على النحو التالى: «ولما لم يخضع لى حزقياهو اليهودى، وأقام التحصينات حول مدنه التى بلغ عددها ٤٦ مدينة بخلاف المدن الصغيرة التى لاحصر لها، فقد ضربت حصاراً على هذه المدن واستوليت عليها، وأقمت السواتر الترابية والأسوار ثم انقضضت بسلاح المشاة واخترقت التحصينات وأسرت مايتراوح بين ١٥٠، ٢٠٠ شخص بين صغير وكبير ورجل وإمرأه وأخذت الأحصنة والبقر والحمير والجمال والأغنام غنائم

لىَّ وقد حبسته داخل القدس عاصمة ملكه كالعصفور فى القفص. وصببت عليه السواتر، وجعلت الخروج من بوابة مدينته أمر عصيبًا، ومدينته التى اقتنصتها اجتزأتها من بلاده ومنحتها هبة لملك أشدود، يفدى ملك عقرون ولصليعل ملك غزة. وهكذا تقلص حجم بلاده، وأضفت إلى الجزية السابقة التى كان يدفعها كل عام، منحًا إضافية وهدايا سيادية وفرضتها عليه». ويتضح من هذا الوصف أنه احتل معظم قلاع يهودا والمدن المحصنة والتى كان من أشهرها مدينة لخيش التى وجدت فيها بعد احتلالها نقوش بارزة فى قصر سنحاريب فى نينوى. وكما هو مكتوب فى سفر الملوك الثانى فإن ملك آشور أرسل بعثة إلى القدس وكان هو موجوداً فى لخيش وكان على رأس هذه البعثة قادة كبار جدا، مثل: «ترتان» (القائد الاعلى للجيش ومساعد الملك)، «راف ساريس» (قائد الجيش)، «راف شاقه» قائد حرس البلاد الملكى الذى كان يعرف اللغة العبرية وكلم أهل القدس المحاصرة بلغتهم. ان القصة «المقرائية» والتى هى من نوع «قصص الأنبياء» والتى كتبت بعد وقوع الحوادث بعدة سنوات، تصف حملة سنحاريب من خلال وجهة نظر خاصة بإستعادة الأحداث بصفة عامة، وتؤكد على تفصيلات هامه من وجهة النظر التاريخية الخاصة بالكاتب. فهى تقص عن الطلب الصارم الذى وجهه «راف شاقه» بخصوص الاستسلام فى خطاب شديد اللهجة ومميز بأسلوب التبجيل الذى كان يسود خطابات ملوك آشور كما أنها تبرز إدعاءات «شاقه» لملك يهودا ولآلهته الذى جاء كما تقص قصة المقرا بعد أن دفع حزقياهو الجزية.

وتقص المقرا أن جيش سنحاريب قد حلت به هزيمة إعجازية عند مداخل القدس: «وخرج ملاك الرب وقتل خمسة آلاف ومائة وثمانين من معسكر اشور (سفر الملوك الثانى ١٩ - ٣٥). ولكن هيرودوت حكى نفس قصة سنحاريب والذى يسميه «ملك آشور والعرب»، ولكن «هيرودوت» نقل مكان الحادثة إلى «بلوسيوم» عند مداخل مصر، ويقول أن فئران الحقول

كامل فى إصلاحات ياشياهو، وتم تفسير مقتل سنحريب على يد أبنائه بعد عشرين سنة من حملته على يهوذا على أنه عقاب على أقوال راف شاقه «شاقة» ودليلا على صحة نبوءة إشعيا. وكما ذكر فى (سفر الملوك الثانى ١٩: ٧): «فيسمع خبرا ويرجع إلى أرضه وأسقطه بالسيف فى أرضه».

فترة منسى:

توفى حزقياهو بعد عدة سنوات من الحملة، أى حوالى سنة ٦٩٨ وتولى إبنه «منسى» الملك وهو مازال صبياً وإستمر فى الحكم حوالى ٥٥ سنة كان فى معظمها مواليا لآشور.

ويوصف «منسى» فى «العهد القديم» (المقرا) على أنه الملك الذى عبد آلهة أجنبية وأدخل إلى يهودا وإلى الهيكل نفسه رموزًا وثنية (سفر الملوك الثانى ٢١: ١ – ٧): «وعمل الشر فى عينى الرب حسب رجاسات الامم الذين طردهم الرب من أمام بنى إسرائيل. وعاد فبنى المرتفعات التى أبادها حزقياهو أبوه وأقام مذابح للبعل وعمل سارية كما عمل أخاب ملك إسرائيل وسجد لكل جند السماء وعبدها. وبنى مذابح فى بيت الرب الذى قال الرب عنه فى أورشليم أضع إسمى. وبنى مذابح لكل جند السماء فى دارى بيت الرب. وعبر إبنه فى النار وعاف وتفاءل وإستخدم جاناً وتوابع وأكثر عمل الشر فى عينى الرب لإغاظته. ووضع تمثال السارية التى عمل فى البيت الذى قال الرب عنه لداود وسليمان إبنه فى هذا البيت وفى أورشليم التى إخترت من جميع أسباط إسرائيل أضع إسمى إلى الأبد».

ومن ذلك يبدو أن «منسى» قد أدخل إلى الهيكل ديانات فينيقية وسورية وربما آشورية أيضا. وغير معروف ما إذا كانت هذه الأعمال نابعة من ثقته فى مقدرة الآلهة الأجنبية، أو أنها كانت ثمار وجهات نظره بشأن مكانة يهودا داخل الإمبراطوريه الآشورية والتى كانت سبب عظمتها، أو أن هذه الأعمال كانت نتيجه ضغط القيادة الإمبرياليه الآشورية، وهناك إحتمال آخر وهو أن

تكون هذه الأعمال نتيجة تأثير الشخصيات الهامة الموالية للآشوريين والموجودة فى بلاط «منسى».

وعلى أية حال، يتضح أنه بفضل النفوذ الذى مارسته آشور على يهودا وبالذات فى عهد «منسى»، ودخول جيوشها إلى البلاد عدة مرات، بل ووجود قوات ثابتة ومرابطتها فيها، تمكنٌ مساعدى ملك آشور الآراميين والآشوريين من أن يفرضوا تأثيرهم الدينى والثقافى على يهودا.

وفى المقرا يصور «منسى» على أنه مخطئ كفارة له. ويؤكد إرميا على خطيئة الوثنية وعلى رأسها عبادة الملك، وهى خطايا شاعت، كما يتضح، فى عهد «منسى» بين معاصرى النبى. ولكن «منسى» يوصف أيضا على أنه تائب، حيث ورد فى الإصحاح ٣٣ من سفر أخبار الأيام الثانى، أن قادة ملك أشور قد قبضوا عليه بتهمة التآمر، ووضع فى أحد سجون بابل حتى صلى للرب هناك وغفر له. وما أن عاد إلى القدس حتى إهتم بتحصين المدنية «بنى سوراً خارجيا لمدينة داود غرب جيحون وأزال الآلهة الاجنبية الموجودة فى بيت الرب» (أخبار الايام الثانى ٣٣:٤).

ويمكن أن تكون هذه القصة «الوعظية» ذات أصل تاريخى حيث كان هناك شك فى أن يكون «منسى» قد إشترك فى التمرد، وبالتالى تم القبض عليه ثم أطلق سراحه بعد ذلك. وإذا كانت عبادة الآلهه الاجنبية. قد حدث بسبب وقوع «منسى» تحت التأير الآشورى، فإن ضعف آشور فى نهاية أيامه ورغبة «منسى» فى إظهار التغيرات التى طرأت على أهدافه وأعماله فى مجال الدين. ولكن من الصعب تحديد الخلفية أو الدافع وراء هذه الاحداث. ولقد كانت الاحداث التى وقعت فى يهودا فى عهد «منسى» ذات أهمية نظراً لأهمية يهودا وللحملات التى شنها «أسرحدون»، «وآشور بنيبال» ملوك آشور على بابل. ولقد كان هدف حملة «أسرحدون» من سنة ٦٧٤ وحتى ٦٦٩ وحملة إبنه «آشور بنيبال» من سنة ٦٦٨ وحتى ٦٦٣، وهو إحتلال مصر،

وهُزم جيش آشور فى إحدى الحملات سنة ٦٧٤ عند مداخل مصر وإستعان «أسرحدون» فى هذه الحملات بجيوش الواسليين الموجودين فى فلسطين، ومن ضمن هذه الجيوش كان جيش «منسى» ملك يهودا . ولقد قدم «منسى» مساعدات وجيشا لآشور بنيبال» وسمح لجيش آشور بالعبور عدة مرات من يهودا، كما قام «آشور بنيبال» بعدة حملات حربية على وادى الاردن وذلك لضمان السيطرة على الطرق التجارية التى كانت لها أهمية كبيره جداً فى هذه الفترة بوصفها الشريان الحيوى للتجارة العربية اللازمة للملك ووزرائه؛ العطور والتوابل ووسائل الرفاهية. وبهذه الحملات بث الآشوريون الرعب فى قلوب القبائل العربية، كما أنهم مروا عدة مرات فى المناطق المحيطة بيهودا . ولم تخف وطأة آشور على يهودا إلا بعد أن ضعف جيش آشور وتحررت مصر من نفوذ آشور وانسحب جيشها منها بعد عام ٦٥٦ على الرغم من بقاء السلطة الآشوريه فى البلاد على الأقل حتى عام ٦٤٩، وتشهد على ذلك القوائم الإدارية الآشورية فى جازر.

وبصفة عامة، «فقد ضعفت آشور من الداخل نتيجة حروبها المتتاليه مع بابل وعيلام، ازداد الخطر الذى كان يهددها من الشمال وغزو بنى جومر (القيماريين) لحدود آشور، مما أشاع الأمل لدى يهودا فى أن تتحرر من سيطرة آشور، وتم هذا التحرر فعلا فى عهد ياشياهو حفيد «منسى».

وقبل أن يتولى ياشياهو المُلك، مرت هذه السلالة الملكية بأزمة عنيفة: وهى مقتل «آمون» إبن «منسى» الذى تولى الملك لمدة سنتين أى (٦٤١ – ٦٤٠) قبل الميلاد على أيدى متآمرين فى السنة الثانية من توليه المُلك، وهى عملية مغلفة بالغوض، ولكن يمكن أن يكون مقتل هذا الملك متعلقا بزيادة النفوذ الدينى الأجنبى فى القدس كما يتضح من سفر أخبار الأيام الثانى ٣٣: ٢٢ (وعمل الشر فى عينى الرب كما عمل «منسى» أبوه وذبح آمون لجميع التماثيل التى عمل «منسى» أبوه وعبدها).

ولقد اتضحت أهمية «شعب الأرض» (العامة) بعد مقتل «آمون»، بإعتباره الجهة التى تقوم بتنصيب الملوك وقت الأزمة. وقد تدخل العامة هذه المرة وقاموا بضرب الذين تآمروا ضد آمون» ونصبوا إبنه ياشياهو ملكاً عليهم (الملوك الثانى ٢١:٢). وبصعود ياشياهو للملك، وبعد أن إستقرت وإستتبت الأمور فى البلاد، وبالتحديد فى السنة الثامنة من حكمة، بدأ عهد جديد فى تاريخ يهودا، وحدث تغيير جذرى فى شتى المجالات السياسية والدينية والاجتماعية فى داخل يهودا، كما حدثت تغييرات جذرية ايضا فى سياستها الدولية.

ياشياهو وأعماله:

على الرغم من أن الأحداث التى ألمت بآشور فى عهد «آشور بنيبال»، وبالذات فى أيامه الأخيرة غير واضحة الأهداف، إلا إنه يمكن القول، أنه فى نهاية عهده ضعفت العلاقة بين الأقاليم البعيدة، ومن بينها يهودا وبين العاصمة. ولقد زادت قوة مصر فى فلسطين كما احتل «بسماتيك الأول مؤسس الأسرة السادسة والعشرون» أشدود التى كانت تابعة للآشوريين. وقد حدثت فى آشور ازمة حادة بمجرد موت «آشور بنيبال» عام ٦٢٧، وكان سبب هذه الأزمة هو تمرد بابل على آشور بزعامة الأمير الكلدانى «نبوبلاسر» الذى أسس بعد ذلك مدينة بابل الجديدة (الكلدانية). ومنذ ذلك الوقت بدأ صراع كبير بين ورثة «آشور بنيبال» وبين ملك بابل، ويحتمل أن تكون آشور نفسها قد انقسمت إلى قسمين إداريين متعاديين. وقد بدأت الحرب بين «آشور إتيل إلانى» بن «آشور بنيبال» (٦٢٧ - ٦٢٣) وبين أخيه «سين سر إشكون» (٦٢٣ - ٦١٢) والذى تفتتت الإمبراطورية فى عهده وخربت آشور نفسها أيضا. وعلى أساس هذا الموقف الذى حدث فى عهد «منسى»، وبالتحديد فى نهاية أيامه، قويت حركة التحرر من النير الآشورى بعد عشر سنوات من الاستعباد المستمر.

ولقد تحقق التحرر ليهودا تدريجيا دون إراقة دماء في مجالين رئيسيين: ففي المجال السياسي سيطرت يهودا على مناطق مملكة إسرائيل السابقة، وهي السامرة والجليل، وفي المجال الداخلي حقق ياشياهو إصلاحات دينية جذرية، وكان التحرر في هذين المجالين هو الدافع لاحياء القومية الثقافية في يهودا القديمة والتي كانت موجوده قبل سقوطها.

ولقد بدأت إصلاحات ياشياهو في السنة الثانية عشرة من حكمه والتي توافق سنة ٦٢٨، وكانت هذه الاصلاحات ناتجة عن التأثيرات الدينية الآرامية والفينيقية والآشورية. ففي السنة الثامنة من ملكه، وكان مازال صبيا غضاً بدأ يبتهل لآلهة أبيه، وفي السنة الثانية عشرة بدأ في تطهير يهودا والقدس من التماثيل والأصنام وشهد هو بنفسه تكسير وتحطيم هذه التماثيل والأصنام وذبح الذبائح لتطهير يهودا والقدس من هذه الأرجاس. ويتضح هذا في (سفر أخبار الأيام الثاني ٣٤: ٣ – ٧) : «وفي السنة الثامنة من ملكه إذ كان بعد فتى إبتدأ يطلب إله داود أبيه. وفي السنة الثانية عشرة إبتدأ يطهر يهوذا وأورشليم من المرتفعات والسواري والتماثيل والمسبوكات. وهدموا أمامه ذابح البعليم وتماثيل الشمس التي عليها من فوق قطعها وكسر السواري والتماثيل والمسبوكات ودقها ورشها على قبور الدين ذبحوا لها. وحرق عظام الكهنة على مذابحهم وطهر يهوذا واورشليم. وفي مدن «منسى» وافرايم وشمعون حتي ونفتالي مع خرائبها حولها هدم المذابح والسواري ودق التماثيل ناعماً وقطع جميع تماثيل الشمس في كل أرض إسرائيل ثم رجع إلى اورشليم».

وإلى هذه الفترة تنسب عملية إزالة التماثيل الدينية التي ميزت عصر «منسى» (الملوك الثاني ٢٣: ٤ ـ ١٢). ولقد كان لتحرير يهودا من قبضة آشور الفضل الأكبر في تطهير العبادة في القدس نفسها، وبعد ذلك في أنحاء يهودا وجنوب جيل أفرايم. وقد كان من نتائج تحرير يهودا أيضا منع التماثيل من أنحاء إسرائيل وفي كل مدن السامرة، وكذلك في منطقة نفتالي،

كما تم تدمير المراكز الدينية المعروفة منذ ايام مملكة إسرائيل، وعلى رأسها المنصة الكبيره التى فى بيت الرب والتى أقامها «يربعام بن نابط». وتوجد تفاصيل هذه الأعمال فى سفر الملوك الثانى الاصحاح ٢٣، وقد نسبها المدون إلى العام الثامن عشر من مُلك ياشياهو، ولكن يبدو أنها بدأت فى العام الثانى عشر من ملكه وإستمرت حتى العام الثامن عشر، أى حتى عام ٦٢٢. ومن أبرز أعمال هذا الملك أنه حرم على الكهنه تقديم القرابين فى بيت المقدس (الهيكل) على الرغم من أنه جمعهم فى القدس. وقد قوت هذه الأعمال من مكانة القدس كمركز دينى فى إسرائيل، كما رفعت أيضا من مكانة المملكة. ولقد كانت الايديولوجية المصاحبة لحركة الاصلاح هى التعبير عن هذه المسيرة التى عرفت باسم «تثنية التواره»، وتبلورت فى أن القدس، وهى المدينة التى إختارها الرب لتحمل إسمه، وهى المدينة المقدسة الوحيدة وهيكلها هو المكان الوحيد لعبادة الرب، وأى مكان آخر غير صالح لعبادة الرب وتقديسه. ولقد تبلورت وجهة النظر هذه منذ أيام «حزقياهو» ثم نُفذت بمفهومها الكامل في عهد ياشياهو الاصلاحى، وكان مؤيدوها هم الذين وجهوا الملك فى كل أعماله. وقد حدثت ذروة هذه الإصلاحات فى السنة الثامنة عشرة لحكم ياشياهو (٦٢١/٦٢٢)، عندما تم اكتشاف سفر الشريعة (التوراه) بطريق الصدفة عندما كانوا يقومون بترميم الهيكل فى القدس وقراءته أمام الملك مما كان له أثر كبير فى نفسه.

وتحتل مشكلة هوية هذا السفر المحور الرئيسى فى دراسات المقرا، وأتضح بنسبة عالية جداً، أنه يمثل جزءاً كبيراً من سفر التثنية، سواء كان جميعه أو إصحاحات التوبيخ الأخيرة منه، وذلك لأنه السفر الوحيد من بين أسفار التوراه الذى يؤكد الخطر الشديد على عبادة الرب خارج المدينة المختارة، كما يبين أيضا عقوبة الذين يصرون على عبادة إلها أجنبيا. والسفر نفسه تمت صياغته فى صورة عهد بين إسرائيل والرب على أن يقوم شعب إسرائيل بعبادة الرب ولا أحد غيره، بحيث يؤدى خرق العهد، كما هو

شائع فى عهود بين أتباع ديانات معاصرة لهم، إلى عقوبات خطيرة جداً، على رأسها إبادة الشعب والنفى والخراب. كما هو تبين ذلك مأخوذه عن منشورات أدبية يحتمل أنها آرامية المصدر. ويتضح التأثير العميق لهذا السفر فى الإصحاحات الثانى والعشرين والثالث والعشرين من سفر الملوك الثانى حيث أراد المؤلف أن يبين أن اكتشاف هذا السفر بيَّن جميع الإصلاحات التى تمت وليس إصلاحات ياشياهو فقط. وكما ذكر فإن الملك قد مزق ملابسه عند سماعه هذا السفر ثم قرئت الشريعة أمامهم جميعا، والتى التزم فيها الشعب أمام الرب بتنفيذ كل ماهو مكتوب فيها: «فلما سمع الملك كلام سفر الشريعة مزق ثيابه. وأمر الملك حلقياً الكاهن وأخيقام بن شافان وعكبور بن ميخاو وشافان الكاتب وعسايا عبدالملك قائلاً: إذهبوا إسألوا الرب لأجلى ولأجل الشعب ولأجل كل يهودا من جهة كلام هذا السفر الذى وجد. لأنه عظيم هو غضب الرب الذى اشتعل علينا من أجل أن آباءنا لم يسمعوا الكلام هذا السفر ليعملوا حسب كل ما هو مكتوب علينا . وقد جمع ياشياهو مندوبى الشعب فى القدس وكل شيوخ يهودا وكل رجالها وكل مقيم فى القدس والكهنة والأنبياء وكل الشعب».

ولقد إنتهت النهضه القومية والدينية الكبيرة التى حدثت بين الجماهير نتيجة هذا العمل بالاحتفال بعيد الفصح فى القدس، «حيث لم يتم الاحتفال بهذا العيد بهذه الصورة منذ عهد القضاة الذين حكموا إسرائيل وطوال حكم ملوك إسرائيل وملوك يهودا».

وقد آمن الملك والشعب بأنه ستبدأ فتره جديدة فى تاريخ إسرائيل حيث ألغيت كل رموز عبادة الآلهه الغريبة التى تعود إلى عهد «منسى»، وألغيت أيضا السوارى التى كانت مقامة فى القدس، وهو المكان الذى إختاره الرب وأصبح مكان العبادة الوحيد فى إسرائيل. وفى الحقيقة، كان لعملية الاصلاح وكذلك لحركة «التثنية التوراتية» التى صاحبتها تأثير كبير فى تاريخ إسرائيل. حيث أدت إلى إحياء التقاليد التاريخية الخاصة بالعهد الذى قطع مع الرب فى بداية تاريخ بنى إسرائيل عند جبل سيناء.

وقد كان عهد ياشياهو عهد إنتعاش إقتصادى وسياسى ليهودا، وكان الاهتمام بالإحياء القومى يهدف إلى التوسع الإقليمى حيث عمل ياشياهو على أن يجمع من جديد تحت سلطة القدس كل مايمكن ضمه من مملكة إسرائيل. ولقد وصلت يهودا فى المرحله الاولى من الوادى الذى فى جبل أفرايم حتى بئر سبع الذى يقع جنوبها، وبعد ذلك إمتدت إلى الجليل، كما توسع ياشياهو أيضا ناحية شمال فلسطين واستعاد السيطرة على الجزء الشمالى للبحر. وقد وجدت دلائل سيطرة على هذه المناطق فى الحصن الموجود على شاطئ البحر شمال أشدود والمعروف اليوم باسم «متساد حشبياهو» والذى تم الكشف عنه منذ فترة ضمن الحفريات الأثرية. ويحتمل أن يكون هذا الحصن قد بنى لسبب عسكرى يتعلق انتشار سيطرة السلطات المصرية على فلسطين وإحتلال أشدود فى ذلك الوقت فى عهد بسماتيك الأول،، وهو الوقت الذى توقفت فيه توسعات ياشياهو فى إتجاه الشمال. وقد كانت السنوات الأخيرة من مُلك ياشياهو مليئة بالأحداث. ففى الصراع بين آشور وبابل الكلدانية تعاظمت قوة بابل حيث إنضم إليهم حليف قوى، هو بنى ميدى (الميديين) الذى أقاموا مملكة بعد خراب عيلام على يد آشور بنيبال». ولقد إشتركت القوة الثالثة فى ذلك الوقت، وهى مصر، فى هذه الأحداث عندما جاء «بسماتيك» لمعاونة آشور الضعيفة ولكن غير معروف ما إذا كانت هناك معاهدة بينهما أم لا. وعلى أية حال، فقد حاربت الجيوش المصرية عام ٦١٦ بجانب الآشوريين ولكن بلا جدوى، حيث سقطت مدينة آشور فى يد الميديين عام ٦١٤. وفى عام ٦١٢ ونتيجة لهجوم مفاجئ مدينة «نينوى» عاصمة آشور، وهو الأمر الذى أغضب كل الشعوب وأثارهم على «ناحوم الكوشى» النبى الذى عاصر الأحداث، لأنه أبدى سروره البالغ للسقوط المفاجئ لعاصمة الامبراطوريه الطاغية.

وما أن خُربت «نينوى» حتى أبرم ملك الميديين الظافر معاهدة مع «نبوبلاسر» ملك بابل وبذلك وصلت الإمبراطورية إلى نهايتها. ولكن الجيش

الآشورى إنسحب غرباً وبدأ يحارب مرة إخرى وتمركز فى «حاران» التى أحتلها الميديون والبابليون، وفى عام ٦٠٩ تمكن ملك آشور الأخير من التمركز في كرمكيش، التى خف إليها ملك مصر.

وليست لدينا معلومات واضحة عن الإتجاه السياسى ليهودا أثناء هذه الثورات، كما أننا لانعرف الأسباب التى جعلت ياشياهو يخرج عام ٦٠٩ ويسد الطريق أمام «نخو» بن «بسماتيك» ملك مصر، عندما أسرع متجها إلى منطقة كركميش وحاران لإنقاذ بقايا الجيش الآشورى. وربما كان من هذه الأسباب، أن ياشياهو كان يخشى من قوه مصر أو من إمكان صحوة الأشوريين، أو أنه كانت هناك معاهدة بينه وبين البابليين! وعلى أية حال، فقد حاول وقف الجيش المصرى بجوار مجيدو، ولكنه أصيب فى المعركة التى دارت بينه وبين الجيش المصرى ونقل إلى القدس حيث مات هناك. وبعد موته تدخل «شعب الأرض» كعادته فى أزمة الوراثة الملكية وقاموا بتصيب إبنه يهوآحاز، الذى لم يكن إبنه الأكبر، لأن إبنه الاكبر كان يهوياقيم. ولكن ما أن عاد«نخو» وخرج بعد عدة شهور من حصار حاران حتى أسر «يهوآحاز»، ونصَّب أخاه «يهوياقيم» بدلا منه وقام بفرض عقوبة على يهودا وسلم الذهب والفضه إلى فرعون: «ودفع يهوياقيم الفضة والذهب لفرعون إلا أنه قوّم الارض لدفع الفضة بأمر فرعون. كل واحد حسب تقويمه. فطالب شعب الارض بالفضة والذهب ليدفع لفرعون نَخو» (الملوك الثانى ٢٣:٣٥).

ولكن الحكم المصرى على إسرائيل لم يستمر إلا سنوات معدودة، حيث هزم الجيش المصرى عام ٦٠٥ فى موقعة بجوار كركميش التى تقع على نهر الفرات. وكان المنتصر فى هذه المعركة هو نبوخذ نصر بن نبوبلاسر الذي تولى الملك على بابل بعد موت أبيه بعدة شهور. وفى عام ٦٠٤ وصل جيش بابل إلى سوريا وإسرائيل ويهوداً وقام باستعباد «يهوياقيم»، وأصبحت يهودا فى قبضة الملكة الكلدانية.

نهاية عصر يهودا ودمار الهيكل

يجرى تصوير أحداث العشرون عاماً الأخيرة من الحكم البابلى فى يهودا بين دفتى سفر الملوك الثانى. (الاصحاحات ٢٤ - ٢٥)، وفى الأساس عبر صفحات سفر إرميا، ذلك النبى الذى بلغ ذروة نشاطه النبوى فى تلك الأونة، هذا بالإضافة إلى مواد تاريخية لاحقة تم الاهتداء إليها فى التواريخ البابلية الجديدة من شأنها أن تستكمل الصورة المتبلورة من خلال الشهادات الواردة فى "المقرا"، وخاصة فيما يتعلق بمراحل سيطرة "نبوخذ نصر" على أرض فلسطين، وتاريخ بابل حتى عام ٥٩٤ (حيث لم يحفظ لنا التاريخ البابلى الأجزاء التى تسرد تاريخ "نبوخذ نصر" وحياته بعد عام ٥٩٤.

ويتبين من مطالعة التاريخ البابلى، أن "نبوخذ نصر" استطاع فى أولى سنوات حكمه أن يبسط نفوذه على كافة الأراضى الحيثية، وهو ما يشير إلى سوريا وأرض فلسطين. وقد امتد نفوذه حتى عسقلان التى استعصت على قواته بعض الشيء. بيد أنه تمكن منها، ونفى ملكها ومواطنيها، ثم قام بتدمير المدينة، وقفل عائداً إلى بابل. وقد حدثت هذه الواقعة فى شهر كيسليف، أى الشهر التاسع، ويقيناً أن "يهويا قيم" قام تحت تأثير هذا الحدث المصيرى بدعوة الشعب بأسره لأن يمتثل صائماً أمام الرب فى القدس (إرميا ٣٦: ٩). وفى تلك الأثناء تلا النبى لفيفة نبواءته فى حضرة الملك وطالب فيها بالخضوع التام إزاء بابل. وحسب تصورات إرميا (٣٧: ٦، ٢٥: ١٢) نجد أن بابل ستحتفظ بنفوذها طيلة فترة حكم "نبوخذ نصر" وابنه وحفيده، أى لمدة ٧٠عاماً (وهذا النمط الأدبى المألوف، يرمى إلى سنوات عمر الملك، قارن مع إشعياء ٢٣: ١٥)، ومن ثم فإن أى محاولة لشق عصا الطاعة كان محكوماً عليها بالفشل مسبقاً.

وظل "يهويا قيم" يسير فى ركاب ملك بابل لمدة ثلاث سنوات، وما أن حاول "نبوخذ نصر" عام ٦٠١ أن يغزو مصر، وحاقت به الهزيمة فى أعقاب

معركة حامية الوطيس عند مشارف مصر، حتى رفع "يهويا قيم" راية العصيان (ملوك ثان ٢٤: ١).

وعلى ما يبدو، فإن مواطني يهودا لم يكونوا قد اعترفوا بعد - باستثناء إرميا والمقربين منه - بسطوه بابل وقوتها، ويضاف إلى ذلك، أن الملك "يهويا قيم" - الذى نصبه ملك مصر - كانت تداعب خياله بعض أوهام بخصوص القوة المصرية وإنها قد تحل محل الأشوريين، حيث اعتبر حكام يهودا أن دمار أشور هو بمثابة معجزة حقيقية، إذ حطم الرب «مطرقة كل البلاد»، وتحققت وعود الأنبياء، وأنه من الآن فصاعداً سيسود عصر السلام المنشود. والحقيقة هى أن النبى "حبقوق" أدرك مغزى هذه الأحداث وتأثيرها على آشور، وأعرب عن اندهاشه البالغ لأن الرب رفع هامة الكلدانيين على حين غرة، «الأمة المُرّة القاحمة السالكة فى رحاب الأرض لتملك مساكن ليست لها». بيد أن وعى حكام يهودا، وارتفاع شأن الفراعنة من الأسرة السادسة والعشرين، الذى جعل من مصر مجدداً دولة عسكرية عظمى، تحظى بقدر كبير من الأهمية، وتسعى لإثارة الأذناب فى أرض فلسطين ضد السلطات البابلية، وتقريبهم منها - كل ذلك ساعد على تقوية ساعد أنصار التمرد فى القدس.

ولم يتدخل"نبوخذ نصر" لمدة ثلاث سنوات بصورة مباشرة لقمع التمرد، ولكنه أطلق كتائبه العسكرية على "يهويا قيم"، وفى عام ٥٩٨ فحسب قام بغزو يهودا، وفى ذات الوقت فارق "يهويا قيم" الحياة، وخلفه ولده "يهوياكين" (كانياهو) سنة ٥٩٧. واتخذ قراراً بالخضوع لبابل (ملوك ثان ٢٤: ١٢). وفتح بوابات القدس أمام "نبوخذ نصر". بيد أن هذا الخضوع لم ينقذ يهودا، ذلك أن "نبوخذ نصر"، وفقًا لرواية التاريخ البابلى: «حل بمدينة يهودا، أى القدس. واحتلها فى ثانى أيام شهر آذار. وقبض على ملكها. ونصب الملك الذى ارتضاه، ثم جَبَى ضرائب باهظة وأرسلها إلى بابل». وقد

كان هذا الملك هو "صدقياهو" عم يهوياكين، وقد كان عقاب يهودا قاسياً للغاية، إذ أنه علاوة على الضرائب الباهظة التي شملت جميع كنوز القصر الملكي، والذهب الذي جعله سليمان في معبد الرب - قام ملك بابل بإجلاء «القدس بأسرها، وجميع الحكام والقادة، عشرة آلاف منفي. وجميع الصناع وأصحاب المهن. ولم يتبقى هناك سوى فقراء "شعب إسرائيل"، وحتى الملك "يهوياكين" وأمه ونسائه وخصيانه تم نفيهم أيضاً. وعلى النقيض من "عسقلان" لم يدمر "نبوخذ نصر" القدس العاصية، إذ يبدو أن خضوع "يهوياكين" الذي خرج من المدينة المحاصرة بصحبة أمه وعبيده ليكون في استقبال "نبوخذ نصر"، هو الذي أنقذ المدينة من الدمار في هذه المرحلة.

وبدلاً من الملك المنفي هو وبلاطه ونسائه وخصيانه، أجلس "نبوخذ نصر" العرش "متنيا بن ياشياهو" هو عم "يهوياكين"، الذي تغير اسمه منذ ذلك الحين وصار يدعى "صدقياهو" (ومن المحتمل أن عملية تغيير الاسم ترتبط بالتمتع بوضع "التابع" وباليمين الذي يؤديه التابع الجديد في حضرة الملك ضماناً لأنه لن يحنث بالقسم)، ومع ذلك فإن "يهوياكين" أثناء نفيه ما برح يعتبر ملكاً ليهودا في عيون البابليين وظل يتناول طعامه في مأدبة ملك بابل. وهناك وثائق تعود للسنة الثالثة عشرة لحكم "نبوخذ نصر" (٥٩٢) تشير إلى منح وجبات الطعام إلى "يهوياكين" ملك يهودا وأبنائه الخمسة. وقد جعلت هذه الحقيقة - الحفاظ على مكانة "يهوياكين" حتى في ظل نفيه - بطبيعة الحال زعيماً للمنفيين. (فظلوا يحسبون سنوات نفيهم وفقاً لتاريخ تولية للحكم، (حزقيال ١: ٢) كما ترتب عليها حالة من التوتر الزائد في يهودا، والفوضى من جراء غياب الصفوة في بابل، ولم يستطع المعتدلون الذين كانوا على استعداد لتحمل نير بابل مدعومين بإرميا ونبواته - وكان من بينهم الملك نفسه - أن يصمدوا في وجه المتطرفين أنصار الثورة الذين استندوا إلى الدعم المصري. وحتى بين دوائر المنفيين ببابل ظهر أنبياء تنبأوا

بخلاص قريب، وبسقوط بابل خلال سنوات معدودات (إرميا ٢٩: ٢ ـ ٢٢).
وكان هناك أنبياء على شاكلتهم فى القدس ـ وهم الذين دعاهم إرميا باسم "الأنبياء الكذبة"، وكان من ضمنهم حنانيا بن عازور من جبعون الذى وعد الشعب، بأن نير "نبوخذ نصر" سيتهاوى «بعد عامين»، والمحتمل هو أن السقوط الكامل الذى كان من نصيب آشور. والضربات التى ألمت بمصر، صورت لهؤلاء المتفائلين طرحًا مفاده أنْ أية امبراطورية عسكرية لن يطول بها الأجل، وأن النهاية المحتومة لكل إمبراطورية هى أمر مقرر، شأنه شأن تقدمها. وقد كان تصور إرميا قريب جداً من الواقع. إذ تصور أن بابل ستواصل بسط نفوذها حتى تبلغ من العمر عتيا، ومن ثم ينبغى أن يحنوا لها الرؤوس. وإذا كانت وجهه نظره هذه صادرة عن نفس التصورات بشأن الامبراطوريات الرائحة والغادية على صعيد الساحة العالمية، فقد أصبح النبى الذى تنبأ بذلك، بمرور السنين، نبى الدمار، الذى حذر باستياء بالغ من الحمق السياسى الذى دمر المملكة، ويوشك على تدمير الهيكل، وكانت جذور هذا الشر تكمن ـ حسب رأيه ـ فى الخطايا الأخلاقية والدينية، التى تساهم أيضًا فى تدنيس الهيكل (إرميا ٧: ١٠ ـ ١١).

إن الاعتداد بالنفس نظرًا لانتسابه إلى الكهنة، ومرارة الكهنة فى عناتوث، وآبائه الذين أبعدوا عن سلك الكهانة فى عهد سليمان، كل ذلك مُجْتمِعًا ترك أثرًا عميقًا فى شخصيته، لقد كان يحذر أبناء يهودا مطالبًا إياهم بالخنوع حتى تمر العاصفة، وناضل بمخاطرة حقيقية من أجل هذه الآراء. لقد ازدرى مصر وقوتها، وكان مقدراً له أن يهبط إليها فى شيخوخته، ليقضي بها ما بقى من عمره. وما أن تحققت نبوءته المفجعة، حتى كان عونًا للمتبقين، وزعيمًا للمنفيين فى طريقهم إلى بابل.

وقد تسبب الخلافات الداخلية فى يهودا الناجمة عن التوجه السياسى الذى تفشى فى عهدى يهويا قيم وصدقياهو، فى توسيع هوة الخلافات الاجتماعية وجعلت من القدس فى سنواتها الأخيرة ساحة للصدامات والمطاردات. وقد قيدت أيضاً فى عهد "يهويا قيم" وبشكل قاسى مساحة الحرية الممنوحة للأنبياء، وأحدهم، على سبيل المثال، وهو أوريا بن شماعيا، الذى تنبأ بخراب يهودا والهيكل، ثم فر إلى مصر هارباً، تم تسليمه إلى "يهويا قيم" وجرى إعدامه، وحتى إرمياء نفسه حوكم فى عهد "يهويا قيم" من قبل الحكام والكهنة بسبب نبوءته عن الدمار «وأجعل هذا البيت كشيلوه». ولولا مجموعة من الحكام المتعاطفين معه وتدخلهم للدفاع عنه. كان سينتظره بالطبع مصيراً معتماً هو الآخر (إرميا: ٢٥).

ويبدو أن الدافع للتمرد الأخير الذى قام به "صد قياهو" كان وثيق الصلة بالحملة البحرية التى شنها "بسماتيك الثانى" ملك مصر على المنطقة الفينيقية سنة ٥٩١، وقد أفلحت هذه الحملة وألهبت شرارة الأمل فى نفوس أعداء بابل. ومنذ ذلك الحين اشتد ساعد المتطرفين، وتحالف صدقياهو مع ملك مصر وتهيأ الشعب لمحاربة بابل، وكان الحماس الذي ملك نفوس طبقات الشعب وانتشرت الآمال المسيحانية انتشرت، حتى بين دوائر الأثرياء، أمراً غير مسبوقة، وكان تحرير العبيد العبريين الذى جرى تصويره فى سفر إرمياء ٢٤: ٨، يحمل بعض أوجه الشبه مع طقس تجديد العهد الذى أجراه ياشياهو. بيد أن الفرحة كانت قصيرة الأمد. ففى عام ٥٨٨ تقدم نبوخذ نصر نحو يهودا على رأس قوات هائلة وضرب حصاراً على القدس، استمر لمدة سنتين، وأثناء الحصار وصلت قوات النجدة المصرية، بقيادة الفرعون خفرع، الذى تولى حكم مصر فى العام نفسه، لكن حاقت به، على ما يبدو، الهزيمة فتقهقر عائداً صوب مصر. ويحكى هيرودوت كذلك (الكتاب الثانى

١٦١).أن خفرع قاد جيشًا لمهاجمة صيدا (صيدون)، ودخل فى معركة بحرية ضد ملك صور.

والواضح أن هذا التدخل المصرى لم يكن بوسعه - وفى آخر لحظة - أن يغير مجرى الأحداث، حيث شدّد الجيش البابلى حصاره وقطع كافة خطوط الاتصالات مع المناطق المجاورة. ويحتمل أن أوانى "لاخيش" الفخارية الشهيرة، ترجع لهذه الفترة، وكذا الخطابات التى تعكس أحوال الحصون وجندها المضطربين فى خضم المحنة، وفى النهاية استفحلت المجاعة داخل القدس المحاصرة، وتم اختراقها فهرب صدقياهو، ثم ألقى القبض عليه. ولأنه لم يحافظ على قسم التابعين، عاقبه البابليون بوحشية بالغة، فذبحوا أبناءه أمام عينيه، وفقئت عيناه، واقتيد إلى بابل مكبلاً بالأصفاد.

ولكن نهاية يهودا لم تتم إلا مع دمار القدس نهائيًا، وخراب الهيكل الذى يجرى وصفه تفصيليًا فى سفر الملوك الثانى (٢٥: ٨ فصاعداً): «وفى الشهر الخامس فى اليوم السابع، وهى السنة التاسعة عشرة للملك "نبوخذ نصر" ملك بابل جاء نبوزرادان رئيس الشرطة عبد ملك بابل إلي أورشليم، وأحرق بيت الرب وبيت الملك، ولكن بيوت أورشليم وجميع بيوت العظماء، وهدمت جيوش الكلدانيين أسوار أورشليم. أما بقية الشعب الذين بقوا فى المدينة و الهاربون الذين هربوا إلى ملك بابل، وبقية الجمهور، فقد سباهم نبوزرادان رئيس الشرطة. وكلن رئيس الشرطة أبقى من سكان البلاد زارعى الكروم والفلاحين» وعهد بأمر السكان الذين تبقوا فى البلاد إلى جدالياهو بن أحيقام بن شافان، سليل أسرة شهيرة من الحكام (جده شافان كان كاتبًا فى عهد ياشياهو. وكان فيما يبدو أحد كبار المعتدلين الذى عارضوا التمرد) وكان مقره مدينة "ماتسافا" فى أرض بنيامين بالمنطقة التى لم تدمر فيما يبدو أثناء الحرب. وقد استمر سلطانه مدة قصيرة للغاية، حيث شرع فى تجميع قادة الجيوش الذين هربوا، لدى خراب القدس، من مدن يهودا المحصنة ثم

عادوا فيما بعد إلى البلاد، وأخبر جداليا هو جميع المنضمين إليه أنه يحق لهم أن يقيموا فى "المدن التى يسيطرون عليها".

ويشير هذا الأمر فى الذهن عملية الإصلاح الزراعى التى طبقها سرجون ملك آشور بعد احتلاله للسامرة، عندما وزع أراضى المنفيين على المواطنين المتبقين. ولكن بعد مرور فترة قصيرة أغتيل جداليا هو على يد شخص من الأسرة الحاكمة وهو "يشمعئيل بن ناتانيا". الذى أرسله ملك العمونيين. وقد قضى هذا الاغتيال على فلول الحكم اليهودى بعد الخراب. فقد توجس قادة الجيش الذين كانوا مع "جداليا هو" والشعب الذى معهم، من انتقام الكلدانيين، فولوا الأدبار صوب مصر، أخذين النبى إرمياء معهم، ويرمز إغتيال "جداليا هو" فى الوعى الشعبى إلى نهاية وجود يهودا. وبعد مرور خمس سنوات من ذلك التاريخ (٥٨٢) عاد "نبوزرادن" قائد جنود ملك بابل ونفى ٧٤٥ نسمة من يهودا. وكان هذا هو السبى الثالث الذى يقوم به البابليون فى يهودا، التى ما برحت خربة حتى فترة العودة سنة ٥٣٨ ق. م.

الفهرست